مفارقات القرآن

مقارناته ومقابلاته وموازناته

(تفسير موضوعي)

محمد خير رمضان يوسف

١٤٤١هـ

مفارقات القرآن

مقارناته ومقابلاته وموازناته

(تفسير موضوعي)

محمد خير رمضان يوسف

١٤٤١ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله خالقِ الليل والنهار، والصلاة والسلام على النبيِّ المختار، وعلى آله وصحبهِ الأخيار، وبعد:

ففي لحظاتِ تفكر وتدبرٍ في كتاب الله تعالى، برق في ذهني ما ورد فيه من آيات تقارن بين الشيء ونقيضه، ومقابلات وموازنات بين أمور وأخرى، كقوله تعالى:

{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [سورة الزمر: ٩].

و{قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ} [سورة المائدة: ١٠٠].

و{لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة الحشر: ٢٠]

و{فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [سورة التوبة: ٢٨]... وهكذا.

وما تذكرتُ تأليفًا في الموضوع، وما سألت عنه، وما بحثت، فقد أعجبني، وأخذ بمجامع قلبي، وتأكدت من فائدته للقارئ، وأحببت أن يكون لي إسهام فيه، وعزمت على أن أبذل فيه جهدًا ليبدوَ في نظامٍ حسن، وأرجو أن أكون قد وفّقت فيه.

ثم عرفتُ أن (المقابلة) معدودة من علوم القرآن الكريم، وأنها نوعٌ من الطباق في البلاغة العربية، قال السيوطي في الإتقان (٣/٣٢٥): "ومنه نوع يسمَّى المقابلة، وهي أن يُذكر لفظان فأكثر ثم أضدادها على الترتيب". ثم أورد الفرق بين الطباق والمقابلة، والخلاف فيه.

والحقُّ أني لم أتقيد بفنّ بلاغي أو مصطلحٍ له في هذا الموضوع، حتى أورد له وجهًا واحدًا من الأمثلة والآيات المطابقة، ولا عملت له دراسة في الكتاب، وإنما أردت منه استفادةً مباشرة في تفسير موضوعيّ للآيات الكريمة الواردة في هذا المجال، ومادة للقراءة والفهم والاستيعاب والاعتبار، من خلال أربعة مصطلحات يتقارب بعضها من بعض، أو بينها خصوص وعموم، هي: (المفارقات، المقارنات، المقابلات، الموازنات).

وأردت بالمفارقة معناها اللغوي، وهو ما فارق وباينَ لفظٌ معنى لفظٍ آخر في اجتماعهما، كالطيّب والخبيث. وهذا قسم كبير من موضوع الكتاب وليس كله، ففي المصطلحات الأخرى ما يخفف من تناقض معنى اللفظين.

وقد بلغت المداخل الموضوعية للكتاب (١٢٦) مدخلًا، تحت كلٍّ منها تفسير آية، أو اثنتين، أو أكثر.

ورتبت المداخل على حروف المعجم، إلّا آخرها.

واعتمدت على معاني الألفاظ أحيانًا وإن اختلفت هذه الألفاظ، لأدخلها تحت ألفاظ أخرى موافقةٍ لمعناها، كما تركت بعضها مستقلة وإن تقاربت أو تداخلت مع مداخل أخرى، مثل الليل والنهار والصباح والمساء، ومثل الحسنة والسيئة، اللتين تأتيان بمعان عدة.

ولم أجمع كلَّ الآيات المتشابهة تحت عناوينها أو مداخلها، وإنما اكتفيت بواحدة منها. وقد أشير إلى الأُخَر أو بعضِها للفائدة، وخاصة إذا اختلف بعض ألفاظها، أو جاءت في معنى قريب.

وكان اعتمادي على التفسير الذي وضعته بتوفيق من الله "الواضح في التفسير"، الذي استنتجته وحررته من أفضل وأشهر التفاسير، وجمعت فيه بين علوم الأقدمين والمعاصرين، مع أسلوب ملائم ومشوِّق، يلائم قرّاء عصرنا.

وفائدة هذا العمل عظيمة، فهو تفسير وتدبر للقرآن الكريم أولًا، وجمع لما تشابه في موضوع معين. ومعظمها مقارنة بين نقيضين، أو بين فاضل ومفضول، أو حدّ وحدّ، ومرتبةٍ وأخرى، أو موازنة بين أمرين لسبب ما. وكلُّ هذا يبعث على التنبه والتفكر والتدبر، فبالضدِّ تتبين الأشياء، وتستقرُّ في الفكر، ويطمئنُّ القلب، بعد تلك المقارنات والموازنات. وهو أسلوب تربوي قرآني نافذ ومحكم، يناسب النفس البشرية بامتدادها، مثلها مثل أسلوب الترغيب والترهيب.

واللهَ سبحانه أسأل أن ينفع به، وأن يتقبله خالصًا لوجهه الكريم.

محمد خير يوسف

٢٧ ذي القعدة ١٤٤١ هـ

إستانبول

الإبصار والعمى = الأعمى والبصير

الأبيض والأسود
(البياض والسواد)

بياضُ الوجهِ يومَ القيامةِ يدلُّ على الإيمانِ والفوز، وسوادهُ يدلُّ على الكفرِ والخسرانِ والعقاب.
قالَ الله تعالى:
{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [سورة آل عمران: ١٠٦].
أي: في يَومِ القيامةِ تَبيَضُّ وجوهُ أهلِ الإيمانِ والخَير، وتُشرِقُ بالنور، وتَفِيضُ بالبهجةِ والسُّرور، ووجوهُ أهلِ الكفرِ والنِّفاقِ تَسْوَدُّ كالحِةً وكئيبةً منَ الحُزنِ والهَمِّ والغَمّ. ويُقالُ للمُنافقينَ والمرتدّينَ أهلِ الكفرِ والنِّفاق، الذينَ اسودَّتْ وجوهُهم: أكفرتُم بعدَ أنْ ذُقتُم حَلاوةَ الإيمانِ وعَرفتمُ الحقّ؟ إذاً فذُوقوا العَذابَ جزاءَ كفرِكم وتَفضيلِكمُ الباطلَ على الحقّ!
{وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران:١٠٧]
وأمّا الذينَ ابيضَّتْ وجوهُهم مُستَبشِرةً بالخَير، فهم في جنَّةِ اللهِ خالدون، في فَرحٍ وسَعادةٍ لا تَنقَطِع.

*** *** ***

والجبالُ تختلفُ ألوانُها وطرائقها. قالَ الله تعالى:
{وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ} [سورة فاطر: ٢٧].
٢٧أي: مِنَ الجِبالِ طُرُقٌ وخُطَطٌ، بِيضٌ وحُمْر، وهيَ مُختَلِفَةُ الألوانِ كذلك، وجِبالٌ سَوداءُ داكِنَةُ اللَّون؟

الإحياء والإماتة = الحياة والموت

الإخفاء والإظهار = السرُّ والعلن

الإخلاص والرياء

ضربَ الله مثلًا للمرائي والمخلصِ فقال:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [سورة البقرة: ٢٦٤].

تفسيرها: أيُّها المؤمنون، لا تَجعَلوا صدقاتِكم تَذهبُ هَباء، وذلكَ عندما تُتْبِعونَها بالمنِّ والأذَى، فتَتكبَّرونَ عَليهم وتعيّرونَهمْ بما لا يُحبُّون، فإنَّ هذا الغَلطَ منكمْ يُذهِبُ ثوابَ ما تَصدَّقتم به.

وهذا مَثَلُ المنفقِ المرائي بصدَقتِه، الذي يُعطي ليَراهُ الناس، وهو لا يرجو من ورائهِ ثواباً مِن عندِ الله، ولا يؤمنُ باللهِ ولا بيَومِ الجزاء (فهوَ مُنافق)، فهذا لا يؤجَرُ على فعلهِ مهما تَصدَّق.

ومَثَلهُ في هذا كمَثَلِ صَخرٍ أملسَ عليهِ ترابٌ خَفيف، فنزلَ عليهِ مَطرٌ شَديد، فأذهبَ ما عليهِ مِنْ تراب، وتركَ الحجرَ أملسَ يابساً لم يُنبِتْ زرعاً، فما أفادَهُ المطَر.

وكذا أعمالُ المرائينَ لن تُفيدَهم، ولا تُعْقِبُ مَثوبَة، بل تَذهبُ هباءً وتَضمحلُّ عندَ الله، وإنْ ظهرَ لهم أعمالٌ فيما يَرَى الناس.

واللهُ لا يَهدِي الكافِرينَ إلى الخيرِ والرُّشد، وهم لم يَطلبوا الهدايةَ والرشادَ منَ الله.

وفيهِ تَعريضٌ بأنَّ كلاًّ منَ الرياءِ، والمنِّ والأذَى، مِن خصائصِ الكفّار، فلا بدَّ للمؤمنينَ مِن أن يَتجنَّبوها.

{وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآَتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سورة البقرة: ٢٦٥].

أمَّا الذينَ يُعطُونَ أموالَهم في سَبيلِ الله، وطلبًا لرِضاه، ورجاءَ ثَوابِه، وهم مُتيقِّنونَ أنَّ اللهَ لا يُضِيعُ عملَهم هذا، بل سيُثيبُهم عليهِ ما داموا أخلَصوا نيّاتِهم وآمنوا بيومِ الجزاء، فإنَّ مثَلَهم كمَثَلِ حَديقةٍ على رابيةٍ هَطلَ عليها مَطَرٌ شَديد، فأثمرتْ ضِعفَي أمثالِها منَ الحدائق. فإذا لم يَنزلْ عليها مطرٌ كثيرٌ فرَذاذٌ يَكفي لسقي تُربتِها الخِصبة.

وهو كعَملِ المؤمنِ الذي لا يَنقطعُ كذلك، بل يتقبَّلهُ اللهُ ويُضاعفُهُ له. ولا يَخفى على اللهِ شيءٌ من أعمالِ عِبادِه، وسيُجازيهم عليها.

وفيهِ ترغيبٌ في الإخلاص، مع تحذيرٍ من الرياءِ ونحوِه.

الأخوَّة والعداوة

الإيمانُ جلبَ الألفةَ والمحبةَ بين المسلمين، بعد أن كانوا أعداء. قالَ سبحانه:

{وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [سورة آل عمران: ١٠٣].

أي: اذكُروا فَضلَ اللهِ عليكم عندَما كنتُم أعداءً يَقتُلُ بعضُكم بَعضاً في حُروبٍ مُستَمِرَّة، فجمعَ بينَ قلوبِكم بهذا الدِّينِ الحقّ، فصِرتُم بفَضلهِ ونِعمَتهِ إخواناً مُتآلِفين، يَنصرُ بعضُكم بعضاً، ويَعطِفُ عليهِ ويَرحمُه، بعدَ أنْ كنتُم على وشكِ الدُّخولِ في النارِ بسببِ كُفرِكم، فأنقذَكمُ اللهُ بهذا الدِّينِ وهداكم للإيمان، وأنقذَكم منَ النار، ويُبَيِّنُ اللهُ لكم دلائلَهُ لتَثبُتوا على الهِداية، وتَزدادوا إيماناً.

الإرسال والإمساك = الإعطاء والمنع

الاستبشار والاشمئزاز

بمَ يستبشرُ قلبُ المشرك، وبمَ ينقبض؟ قالَ الله تعالى:

{وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [سورة الزمر: ٤٥].

أي: إذا ذُكِرَ اللهُ وحدَهُ دونَ آلِهةِ المشرِكين، فقيل: لا إلهَ إلاّ الله، انقَبَضَتْ ونَفِرَتْ قُلوبُ الذينَ لا يُؤمِنونَ بالمعاد، ولم تَقبَلْه، وإذا ذُكِرَتْ أصنامُهم وَحدَها، أو ذُكِرَتْ معَ الله، إذا هُم يَفرَحونَ ويُسَرُّون؛ لحبِّهم لها!

*** *** ***

ووجوههم في اليومِ الآخرِ عكسُ وجوهِ المؤمنين:

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ} [سورة عبس: ٣٨ – ٣٩].

أي: وجوهُ المؤمِنينَ السُّعَداءِ يَومَئذٍ مُستَنيرَةٌ مُتهَلِّلَة، فَرِحَةٌ مَسرورَة؛ لِما يَرَونَ مِنَ النَّعيمِ وما يُبهِجُ القَلب.

{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} [سورة عبس: ٤٠ – ٤٢]:

ووُجوهٌ الأشقيَاءِ يَومَئذٍ عَليها غُبارٌ وكدَرٌ مِنَ الحُزنِ والحَسْرَة، يَعلوها سَوادٌ وظُلمَة، مِنَ الذُّلِّ والمهانَة، أولئكَ الذينَ كفَروا باللهِ وكذَّبوا بآياتِه، وفجَروا في أعمالِهم فعصَوا وأثِموا.

الاستقامة والانحراف

لا يستوي مستقيمٌ ومعوجّ:

{أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [سورة الملك: ٢٢].

أي: أفمَن يَمشي ويَعثرُ في طَريقِهِ الوَعِر، ويقَعُ على وَجهِهِ كُلَّ مرَّة، أهدَى وأرشَد، أمْ مَن يَمشي سالِمًا مُعتَدِلاً في طَريقٍ مُستَقيم، وهوَ يَراهُ أمامَهُ واضِحًا، فيَسلكُهُ في أمانٍ واطمِئنان؟ إنَّهُ مثَلُ الكافِرِ أعمَى العَينِ والقَلب، الذي يَلهَثُ وراءَ أفكارٍ ونَظريَّاتٍ مُضطَرِبَةٍ ومَغلوطَةٍ وضعَها بَعضُ

النَّاس، والمؤمِنِ المتبَصِّرِ الواثِقِ مِن مِنهَجِه، المستَقيمِ في سُلوكِه، يَستَنِدُ في عِلمِهِ وعمَلِهِ إلى ما أنزلَهُ رَبُّ النَّاسِ وخالقُهم، فيَكونُ مُطمَئنًّا وواثِقًا بما هوَ عليه.

الاستيفاء والنقص

وفي مقارنةٍ بين مستوفٍ لحقِّهِ إذا أخذ، ومنقصٍ إذا أعطى:

{وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [سورة المطففين: ١ – ٣].

أي: الهَلاكُ والعَذابُ الشَّديدُ لمنْ نقَصَ مِنَ المِكيَالِ والميزانِ إذا بَاع، أو زادَ فيهما إذا اشترى. الذينَ إذا اشترَوا مِنَ النَّاسِ أخَذوهُ وافيًا وافِرًا، وإذا باعُوا لهم شَيئًا، فوَزَنوا لهم حَبًّا، أو كالُوا لهم طَعامًا، يَنقُصونَ منه.

الإسرار والإعلان = السرُّ والعلن

الإسلام والكفر = الإيمان والكفر

الأصمّ والسميع = الصمم والسماع

الأعجمي والعربي

نزلَ القرآنُ بلسانٍ عربيّ:

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ} [سورة فصلت: ٤٤].

أي: لو أنَّنا نَزَّلنا القُرآنَ بلُغَةِ العجَم، لقالوا: هلاّ بُيِّنَتْ آياتُه، ووُضِّحَتْ كَلِماتُهُ بلسانٍ نَفهَمُه؟ ثمَّ إنَّهم سيُنكِرونَ ذلكَ ويَتعَجَّبونَ منه، ويَقولون: أكلامٌ أعجَميٌّ يَنزِلُ على رَسُولٍ عرَبيّ؟

الإعطاء والمنع
(الإرسال والإمساك)

إذا أعطى الله فلا مانع...

{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة فاطر: ٢].

أي: إذا أطلقَ اللهُ للنَّاسِ رَحمَةً مِن عندِه، مِن نِعمَةٍ، وأمنٍ، وعِلمٍ، وصِحَّةٍ، فلا يَقدِرُ أحَدٌ على مَنعِ عَطائه، وإذا حبسَهُ عَنهم فلا يَقدِرُ أحَدٌ على مَنحِهِ لهم، واللهُ عَزيزٌ يَغلِبُ ولا يُغلَب، حكيمٌ، فلا يُقَدِّرُ إلاّ ما فيهِ مَصلحَةٌ وحِكمَة.

*** *** ***

والله يؤتي من يشاءُ وينزع:

{قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ} [سورة آل عمران:٢٦].

تفسيرها: اللهمَّ لكَ المُلْكُ كلُّهُ بلا شَريك، أنتَ وحدَكَ المتصرِّفُ فيه، تؤتي فيهِ ما تشاءُ لعبادِك، مُلكاً مُعاراً مُؤقَّتاً، فأنتَ صاحبهُ وتَفعلُ فيهِ ما تُريد، وتَسلبُهُ ممَّن تشاءُ عندَما تشاء، لا أحدَ يَقْدِرُ على أن يَمنعَ ويقولَ لا، فأنتَ مالكهُ وصاحبُه.

*** *** ***

وقالَ سبحانهُ وتعالَى في عطائهِ لنبيِّهِ سليمان:

{هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [سورة ص: ٣٩]:

هذا عَطاؤنا لكَ ممَّا سَألتَهُ يا سُلَيمان، فأعطِ منهُ مَن شِئت، وامنَعْهُ مَن شِئت، لا حرَجَ عَليكَ في ذلكَ ولا حِساب.

أعلى وأسفل
(العلوُّ والسفل)
(فوق وتحت)

قالَ الله تعالى في قصةِ هجرةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من مكةَ المكرَّمة:

{إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة: ٤٠].

أي: فإذا لم تَستَجيبوا لنِداءِ رسُولهِ إلى الجِهادِ وأبَيتُم نصرَه، فإنَّ اللهَ ناصِرُهُ ومُؤيِّدُه، كما تولَّى نَصرَهُ عندما تسبَّبَ الكفّارُ في إخراجهِ مِن مكَّة، فأذِنَ لهُ بالخُروجِ مِن بينِهم عامَ الهجرةِ إلى المدينة، ومعَهُ صاحِبُهُ أبو بكرٍ الصِّدّيقُ رضيَ الله عنه، وكانَ يخافُ عليهِ منَ المشرِكين، الذينَ تتبَّعُوا أثرَهُ ليَقتُلوه، فقالَ لهُ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في الغارِ وهوَ يسكِّنهُ ويُثَبِّتهُ: "يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنَينِ اللهُ ثالثُهما"؟

فأنزلَ الله أمنَهُ وطُمَأنينتَهُ على رسُوله، وأيَّدَهُ بالملائكةِ يَحرُسونَهُ ويُثَبِّتونه، وأحبطَ تدبيرَ الكفّارِ ومَكرَهم، وأفشلَ مؤامرتَهم في قتلِه، وجعلَ كلمتَهمُ التي اجتمَعوا عليها هي السُّفلَى والخاسِرَة، رَغمَ أنوفِهم، فنجّاهُ اللهُ وأبلغَهُ مأمَنه، ورجَعوا هم خائبينَ خاسِرين، وكلمةُ اللهِ في الحقّ، والتوحيد، هيَ العُليا، لا تَنزِل، ولا يَعلُو عَليها شَيء، فالحقُّ لا يتغيَّر، والصَّحيحُ لا يكونُ باطلاً.

واللهُ عَزيزٌ في انتِقامهِ لا يُغالَب، حكيمٌ فيما يأمرُ ويدبِّر، لا يُراجَعُ فيه.

*** *** ***

وفي غزوةِ الأحزاب، هجمَ المشركونَ على المدينةِ من أعلَى ومن أسفل:

{إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ} [سورة الأحزاب: ١٠].

أي: واذكروا كيفَ جاؤوكم من أعلَى الوادي مِن قِبَلِ المشرِق، ومِن بَطنِ الوَادي مِن قِبَلِ المغرِب..

*** *** ***

وكانت عقوبةِ قومِ لوطٍ خسفَ الأرضِ بهم، قالَ الله تعالى:
{فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} [سورة الحجر: ٧٤].
أي: فقلَّبنا عَليهم أرضَهم، وجَعلنا عاليَ مَدينَتِهم في السُّفل، فصاروا تحتَ الأرض. وأمطَرناهُم بوَابلٍ مِن طِينٍ مُتحَجِّرٍ مُتراكِم، مُعْلَمٍ مُمَيَّز، ليُصيبَ كُلاًّ باسمِه.
وقدْ أثبتَتْ دِراساتُ عُلومِ الأرضِ أنَّ طبقاتِ الصُّخورِ في مِنطَقةِ جَنوبِ البَحرِ الميّتِ – حيثُ سكَنُهم – مَقلوبَةٌ رأسًا على عَقِب، كما وردَ في الآيةِ الكريمة. وذُكِرَ أنَّها غارِقَةٌ على عُمقِ ستَّةِ أمتارٍ تحتَ سَطحِ المياه.

*** *** ***

وحالُ الإنسانِ إذا أساءَ وإذا أصلح:
{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين: ٤].
أي: لقدْ خلَقنا جنسَ الإنسَانِ في أفضَلِ صُورَة، وأعدَلِ قامَة، وأحسَنِ تَركيب.
{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} [سورة التين: ٥]:
ثمَّ جعَلناهُ في أسفَلِ الأمَاكنِ السَّافِلَة، وهوَ الدَّرْكُ الأسفَلُ مِنَ النَّار، لأنَّهُ لم يُطِعْ رسُلَ الله، واستَكبرَ عنِ اتّباعِ الحقّ، ولم يَشكُرْ نِعمَةَ اللهِ وما ميَّزَهُ بهِ مِنَ العَقلِ والخَلقِ الحسَن.
{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [سورة التين: ٦]:
إلاّ مَنْ آمَنَ وعمِلَ صَالحًا، فإنَّهم لا يُرَدُّونَ إلى النَّار، بلْ يُجازَونَ إحسَانًا، وثَوابًا لا يَنقَطِعُ خَيرُهُ ورِفدُه.

*** *** ***

وعذابُ أهلِ النارِ من فوقهم ومن تحتهم:

{يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة العنكبوت: ٥٥].

أي: في ذلكَ اليَومِ المخُوفِ المهُول، الذي يُؤمَرُ بالمشركينَ إلى النَّار، يَأتيهم العَذابُ مِن كُلِّ الجِهات، مِن فَوقِهم، ومِن تَحتِ أرجُلِهم، وبالغُدوِّ والآصَال، ويَقولُ اللهُ لهم: ذُوقوا جَزاءَ ما كنتُم تَعمَلونَهُ في الدُّنيا، وما كنتُم تَستَعجِلونَهُ مِنَ العَذاب، فقد حَلَّ أجَلُه.

الأعمى والبصير
(الإبصار والعمى)

لا يتساوَى أعمى وبصير. قالَ الله تعالى:

{وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} [سورة فاطر: ١٩].

أي: كما لا يَستَوي الأعمَى والبَصير، كذلكَ لا يَستَوي الكافِرُ والمؤمِن، والجاهِلُ والعالِم.

*** *** ***

قالَ اللهُ تعالَى فيمن أعماهُ في الآخرة:

{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [سورة طه: ١٢٤].

أي: مَنْ خالَفَ هُداي، وكذَّبَ رسُلي، فإنَّهُ يَعيشُ في الدُّنيا حَياةَ قَلَقٍ وحَيرَة، وشَكٍّ وحرَج، وضِيقٍ وشَقاء، وإنْ بَدا مُتَنَعِّمًا. ويُضَيَّقُ عَليهِ في قَبرِه، ونَحشُرُهُ يَومَ القيامَةِ أعمَى البصَر.

{قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً} [سورة طه: ١٢٥].

أي أن العبدَ يَقولُ لرَبِّهِ يَومَذاك: يا رَبّ، لماذا أعمَيتَ عَينيَّ وقد كنتُ أرَى بهما في الدُّنيا؟

{قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [سورة طه: ١٢٦]:

فيَقولُ لهُ رَبُّه: إنَّكَ كما أعرَضْتَ عن هِدايَتي وآياتي البيِّنَةِ الواضِحَة، فتعامَيتَ عنها وتركتَها غَيرَ مُبالٍ بها، فكذلِكَ تُعامَلُ مُعاملَةَ مَن يَنسَاكَ في هذا الموقِف، وتُترَكُ أعمَى هكذا، فالجزاءُ مِن جنسِ العمَل.

قالَ قَتادَة: نُسُوا مِنَ الخَير، ولم يُنْسَوا مِنَ العَذاب.

*** *** ***

وقالَ سبحانهُ لرسولهِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم:
{قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ} [سورة الأنعام: ٥٠].
أي: قُلْ أيُّها النبيُّ للمُشرِكينَ مِن قَومِك، وهم يَقتَرِحونَ منَ الآياتِ ما يَقترِحون: إنَّني لا أملِكُ خَزائنَ ربِّي، ولا أقدِرُ على التصرُّفِ فيها كما أشاء، ولا أنْ أرزقَكُم منها ما تُريدون، ولا أقولُ لكم إنِّي أعلمُ الغَيبَ فأخبرُكم بما غابَ ممّا مضَى وبما سيَكون، ولا أعلمُ مِن ذلكَ سِوَى ما أطلَعَني اللهُ عليه، ولا أدَّعي أنِّي مِنَ الملائكة، بل واحِدٌ مِنَ البشَرِ أنعمَ اللهُ عليَّ بالوحي لأنذِرَكم به. ولا أخرجُ عمّا يوحَى إليَّ، فما أفعلهُ بتوجيهٍ منَ اللهِ وتَسديدٍ منه.
قلْ لهم: هل يَستَوي الضَّالُّ الذي لا يَدري كيفَ يَسير، والمهتدي الذي يَمشي على نورٍ مِن ربِّه ويَعرِفُ طَريقَ الحقّ؟ إنَّهما لا يَستويان، أفلا تَتفهَّمونَ ذلك لتَرجِعوا إلى الحقِّ؟

*** *** ***

ويقولُ جلَّ جلاله:
{وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ} [سورة يونس: ٤٣].
أي: ومِن هؤلاءِ مَن يَنظُرُ إليكَ وهوَ يَرَى في سَمْتِكَ وخُلُقِكَ دَلائلَ النبوَّة، ولكنَّها أبصارٌ ظاهِرةٌ ليسَ وراءَها عِظةٌ وعِبرة، ولا استِبصارٌ في القَلب، أفأنتَ تُبصِّرُ العُميَ ولو ضَمُّوا إلى عدَمِ البَصرِ عدَمَ البَصيرة؟

*** *** ***

ويقولُ عزَّ مِن قائل:

{قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ} [سورة الأنعام: ١٠٤].

أي: قد جاءَتكم آياتٌ واضِحاتٌ وحُجَجٌ باهِراتٌ مِن عندِ الله، بلَّغكم إيّاها رَسُولهُ في القُرآنِ والسنَّة، فمن وعَى وآمنَ فلنَفسهِ تعودُ الفائدة، ومَن أغمضَ عَينيهِ عنها وأغلقَ قلبَهُ فلم يأبَهْ بها، فعلى نَفسهِ تَعودُ الخَسارة، قلْ لهم: لستُ حافظاً عليكم ولا رَقيباً على أعمالِكم، بلِ اللهُ يحفَظُها عليكم ويُجازيكم عليها، وإنَّما أنا مبلِّغٌ نَذير.

الإفساد والإصلاح

قالَ نبيُّ اللهِ صالحٌ لقومه:

{وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ . الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [سورة الشعراء: ١٥١ - ١٥٢].

أي: لا تُطيعوا مَن يأمرُكم بالكُفرِ والضَّلالِ مِنَ المشرِكين، الذينَ يُفسِدونَ في الأرضِ بالمعاصي، ولا يُصلِحونَ في أمرٍ مِنَ الأُمور، فقدِ اختلطَ الفسَادُ بأعمالِهم كُلِّها، لبُعدِهم عن دِينِ اللهِ وطَرِيقِهِ المستَقيم.

وكانَ في قومهِ تسعُ عصابات، تخرِّبُ ولا تعمِّر:

{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [سورة النمل: ٤٨]:

كانَ في قَريَةِ ثَمودَ (الحِجْر، بينَ الحِجازِ والشَّامِ) تِسعُ عِصابات، يُفسِدونَ فيها وفي غَيرِها مِنَ القُرَى والبُلدان، ولا يُصلِحونَ في شَيءٍ مِنَ الأشيَاء، بل كانَ دأبَهُمُ الكفرُ والضَّلال.

*** *** ***

وهل الكفرُ والنفاقُ يُصلحان؟ هذا ما يدَّعيه الكافرُ والمنافق، ولكنهم كاذبون:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} [سورة البقرة: ١١]

أي: إذا طُلِبَ منهم عدَمُ الكُفرِ، وعدَمُ العصيانِ؛ لأنَّ ذلكَ يؤدِّي إلى الإفسادِ في الأرضِ، والطاعةَ تؤدِّي إلى الإصلاحِ، قالوا في سفَهٍ وتبجُّحٍ: إنَّهم يريدونَ بذلكَ الإصلاحَ!

وأمثالُ هؤلاءِ كُثُر، ممن اختلَّتْ موازينُ الحقِّ عندَهم؛ لاختلالِ عقيدتِهم.

{أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ} [سورة البقرة: ١٢]

والحقُّ أنَّ هذا الذي يَعتمدونَهُ في منهجِهم، ويزعُمُونَ أنَّهُ إصلاحٌ، هو عينُ الفسادِ، ولكنْ مِن جهلِهم لا يَشعُرونَ بكَونِهِ فسَادًا.

الإقامة والسقوط

في قصَّةِ الخضرِ مع موسى عليهِ السلام:

{فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً} [سورة الكهف: ٧٧].

أي: حتَّى إذا وصَلَ موسى والخضرُ إلى قَريَة، طَلبا الضِّيافَةَ مِن أهلِها، فلم يُطعِموهُما، وكانوا لِئامًا، بُخَلاء. فوجَدا فيها جِدارًا مَائلاً يكادُ أنْ يَسقُط، فرَدَّهُ الخَضِرُ فأقامَهُ بيَدِه.

فقالَ لهُ موسَى: قَومٌ أتَيناهُم لِيُضَيِّفونا فلم يُطعِمونا، لو أرَدتَ لاتَّخَذتَ على عمَلِكَ هذا أجرًا منهم.

الإقبال والإعراض

جاءَ الصَّحابيُّ الأعمَى ابنُ أُمِّ مَكتومٍ رضيَ الله عنهُ إلى النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فجعَلَ يَقولُ له: يا رسُولَ اللهِ أرشِدْني، وعندَهُ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ رَجُلٌ مِن عُظَماءِ المشرِكين، فجعلَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُعرِضُ عنهُ ويُقبِلُ على الآخَر، وقدْ طَمِعَ في إسلامِه... ونزلتِ الآياتُ في أولِ سورةِ عبس: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} الآيات ١ – ١٢.

الإكرام والإهانة

تفكيرٌ خطأ:

{فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} [سورة الفجر: ١٥].

أي: إذا اختبَرَ اللهُ الإنسَانَ بالغِنَى والعافية، فأكرَمَهُ بالمال، ونَعَّمَهُ بما وسَّعَ عليهِ مِن زينَةِ الدُّنيَا، وجعلَ لهُ وَجاهَةً أو مَنصِبًا، اعتقَدَ أنَّ ذلكَ إكرامٌ مِن اللهِ له. وليسَ كذلك، بلْ هوَ ابتِلاءٌ وامتِحانٌ منه، ليَنظُرَ هل يَشكرُ أمْ يَكفُر، وهل يَعدِلُ أمْ يَظلِم، وهل يُطيعُ اللهَ أمْ يَعصيه؟

{وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} [سورة الفجر: ١٦]:

وأمَّا إذا ضيَّقَ اللهُ عليه، فابتَلاهُ بالفَقر، اعتبَرَ ذلكَ عُقوبَةً لهُ ومَهانَة، وأنَّ اللهَ لو لم يُرِدْ إهانتَهُ لَما ضيَّقَ عليهِ في رِزقِه! وإنَّما أرادَ امتِحانَه، ليَنظُرَ هل يَكونُ مؤمِنًا صابِرًا رَاضيًا بقَضاءِ الله، أمْ مُتضَجِّرًا جَزوعًا يائسًا، ضَعيفَ الإيمَانِ ساخِطًا؟

أمام وخلف
(قدّام ووراء)

القرآنُ حقٌّ كلُّه، لا يأتيهِ الباطلُ من أيِّ طرف:

{لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [سورة فصلت: ٤٢].

أي: لا يَتطَرَّقُ الباطِلُ إلى القُرآنِ مِن أيِّ جِهَةٍ كان، وفي أيِّ مَوضوعٍ وخبَرٍ منه، لأنَّهُ كُلَّهُ حَقٌّ وصِدق، فهوَ مُنزَّلٌ مِنَ اللهِ العَليمِ بمصالِحِ عبادِه، الحَكيمِ في أقوالِهِ وأفعالِه، المحمودِ على ما تفَضَّلَ بهِ وأنعَم.

*** *** ***

قالَ الله تعالى في علمِهِ بأحوالِ الملائكة:

{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} [سورة الأنبياء: ٢٨]

أي: عِلمُهُ تعالَى مُحيطٌ بهم وبأحوالِهم، لا يَخفَى عَليهِ خافِيَةٌ ممّا عَمِلوا وممّا يَعمَلون.

*** *** ***

وملائكةٌ تحفظُ الإنسانَ من أمامهِ ومن خلفه:
{لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ} [سورة الرعد: ١١].
تفسيرها: للهِ مَلائكةٌ يَتعاقَبونَ فيكم باللَّيلِ والنَّهار، فإذا صعَدَتْ مَلائكةُ اللَّيلِ جاءَ في عَقِبِها مَلائكةُ النَّهار، وإذا صعَدَتْ مَلائكةُ النَّهارِ جاءَ في عَقِبِها ملائكةُ اللَّيل، يَكونُونَ مِن أمامِ الإنسانِ ومِن وراءِ ظَهرِه، فيُحيطونَ بهِ مِن جَوانِبه، يَحفَظونَهُ بأمرِ اللهِ وإذنِه، فإذا جَاءَ القدَرُ تَرَكوهُ وقَدَرَه.

*** *** ***

ويجدُ الناسُ السماءَ والأرضَ من حولهم أينما ساروا...
{أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [سورة سبأ: ٩]:
ألَا يَنظُرونَ إلى ما حَولَهم، مِن أمامِهم ومِن خَلفِهم، وأينَما سارُوا، كيفَ يَجِدونَ السَّماءَ وقد أحاطَتْ بهم، والأرضَ وقدِ انبَسَطَتْ مِن تَحتِهم...

*** *** ***

حاولتْ امرأةُ العزيزِ أن تغرَّ يوسفَ عليهِ السلامُ بالفاحشةِ ولكنهُ أبَى، وهربَ منها، فجذبتْ قميصَهُ من خلفهِ لتمنعَهُ من الخروجِ وقطعته، ولما خرَجا لَقِيا زوجَها العزيزَ عندَ الباب، فهابَتْهُ، وقالت في مَكرٍ ودَهاء: ما جَزاءُ مَنْ أرادَ أنْ يَزنيَ بزَوجَتِك؟

{قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ} [سورة يوسف: ٢٦]:

قالَ لهُ يوسُفُ عليهِ السَّلام: هيَ طالبَتني بالفَاحِشة، لا كما زَعَمَتْ، وقد رَفَضتُ ذلكَ وفَرَرتُ منها.

وحَسَمَ الخِلافَ بينَهما شاهِدٌ مِن أهلِ المرأةِ كانَ هُناك، أو استُدعِيَ مِن بَعد، فقال: إنْ كانَ قَميصُهُ شُقَّ مِن قُدَّام، فقد صدَقَتِ المرأةُ وكذَبَ هو، ويَكونُ هوَ الذي أرادَ عملَ الفاحِشَةِ بها.

{وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ} [سورة يوسف: ٢٧].

أي: إنْ كانَ قَميصُهُ شُقَّ مِن خَلف، فقد كذَبَتْ في ادِّعائها، وهو صادِقٌ بَريء.

ووردَ أنَّ الذي نطَقَ بالحُكمِ طِفْلٌ تَكَلَّم، وهوَ حَديثٌ صَحَّحَهُ بَعضُهمْ وضَعَّفَهُ آخَرون.

{فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} [سورة يوسف: ٢٨].

فلمّا رَأى الزَّوجُ قَميصَ يوسُفَ وقد قُطِّعَ مِن خَلف، عَرَفَ حيلةَ زَوجتهِ وبراءَةَ يوسُفَ عليهِ السَّلام، فقال: إنَّ هذا الصَّنيعَ مِنِ احتيالِكنَّ أيَّتُها النِّساء، إنَّ مَكرَكُنَّ كَبير، بالنسبةِ إلى كَيدِ الرِّجال.

*** *** ***

وعقوبةُ المشركين الذين لم يستجيبوا لدعوةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلَّم:

{وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} [سورة يس: ٩]

أي: جعَلنا مِن أمامِهم سدًّا مانِعًا، ومِن خَلفِهم سدًّا مانِعًا، فجعَلنا على أبصارِهم أغطيَة، فهم لا يَقدِرونَ على إبصارِ شَيءٍ مِنَ الهُدَى والنُّور، فنُفوسُهم قاتِمَة، وقُلوبُهم مُنغَلِقَة، وأسماعُهم مَسدودَة، وأعينُهم مُغَطَّاة.

*** *** ***

وإذا نُصحوا بالخوفِ من عاقبةِ إصرارِهم على العصيانِ لم يستجيبوا:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [سورة يس: ٤٥].
أي: إذا قيلَ للمُشرِكين، وقد أعرَضوا عنِ الآياتِ الكونيَّة: احفَظوا أنفُسَكم في الحياةِ الدُّنيا مِنَ الذُّنوبِ والمعاصِي، ولا تُعَرِّضوها للعُقوبَةِ والنَّارِ في اليَومِ الآخِر، ليَرحَمَكم اللهُ ويؤمِّنَكم مِن عَذابِه.

*** *** ***

وهناك شياطينُ ملازمون للكفّارِ يضلُّونهم عن الطريق:
{وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} [سورة فصلت: ٢٥].
أي: قَدَّرْنا أنْ يَكونَ معَ المشرِكينَ أصحابٌ لهم مِن شَياطينِ الإنسِ والجِنّ، فحسَّنوا لهم أفكارَهم وأعمالَهم، وألقَوا إليهم أنْ لا بَعثَ ولا حِسَاب، وأنْ لا جَنَّةَ ولا نار، وأنَّ ما هم عليهِ مِنَ الكُفرِ والضَّلالِ واتِّباعِ الشَّهواتِ في الدُّنيا هوَ الحسَنُ المقبول، فظَنُّوا أنَّهم همُ المحسِنون، فتَحقَّقتْ عَليهمُ العُقوبَةُ بموجِبِ ذلك، كما حقَّتْ على أُمَمٍ خاليَةٍ مِن أمثالِهم، مِنَ الجِنِّ والإنس، فهم جَميعًا خاسِرون.

الأمانة والغدر

وفي حديثٍ عن أخلاقِ أهلِ الكتابِ وأمانتهم يقولُ ربُّ العزَّة:
{وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سورة آل عمران: ٧٥].
أي: هناكَ مِن أهلِ الكتابِ مَن إذا ائتمَنتَهُ على مَبلغٍ مهما كانَ كثيراً فإنَّهُ يَردُّهُ إليكَ بأمَانة، لا يَنقُصُ منهُ شيئاً، ومنهم مَن إذا ائتمَنتَهُ على مبلغٍ قَليلٍ يَجحَدُهُ ولا يَردُّهُ إليك، إلاّ إذا لازمتَهُ بالمطالبةِ وكرَّرتَها عليه، وهذا لأنَّهم قالوا إنَّهُ لا حرجَ علينا أن نغُشَّ وندلِّسَ ونأكلَ أموالَ العَرب، وأنَّ دينَهم يَسمَحُ لهم بذلك. وهذا مِن خُلُقِ اليَهود، وهم يَتعاملونَ بهذا معَ كلِّ مَن لم يَكنْ

يهوديًّا وليسَ معَ العربِ وحدَهم. وقد كذَبوا على اللهِ وعلى كِتابِه، وهم يَعلَمونَ ذلك، فإنَّ اللهَ لا يأمرُ بالفَحشاء، ولم يُحِلَّ لأحدٍ أنْ يأكلَ مالَ آخَرَ بالباطِل، وإنَّما اليهودُ همُ الذينَ اختَلقوا هذا القَول، وهم أهلُ زُورٍ وبُهتان.

{بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [سورة آل عمران: ٧٦].

نعم، إنَّ أهلَ الوفاءِ بالعَهدِ والتُّقَى همُ الذينَ يُحِبُّهمُ اللهُ تَعالى، لا غَيرُهم. ولو وفَى أهلُ الكتابِ بعُهودِهم وتَركوا الخِيانةَ في أمرِ دِينِهم، فإنَّهم يَكتَسِبونَ بذلكَ محبَّةَ الله، وإذا وَفَوا بالعُهود، فإنَّ أبرزَها وآكدَها هو ما أخذَ اللهُ عَليهم في كتابِهم منَ الإيمانِ بمحمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم. وتَقواهُم هوَ تَركُ الخِيانة، وعَدمُ الكذِبِ على الله، وتجنُّبُ تحريفِ التوراة.

الأمر والنهي

ما أمرَكمُ الرسُولُ بهِ فافعَلوه، وما نَهاكم عنهُ فاجتَنِبوه، واخشَوا اللهَ وابتَعِدوا مِن مُخالفَتِه، واللهُ شَديدُ العِقابِ لمنْ عَصاهُ وخالفَ أمرَه، كما قالَ سبحانه:

{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة الحشر: ٧].

الأمن والخوف

في طريقِ عودةِ موسى عليه السلامُ من مَدين، أبصَرَ نارًا منَ الجهةِ التي تَلي الجبلَ بسَيناء، وهناكَ كلَّمَهُ ربُّه... وقالَ اللهُ له:

{وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ} [سورة القصص: ٣١]:

وألْقِ عَصاكَ على الأرض. فلمَّا رآها تتَحرَّكُ وتَضطَرِبُ كأنَّها حيَّة، هربَ مِنَ الخَوفِ ولم يَرجِع، فناداهُ رَبُّه: يا موسَى لا تَخَفْ ممَّا ترَى، فأنتَ في سَلامٍ وأمانٍ هُنا.

*** *** ***

وأمرَ اللهُ تعالَى قُريشًا أن يعبُدوهُ ويوَحِّدوهُ ويُخلِصوا لهُ الطّاعة،
{الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} [سورة قريش: ٤]:
الذي أطعمَهم بسبَبِهما مِن جُوعٍ شَديدٍ كانُوا فيه، وبلادُهم جِبالٌ وأرضٌ قَفْرَة. وأنعمَ عَليهم بنِعمَةِ الأمَانِ فيهما، فلا يَتعرَّضُ لهم أحَدٌ في أسفارِهمُ الطَّويلَة، ولا يُغِيرُ عَليهم أحَدٌ في بلَدِهم، وهم يرَونَ النَّاسَ يُتَخَطَّفونَ مِن حَولِهم!

*** *** ***

وقالَ المشركون لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وقد كذبوا:
{وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة القصص: ٥٧]:
قالَ المشرِكونَ للرَّسولِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: إذا اتَّبَعْنا دِينَ الإسلامِ فسيَجتَمِعُ العرَبُ عَلَينا ويُخرِجونَنا مِن دِيارِنا. وقد كذَبوا، ألا يَرَى هؤلاءِ المشرِكونَ كيفَ عصَمنا دِماءَهم وجعَلناهُم في حرَمٍ آمِن، بحُرمَةِ بيتِ الله، بينَما العرَبُ مِن حَولِ مكَّةَ يتَقاتَلونَ ويَتذابَحون؟ ويُجلَبُ إلى مكَّةَ أنواعُ الثِّمارِ والبَضائعِ الموجودَةُ مِن حولِها وهم بوادٍ غَيرِ ذي زَرع، رِزقًا مِن عندِنا، ولكنَّ أكثرَهم لا يَتدَبَّرونَ ذلك، ولا يَتفَكَّرونَ فيما يَقولُهُ اللهُ بحَقّ، ولذلكَ قالُوا ما قالُوا.

*** *** ***

الأمنُ بعدَ الخوفِ لعبادِ اللهِ الصالحين:
{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة النور: ٥٥].

أي: لَيُبَدِّلَنَّ حالَهم مِن بعدِ خَوفِهم وصَبرِهم على أذَى أعدائهم أمنًا وعِزًّا، يوَحِّدونَني في عِبادَتِهم آمِنين، غَيرَ خائفينَ أحَدًا غَيري...

وصَحَّ عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضيَ اللهُ قَولُه: لمَّا قَدِمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُهُ المدينَة، وآوَتْهُمُ الأنصار، رَمَتْهمُ العرَبُ عن قَوسٍ واحِدَة، فكانوا لا يَبيتونَ إلاّ في السِّلاح، ولا يُصبِحونَ إلاّ فيه، فقالوا: أترَونَ أنَّا نَعيشُ حتَّى نَبيتَ آمنينَ مُطمَئِنّينَ لا نَخافُ إلاّ اللهَ عَزَّ وجَلّ؟ فأنزَلَ اللهُ الآيَة.

وقد أنجزَ اللهُ وعدَه، وأظهَرَ دِينَه، ونصرَ أولياءَه، فما ماتَ رَسولُهُ حتَّى دانَتْ لهُ الجَزيرَةُ العرَبيَّة، ومَكَّنَ أصحابَهُ مِن فَتحِ البلادِ ونصرَهم.

الإنتاج والعجز عن العمل

ومن موازناتِ القرآنِ الكريمِ بينَ من ينتجُ ومن لا يعمل:

{ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة النحل: ٧٥].

أي: ضربَ اللهُ لكم مثَلاً لتُقارِنوا وتَعقِلوا: عَبدٌ مَملوكٌ عاجِزٌ لا يَقدِرُ على عمَل، ولا يُقَدِّمُ شَيئاً لسيِّدِهِ ليَنتَفِعَ به، وآخَرُ عامِلٌ مُنتِجٌ يَكسِبُ مالاً طيِّبًا حَلالاً، ويُنفِقُ منهُ على المحتاجينَ والملهوفينَ سِرًّا وعَلانية، فهل يَستوي بطّالٌ عاجِزٌ وعامِلٌ نَشيطٌ ينفَعُ أهلَهُ ومُجتَمعَه؟ إنَّهم لا يَستَوون، ولكنَّ أكثرَ المشرِكينَ الجاهِلينَ لا يَعلَمونَ ذلكَ حَقيقَة، ولا يُطَبِّقونَهُ واقِعًا، فهم يُسَوُّونَ في العِبادَةِ بينَ رَبِّ العِبادِ وهوَ خالِقُهم ورازِقُهم، ومَخلوقاتِهِ منَ الأصنامِ التي لا تَقدِرُ على إنتاجِ شَيءٍ ونَفعِ أحَد؟ ولله المثَلُ الأعلى.

وقالَ سبحانهُ في مثَلٍ آخرَ من أمثالِ القرآن:

{وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [سورة النحل: ٧٦].

تفسيرها: ومَثَلٌ آخَرُ ضَرَبَهُ اللهُ لكم: رَجُلان، أحَدُهما أخرَسُ أصَمُّ لا يَنطِقُ ولا يَسمَع، ولا يَفهَمُ ولا يُفهِم، ولا يَفعَلُ شَيئًا يَنفَعُ بهِ نفسَهُ أو الآخَرين، وهوَ عِيالٌ ووَبالٌ على أبيهِ العَاملِ أو مَن يَعولُه، فإذا كَلَّفَهُ بشَيءٍ رجعَ ولم يَفعَلْ شَيئاً. فهل يَستوي هوَ وآخَرُ يَقولُ الحقَّ ويأمرُ بالمعروفِ والقِسط، ويَنهَجُ مِنهَجًا صَحيحًا مُستَقيمًا ويَعمَلُ صالِحًا؟

لا شَكَّ أنَّهم لا يَستَوون، ولكنَّ المشرِكينَ الضَّالِّينَ يَجعَلونَ منَ الأصنامِ البَكماءِ آلِهة، ويُسَوُّونَ بينَها وبينَ اللهِ تَعالَى في العِبادَة!

قالَ ابنُ عَبّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنهما: نزَلتْ في عُثمانَ بنِ عَفَّانَ ومَولًى له، كانَ يُنفِقُ عَليهِ ويَكفيهِ المؤونَة، وكانَ الآخَرُ يَكرَهُ الإسلامَ ويأبَاه، ويَنهاهُ عنِ الصَّدقَةِ والمعروف.

والعِبرَةُ بعُمومِ اللَّفظِ وما يَرمي إليه.

الإنسان والحيوان

خلقَ اللهُ من الإنسانِ زوجين، ومن الحيوانِ زوجين:

{جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} [سورة الشورى: ١١].

أي: خلقَ لكم مِن جِنسِكم وشَكلِكم نِساءً، كما خلقَ مِن جِنسِ الأنعامِ ذُكورًا وإناثًا، ويُكَثِّرُكم بالتَّوالُد.

*** *** ***

وألوانُ البشرِ والحيواناتِ تختلف. قالَ الله تعالى:

{وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ} [سورة فاطر: ٢٨].

أي: وكذلكَ ما خلقَ اللهُ مِنَ النَّاسِ، والدوابِّ، والأنعَام[1]، فألوانُها مُختَلِفَة، على الرَّغمِ مِن أنَّ كُلاً منها يَعودُ إلى أصلٍ واحِد.

الانشراح والضيق

يقولُ اللهُ تعالى في صورةٍ من صورِ الهدايةِ والضلال:

{فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [سورة الأنعام: ١٢٥].

أي: إذا أرادَ اللهُ أنْ يَهديَ امرَءاً ويُعرِّفَهُ طريقَ الحقّ، يَسَّرَ لهُ أسبابَ الهِدايةِ، وشرحَ صدرَهُ للإسلام، وفتحَ قلبَهُ للإيمان، وحبَّبَ إليهِ العملَ الصالح. ومن أرادَ لهُ الضَّلالةَ ضيَّقَ صدرَهُ لقَبولِ الحقِّ حتَّى لا يَجِدَ الخَيرُ مَنفَذاً إليه، ولا الإيمانُ نُوراً إليه، فيَكونُ كمنْ يُحاولُ الصُّعودَ إلى أعلَى، فهوَ يَجِدُ مَشقَّةً بالِغةً وتَعباً في إدراكِ ذلك، أو كأنَّما يَرتَفِعُ في السماءِ فينقُصُ عليهِ الأكسجين، فيَشعرُ بضِيقٍ وحَرَجٍ في تَنفُّسه. وهوَ ثابتٌ علميًّا، وذلك اعتباراً منْ ارتفاعِ (٣) كم حتَّى (١٦) كم فوقَ سطحِ البحر، وما بعدَهُ لا يَقدِرُ على الحياةِ بدونِ أجهزةِ التنفُّس.

وكما جعلَ اللهُ الضِّيقَ في صُدورِ مَن أرادَ لهُ الضَّلالة، كذلكَ يجعلُ اللَّعنةَ والعَذابَ والخِذلانَ على منْ أبَى الإيمانَ وأصرَّ على الكُفر.

الإنفاق ودرجاته

ومن موازناتِ القرآنِ بين نفقتين:

---

(١) {وَالدَّوَابِّ}: جمعُ دابَّة، وهي ما يدبُّ على الأرضِ من الحيوان، وغلبَ على ما يُركَبُ من الخيلِ والبغالِ والحمير، ويقعُ على المذكر. {وَالْأَنْعَامِ}: جمعُ نَعَم، محرَّكة، وقد يُسكَنُ عينه: الإبلُ والبقرُ والضأنُ والمعز، دونَ غيرها، فالخيلُ والبغالُ والحميرُ خارجةٌ عن الأنعام. (روح البيان).

{لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [سورة الحديد: ١٠].

أي: لا يَستوي عندَ اللهِ درجَةً مَن أنفقَ قَبلَ فَتحِ مكَّةَ وقاتلَ في سَبيلِ اللهِ معَ رسُولِه، فأولئكَ أعلَى درجَةً وأعظَمُ ثَوابًا مِنَ الذينَ أنفَقوا بَعدَ الفَتحِ وجاهَدوا في سَبيلِ الله، وكُلُّ واحدٍ مِنَ الفَريقَينِ وعدَهمُ اللهُ المثوبةَ الحُسنَى، وهيَ الجنَّة. فالحالُ قَبلَ الفَتحِ كانَ شَديدًا، وبعدَ الفَتحِ ظهرَ الإسلامُ وقَوِيَ. واللهُ مُطَّلعٌ على أعمالِكم، خَبيرٌ بما تُظهِرونَ وما تُسِرُّون، ويُجازي كُلاًّ بما عَمِل.

الأول والآخِر

(الأولون والآخِرون)

سبحانه:

{هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ} [سورة الحديد: ٣]:

هوَ الأوَّلُ بلا ابتِداء، فليسَ قَبلَهُ شَيء، والآخِرُ بعدَ فَناءِ كُلِّ شَيء، فليسَ بعدَهُ شَيء، فلا انتِهاءَ له، ولا انقِضاءَ لوجودِه.

*** *** ***

والسابقون إلى الإيمانِ والطاعةِ مقرَّبونَ عندَ الله، وهم:

{ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ} [سورة الواقعة: ١٣ – ١٤]:

وهم جَماعَةٌ كثيرَةٌ مِن الأُمَمِ الماضيَة، مِن لَدُنْ آدمَ إلى زَمانِ نَبيِّنا صلى الله عليه وسلم، وقَليلٌ مِن الآخِرين، مِن هذهِ الأُمَّة.

قالَ الحسنُ البَصريُّ رَحِمَهُ الله: سابِقو مَن مضَى أكثَرُ مِنْ سابِقينا.

يَعني لكثرَةِ الأنبياءِ السَّابقينَ عَليهمُ الصَّلاةُ والسَّلام، فكانت كثرَةُ السَّابِقينَ إلى الإيمانِ لكثرَتِهم.

*** *** ***

وتجبَّرَ فِرعونُ حتَّى قال: لا ربَّ فوقي! فعَاقبَهُ اللهُ وجعلَهُ عِبرَةً لغَيرِه، بالنَّارِ في الآخِرَة، وبالإغراقِ والإذْلالِ في الدُّنيا، كما قالَ تعالَى:
{فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} [سورة النازعات: ٢٥].

*** *** ***

وأهلكَ اللهُ الأولينَ والآخِرين ممن كذَّبوا برسلِ الله:
{أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ . ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ} [سورة المرسلات: ١٦ – ١٧]:
ألمْ نُهلِكِ المكذِّبينَ بالرسُلِ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ بالعَذابِ في الحيَاةِ الدُّنيا؟ ونَفعَلُ بأمثالِهم كما فعَلنا بهم، ممَّن يأتي بَعدَهم ويَسلُكونَ سَبيلَهم في الكُفرِ والتَّكذيب.
وكانَ هذا إنذارًا لأهلِ مكَّةَ في بدايةِ الدعوة.

*** *** ***

والأولونَ والآخِرون يُجمَعونَ ليومِ القيامة:
{قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [سورة الواقعة: ٤٩ – ٥٠]:
قُلْ لمنكري المعادِ أيُّها الرسُول، إنكارًا لمذهَبِهم، وبَيانًا للحقّ: إنَّ الأوَّلينَ مِنَ الأُمَمِ السَّالفَة، والآخِرينَ منكم وممَّن يأتي بَعدَكم، سيُبعَثونَ بعدَ الموت، ويُجمَعونَ في عرَصاتِ يَومِ القِيامَة، المعلومِ وَقتُهُ عندَ اللهِ رَبِّ العالَمين، لا يَتقدَّمُ على ميعادِهِ ولا يَتأخَّر.

الإيثار والشح

قالَ الله تعالَى مبيِّنًا فضيلةً من فضائلِ الأنصار:

{وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [سورة الحشر: ٩]:

والأنصارُ الذينَ اتَّخَذوا دارَ الهجرَةِ مَنزِلاً وسَكنًا قَبلَ المهاجِرين، وآمَنوا قَبلَ كثيرٍ منهم، يُحِبُّونَ إخوانَهُمُ الذينَ هاجَروا إليهم، ويُواسُونَهم، ولا يَتبرَّمونَ مِن حَوائجِهم، ولا يَجدونَ في نفُوسِهم حَسدًا لهم ممَّا أُعطُوا مِن فَيءٍ وغَيرِه، ويُفَضِّلونَهم على أنفُسِهم في كُلِّ شَيء، ولو كانَ بهم حاجَة، ومَن مَنعَ نَفسَهُ مِنَ البُخلِ والحِرصِ على المال، فقد أفلحَ وفاز.

والشُّحُّ أشَدُّ البُخل، وأبلَغُ في المنعِ مِنَ البُخل. وفيهِ أقوالٌ أخرى ذكرَها النَّوَويُّ في شَرحِهِ على صَحيحِ مُسلم.

الإيمان والكفر

(الإسلام والكفر، المؤمنون والكافرون)

الإنسان مخيَّر، إن شاءَ آمن، وإن شاءَ كفر:

{وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} [سورة الكهف: ٢٩].

أي: قُلْ لهؤلاءِ الغافِلين: إنَّ هذا الذي أُوحيَ إليَّ هوَ الحَقُّ والصِّدقُ مِن عندِ رَبِّكم، الذي أرادَ بهِ هِدايتَكم وإنقاذَكم مِنَ العَذاب، فمَن شَاءَ منكم فَليؤمِنْ به، ومَن شَاءَ منكم فَليَكفُر، وسَوفَ يَتحَمَّلُ كُلٌّ مَسؤوليَّةَ اختيارِه، وقد هيَّأنا للكافِرينَ باللهِ ورَسُولِهِ نَارًا عَظيمَة، أحاطَ بها سُورُها...

*** *** ***

فهناك مؤمنٌ وكافر:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سورة التغابن: ٢].

أي: هوَ الذي أوجدَكم كما شَاء، فمنكم كافِرٌ به، ومنكم مؤمِنٌ به، واللهُ عَليمٌ بمَن يَستَحِقُّ الهِدايَةَ ممَّن يَستَحِقُّ الضَّلال، وسيَجزي كُلاًّ بما يَستَحِق.

وتفصيلهُ في آياتٍ كثيرة، من مثل:

{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ} [سورة العنكبوت: ٤٧].

أي: كما أنزَلنا الكتُبَ السَّابقَةَ على الأنبياء، كذلكَ أنزَلنا عَليكَ القُرآن، فالذينَ آتَيناهمُ الكتابَ مِنَ اليَهودِ والنَّصارَى، مِن أحبارِهمُ المخلِصينَ وعُلمائهم المؤمِنينَ الصَّادِقين، يُؤمِنونَ بالقَرآنِ الكريم، ومِنَ العرَبِ مَن يؤمِنُ بهِ كذلك، وما يُكَذِّبُ بمُعجِزاتِنا التي أيَّدنا بها رسُلَنا إلاّ المكابِرونَ المصِرُّونَ على الكُفر.

ويقولُ الكافرون إن القرآنَ من أساطيرِ الأولين!

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ} [سورة الأحقاف: ١١]:

قالَ الكافِرونَ لمن آمنَ مِن أصحابِكَ أيُّها الرسُول: لو كانَ القُرآنُ خَيرًا لم يَسبِقْنا إليهِ مَن بلَغَنا إسلامُهم – وكانوا يرَونَ فَضلَهم على أمثالِ صُهَيبٍ وبِلالٍ وعَمَّارٍ وغَيرِهم رَضيَ اللهُ عَنهم –. وبما أنَّهم لم يَهتَدوا بالقُرآنِ كما اهتدَى بهِ مَن أسلَم، فسيَطعَنونَ فيهِ ويَقولون: هوَ أساطيرُ الأوَّلين!

*** *** ***

وقد منَّ الله على أهلِ مكةَ بالأمن، ولكنهم لم يراعوا هذه النعمة، وصاروا يعبدون الأصنام، وكفروا بنعمةِ الله وفضله:

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ} [سورة العنكبوت: ٦٧]:

ألمْ يُشاهِدوا ويَعتَبِروا كيفَ جَعلنا بلدَهم مكَّةَ مَكانًا آمِنًا مِنَ القَتلِ والأسْر، والسَّلبِ والنَّهب، والنَّاسُ مِن حَولِهِمْ يَسبي بَعضُهم بَعضًا، ويُغِيرونَ ويَنهَبونَ ويَتقاتَلون؟ أوَ بعدَ هذهِ النِّعمَةِ يَعبُدونَ الأصنام، ويَكفُرونَ بنِعمَةِ اللهِ وفَضلِهِ عَليهم، ويُكذِّبونَ نَبيّ اللهِ ويَجحَدونَ رِسالةَ رَبِّهم؟

*** *** ***

من ادَّعى الإيمانَ أثبتَ إيمانهُ بما يوافقه، لا بما يناقضه. قال الله تعالى:

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة البقرة: ٨]

أي: هناكَ من النَّاسِ منافقون، يُظهرون الإيمانَ ويُبطِنُون الكُفرَ، ويُبدُونَ الخيرَ ويُسِرُّون الشرَّ، ويَقولون: إنَّهم يؤمنونَ باللهِ وبيومِ الجزاء، ولكنَّهم في الحقيقةِ غيرُ مؤمنين.

*** *** ***

فالنفاقُ كفر. قالَ اللهُ سبحانهُ في المنافقين:

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} [سورة المنافقون: ٣]

أي: وقدْ حصَلَ لهمُ النِّفاقُ لكَونِهم نطَقوا بالشَّهادَتَينِ ثمَّ رجَعوا عن الإيمانِ إلى الكُفر، كما بَدا نِفاقُهم مِن أيمانِهِمُ الكاذِبَةِ ومَواقِفِهمُ السيِّئة، فخُتِمَ على قُلوبِهم بالكُفر، فهم لا يَفقَهونَ الإيمَان، ولا يَهتَدونَ إلى الحقّ.

*** *** ***

واللهُ يغفرُ للذينَ آمنوا، ويُحبطُ عملَ الكفار:

{ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} [سورة محمد: ٣]:

وهذا لأنَّ الكافِرِينَ اتَّبَعوا الشَّيطان، واختَاروا الباطِلَ على الحقّ، فلم تَكنْ أعمالُهم لوَجهِ الله، بل لسُمعَةٍ ومَنصِب، وعادَةٍ وتَقليد. والمؤمِنونَ اتَّبَعوا أمرَ الرسُولِ والتَزَموا الشَّرع، فكانت أعمالُهم مُوافِقَةً لشَرعِ الله، خالِصَةً له. وهكذا يُبَيِّنُ اللهُ أحوالَ المؤمِنينَ والكافِرِينَ ومآلَ أعمالِهم.

*** *** ***

ولما أُرسِلَ عيسى بنُ مريمَ عليه السلامُ إلى بني إسرائيل، كانوا بين مؤمنٍ به وكافر:
{فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [سورة الصف: ١٤].
أي: لمّا دَعا المسيحُ معَ أتباعِهِ إلى الدِّين، اهتدَتْ جَماعَةٌ مِن بَني إسرَائيلَ واتَّبَعوه، وضَلَّتْ جَماعَةٌ أُخرَى، ورَمَوهُ وأُمَّهُ الصِّدِّيقةَ بالعَظائم، وهمُ اليَهودُ عَليهم لَعنَةُ الله، وغَلَتْ فيهِ طَوائفُ مِن بَعد، فاعتبَروهُ ابنًا لله، تَعالَى اللهُ عن ذلكَ وتقدَّس. فنَصَرْنا المؤمِنينَ على أعدَائهم، فصَاروا غالِبينَ عَليهم، وذلكَ ببِعثَةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

*** *** ***

والشركُ كفر:
{لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة المائدة: ٧٣].
أي: لقد كفرَ منهم كذلكَ مَن قالَ إنَّ اللهَ إلهٌ معَ إلهينِ آخَرينِ هما عيسى وأُمُّهُ مريم، وقالت طوائفُ أخرَى غيرَ ذلك. والحقُّ أنَّهُ ما من إلهٍ إلاّ الله، فهوَ وحدَهُ المعبودُ بحقّ، الذي لا شَريكَ لهُ ولا شَبيه، وهوَ إلهُ الكون، وربُّ جميعِ الكائنات، مُحييها ورازِقُها ومُميتُها، وليسَ هناكَ آلهةٌ مِن جنسِ البشَر، وعيسى وأُمُّهُ كانوا منَ البشَرِ يأكلانِ الطعام.
وقد ظَهرت فِرقةٌ منَ النصارَى يُقالُ لها "المريميُّون" في القرنِ السادسِ الميلادي، تقولُ بأُلوهيَّةِ مريمَ أيضاً!

فإذا لم يَنتَهِ النَّصارَى من هذا الكذِبِ والافتِراءِ على اللهِ ربِّ العالمين، فإنَّهُ يُصيبُ الذينَ كفَروا منهم عذابٌ مؤلِمٌ موجِع، ونارٌ تأتي على أفئدتِهم.
وقد خصَّ اللهُ الكافِرينَ منهم بالعَذاب، لعلمهِ أنَّ بعضَهم يؤمِنون.

*** *** ***

والله يختبرُ الناسَ في إيمانهم ليَظهرَ المؤمنُ من الكافرِ والمنافق:
{وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [سورة العنكبوت: ١١].
أي: ليَبلُوَنَّ اللهُ النَّاسَ بحِكمَتِه، ليَنظُرَ الصَّادِقَ فيهم والكاذِب، ويُمَيِّزَ المؤمنَ مِنَ المنافِق.

*** *** ***

ومن ذريةِ إبراهيمَ عليه السلامُ مؤمنٌ وكافر:
{وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ} [سورة الصافات: ١١٣].
أي: وقد أفَضْنا على إبراهيمَ وإسحَاقَ رَحمَةً وفَضلاً مِن عِندِنا، ونفَعْنا بهما، ومِن ذُرِّيَّتِهما مَن هوَ مُؤمِنٌ مُطيع، ومنهم مَن هوَ كافِرٌ ظاهِرُ العِصيان، قد ظلمَ نَفسَهُ بذلكَ وعرَّضَها للعَذابِ يَومَ الدِّين.

*** *** ***

وفي قصَّةِ موسى معَ الخضرِ، عليهما السلام:
{وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً} [سورة الكهف: ٨٠].
يقولُ الخضرُ لموسى في الغلامِ الذي قتله: أمَّا الغُلامُ الذي قَتَلتُه، فلو أنَّهُ كَبِرَ لكانَ كافِرًا، وكانَ أبَواهُ مُؤمِنَينِ صالِحَين، وعَلِمنا أنَّهُ لو بلغَ لدَعاهُما إلى الكُفر، ولاستَجابا لهُ وتابعاهُ في دِينِه، لحبِّهما الشَّديدِ له، وحُبُّ الشَّيءِ يُعمِي ويُصِمّ. والطُّغيان: الزِّيادَةُ في الضَّلال.

{فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً} [سورة الكهف: ٨١].
أي: فأرَدتُ بقَتلي لهُ أن يُبْدِلَ اللهُ والِدَيهِ مَن هوَ خَيرٌ منهُ دِينًا وخُلُقًا، ويَكونَ أبَرَّ منهُ بهما.

*** *** ***

فلا حبَّ ولا ولاءَ بين المؤمنِ والكافر:
{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...} [سورة الممتحنة: ٤]:
لقد كانَ لكم قُدوَةٌ حسنَةٌ في نَبيِّ اللهِ إبراهيمَ وأتباعِهِ المؤمِنين، إذْ قالوا لقَومِهم المشرِكين: تَبرَّأنا منكم ومِنَ الأصْنامِ والكَواكبِ التي تَعبُدونَها مِن دونِ الله، كفَرنا بدينِكم وأنكَرنا طَريقَتَكم، وقد وجبَتِ العَداوَةُ والبَغضاءُ بينَنا وبينَكم ما دُمتُم على كُفرِكم، حتَّى تُوَحِّدوا اللهَ وتَعبُدوهُ وَحدَهُ لا شَريكَ له...

*** *** ***

ولا يُقبَلُ إيمانٌ بعدَ رؤيةِ العذاب:
{فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [سورة غافر: ٨٤ – ٨٥].
أي: فلمَّا رَأى المشركونَ شِدَّةَ عَذابِنا، وعَلِموا أنَّهم سيُعاقَبونَ على ما اكتسَبوا مِنَ المعاصي والذُّنوب، أدرَكوا ما كانوا عَليهِ مِن كُفرٍ وجَهلٍ وغُرور، وقالوا في استِسلام: آمَنَّا باللهِ وَحدَهُ لا شَريكَ له، وتبرَّأنا مِنَ الآلهَةِ التي كنَّا نَعبُدُها مِن دونِ الله.
ولكنَّهمْ قالوا ذلكَ بعدَ فَواتِ الأوَان، فلمْ يَنفَعْهُم إيمانُهم بعدَ أنْ عايَنوا العَذاب، لأنَّهُ إيمانٌ عن إلجاءٍ واضطِرار، وقد مضَى وَقتُ التَّكليف، وجاءَ وَقتُ الحِسابِ والجَزاء. وهذا حُكمٌ عامٌّ وضعَهُ

اللهُ للنَّاس، بأنْ لا يَقبلَ إيمانَ أحَدٍ منهم عندَ رؤيَةِ العَذاب. وخَسِرَ الكافِرونَ عندَما رأوا بأسَ اللهِ يُحيطُ بهم، وعَلِموا أنَّهم في النَّارِ معَذَّبونَ على الدَّوام.

*** *** ***

ولا يستوي مؤمنٌ وكافرٌ:

{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}؟ [سورة ص: ٢٨]:

أمْ نُسَاوي بينَ المؤمِنينَ الصَّالحينَ والمجرِمينَ المفسِدينَ في الأرض؟ أمْ نُسَاوي بينَ المطيعينَ المخلِصينَ والكافِرينَ الفاجِرين؟ إنَّهم لا يَستَوون، فلا بُدَّ مِن قَضاءٍ عادِلٍ وحِسابٍ كامِلٍ يَومَ البَعث، ليُجزَى كُلٌّ بما عَمِل.

فلا يستويان في الجزاء:

{أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ} [سورة السجدة: ١٨]:

فهل الذي عُمِّرَ قَلبُهُ بالإيمَان، وانقادَتْ جَوارِحُهُ لطاعَةِ الله، كمَن كفرَ به، وجحَدَ رِسالاتِه، وخرَجَ عن طاعَتِه؟ إنَّهم لا يَستَوونَ في الثَّوابِ يَومَ القيامَةِ أبدًا.

{أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة السجدة: ١٩]:

أمَّا الذينَ آمَنوا وصدَقوا في إيمانِهم، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحَةَ لوَجهِ اللهِ وحدَه، فلهم جَنَّاتُ النَّعيم، مأوَى اللَّذَّات، ونَعيمُ الأرواح، ومحَلُّ الأفراح، في جِوارِ رَبٍّ كَريم، ضيافَةً وكَرامَة، بما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا منَ الطَّاعاتِ والقُرُبات.

{وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ} [سورة السجدة: ٢٠]:

وأمَّا الذينَ كفَروا وخرَجوا عن طاعَةِ رَبِّهم، فمَحَلُّهمُ النَّارُ التي تُسْعَرُ بهم، خالِدينَ فيها، كُلَّما حاوَلوا الخروجَ منها – لِما يَلحَقُهم مِنَ الحَرِّ والشدَّةِ والكَرْب – ضُرِبوا بالمقامِع، فأُعيدُوا مِن أعالِيها إلى أسافِلِها، وقالَت لهمُ الملائكة: ذُوقوا العَذابَ الذي كنتُم تُكَذِّبونَ بهِ في الحيَاةِ الدُّنيا.

*** *** ***

وقالَ جنٌّ مؤمنون:

{وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً . وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً} [سورة الجن: ١٤ – ١٥].

أي: منَّا المسلِمونَ القائمونَ على أمرِ الإيمَانِ والطَّاعَة، ومنَّا الجائرونَ النَّاكِبونَ عن طَريقِ الحقّ، فمَن أسلمَ فأولئكَ الذينَ قصَدوا الهِدايَةَ والسَّداد، وطلَبوا الفَوزَ والنَّجَاة، وأمَّا المشرِكونَ النَّاكِبونَ عن طَريقِ الحقّ، فكانوا وَقودًا تُسعَرُ بهمُ النَّارُ في جهنَّم.

*** *** ***

والمؤمنون وجلون من يومِ القيامة، والكافرون مستعجلون بها استهزاء!

{يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} [سورة الشورى: ١٨].

أي: يَستَعجِلُ الكافِرونَ بالسَّاعَةِ تَكذيبًا وإنكارًا، ويَقولونَ استِهزاءً: متَى تَقومُ السَّاعَة؟ والمؤمِنونَ خائفونَ وَجِلونَ منها، ويَعلَمونَ أنَّها آتيَةٌ لا رَيبَ فيها، فيَعمَلونَ مِن أجلِها. ألَا إنَّ الذينَ يُجادِلونَ في السَّاعَةِ بالباطِلِ جاهِلونَ بَعيدونَ عنِ الحقّ.

*** *** ***

ويومَ القيامةِ يبغضُ الكافرُ نفسَهُ لعدمِ إيمانهِ في الدنيا:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ} [سورة غافر: ١٠].

أي: إنَّ الكافِرِينَ يُنادَونَ مِن قِبَلِ الملائكةِ وهم في سَعيرِ النَّار: إنَّ بُغْضَ اللهِ لكم في الدُّنيا حينَما كانَ يَدعُوكم إلى الإيمانِ فتُعانِدونَ وتَستَكبِرونَ عنِ اتِّباعِه، أكبَرُ مِن بُغضِكم لأنفُسِكم، التي عرَّضَتْكُم للعُقوبَةِ والنِّيران، بسبَبِ ما أسلفَتْ مِنَ الأعمالِ السَّيِّئة.

*** *** ***

وإذا كان المشركونَ يَستَهزِؤونَ بالمؤمِنينَ ويَحتَقِرونَهم في الحيَاةِ الدُّنيا {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ} [سورة المطففين: ٢٩]، فإنهُ في يَومِ القِيامَةِ يَضحَكُ المؤمِنونَ وهم في الجَنَّةِ يَنعَمون، مِنَ الكفَّارِ وهم في الجَحيمِ يُعَذَّبون، في مُقابِلِ ما كانَ يَسخَرُ منهم هؤلاءِ في الحيَاةِ الدُّنيا {فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ} [سورة المطففين: ٣٤].

البخل والإسراف

ينصحُ الله عبادَهُ بالاعتدالِ إذا أنفقوا:

{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً} [سورة الإسراء: ٢٩].

أي: لا تَبخَلْ بما رزَقكَ اللهُ وكأنَّ يدَيكَ مُقَيَّدتانِ إلى عُنُقِك، ولا تَبسُطْهُما كذلكَ وتَدَعْهما مَفتوحَتَينِ لا تُمسِكانِ شَيئاً، فيَذهَبَ كُلُّ مالِكَ وتَقعُدَ نادِمًا كَئيبًا، عاجِزًا ضَعيفًا.

والمطلوبُ الاقتِصادُ في العَيش، والوسَطيَّةُ في الإنفَاق، والتوازُنُ بينَ التَّقتيرِ والتَّبذير.

{إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً} [سورة الإسراء: ٣٠].

أي أن اللهَ هوَ الرَّازِق، يُوَسِّعُ في الرِّزقِ على مَن شاءَ مِن عِبادِهِ فيُغنيه، ويُضَيِّقُ على آخَرينَ منهم فيَكونُونَ أقَلَّ غِنًى أو فُقَراء، لحِكمَةٍ يَعلَمُها، فهوَ خَبيرٌ بهم وبأحوالِهم، بَصيرٌ بمَن يَستَحِقُّ الفَقرَ ومَن يَستَحِقُّ الغِنى.

فالاعتدالُ في الإنفاقِ من صفاتِ عبادِ الرحمنِ المؤمنينَ المتَّقين:
{وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} [سورة الفرقان: ٦٧].
أي: همُ الأخيارُ المعتَدِلون، الذينَ إذا أنفَقوا لم يَزيدوا فَوقَ الحاجَة، ولم يتَجاوَزوا حدَّ الكرَم، وكذلكَ لم يَبخَلوا ولم يُمسِكوا أيديهم عنِ الإنفاق، بل كانوا وسَطًا وعَدْلاً.

البرّ: حقيقته وما يناقضه

عندما أمرَ اللهُ المسلِمين أوَّلاً بالتوجُّهِ إلى بيتِ المقدِس، ثمَّ أمرَهم بالتحوُّلِ إلى الكعبة، شقَّ ذلكَ على طائفةٍ من أهلِ الكتابِ وبعضِ المسلمين، فبيَّنَ في هذه الآيةِ العظيمةِ أنَّ المهمَّ في هذا هو التسليمُ والطاعةُ والامتثالُ لأمرِ الله.
{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [سورة البقرة: ١٧٧].
فليستِ الغايةُ منَ التوجُّهِ إلى المشرقِ والمغربِ هو الجهةُ بعينِها، ولا القيامُ بحركاتٍ ظاهرةٍ نحوَها، فلا تَكمُنُ الخيريَّةُ في هذهِ الأمورِ مجرَّدةً عنِ الدافعِ من ورائها وطاعةِ الآمرِ بها، فجِماعُ الخيرِ هو في العقيدةِ الصَّحيحَة، والطاعةِ لله، والتسليمِ بأمرِه، الذي يُعطي القيمةَ والقَبولَ لتلكَ الأعمال، الإيمانُ بهِ عزَّ وجلَّ أوَّلاً إيماناً عميقاً، وباليومِ الآخِرِ وما فيهِ من جزاءٍ وحِساب، ونَعيمٍ وعَذاب، وبالملائكةِ جُندهِ ورسلهِ بينَهُ وبينَ عباده، وبالكتابِ الحقِّ المنزَلِ من عندِ اللهِ على رسولهِ لهدايةِ عبادِه، آخِرُها القُرآن، الذي نسخَ كلَّ ما قبلَهُ منَ الكتُب. وبأنبياءِ اللهِ كلِّهم، حتَّى خاتمِهم محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، من غيرِ تَفرقةٍ بينهم كما فعلَ أهلُ الكتاب.
والمؤمِنُ الصادقُ أيضاً هوَ مَن أنفقَ مِن مالِهِ وهو محبٌّ لهُ راغِبٌ فيه، فأعطاهُ لأهلهِ وأقربائه، ولليتامَى الذينَ فَقدوا آباءَهم وكانوا صِغاراً ضُعفاء، والمساكينِ الذينَ لا يَجدونَ ما يَكفيهم، وابنِ السبيلِ الذي نَفِدَت نفقتُهُ وهو بعيدٌ عن وطنه، والسائلينَ الذينَ ألجأتهُمُ الحاجةُ والضرورةُ إلى

السؤال، وفي الرِّقاب: العبيدِ الذين يُريدونَ أن يُصبِحوا أحرَاراً ولا يجدونَ المبلغَ الكافيَ لإعطائهِ أسيادَهم من أجلِ ذلك.

ثمَّ حافظَ على عباداتِه، فأقامَ الصلاةَ المفروضةَ بشروطِها وأركانِها، وأدَّى زكاةَ مالِه. وأنْ يكونَ من الأوفياءِ بعهودِهم إذا عاهدوا، فلا يَخونُ ولا يَغدِرُ كالمنافقينَ ومَن حَذا حَذوَهم.

ومنَ الصابرينَ إذا أصابَهُ مَكروه، كفَقرٍ أو مَرض. وكذلكَ في حالِ القِتالِ ولقاءِ العدوّ.

فهؤلاءِ الذينَ اتَّصفوا بهذهِ الصفاتِ، همُ الذينَ صدَقوا ربَّهم في إيمانِهم، فاتَّبعوا الحقّ، وتحرَّوا البِرّ، وأحرَزوا الخير، وابتَعدوا عنِ المحارمِ والموبِقاتِ وسائرِ الرذائل، وفعلوا الطاعاتِ المطلوبةَ منهم؛ امتثالاً لأمرِ اللهِ وخَشيةً منه.

*** *** ***

وحقيقةُ البرّ في مناسكَ للحجّ:

{وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة البقرة: ١٨٩].

أي: ليسَ من الخيرِ أنْ تَدخُلوا البيوتَ من فُرَجٍ وأنقابٍ وتَتركوا الأبوابَ إذا كنتُم مُحْرِمين، ولكنَّ الخيرَ مَن خَشِيَ اللهَ وتركَ مخالفةَ أمرِه، فادخُلوا البيوتَ مِن أبوابِها كالعادةِ ولو كنتُم مُحرِمين، وكونُوا على طاعةٍ واستِقامةٍ لتَفوزوا بالبِرّ والهُدَى.

وكانتِ الأنصارُ وقبائلُ منَ العربِ تَفعلُ ذلك، فنزلتِ الآيةُ الكريمة.

*** *** ***

والإثمُ يناقضُ البرّ:

{وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ} [سورة المائدة: ٢].

أي: ليُعِنْ بعضُكم بعضاً على فعلِ الخَيرات، وعلى الحِلْمِ والعَفو، وعلى الطَّاعةِ والخَشية، وفي التقوَى رضا الله، وفي البِرّ بالناسِ رِضاهُم، وأجمِلْ بذلك إذا اجتَمعا في المرء.

ولا تَتعاوَنوا على الإثمِ والكفر، والظُّلمِ والمعصية، والمنكرِ والباطِل.

*** *** ***

والأبرارُ في نعيم، والفجّار في جحيم، في يومِ القيامة:
{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [سورة الانفطار: ١٣ – ١٤].
أي: إنَّ الذينَ بَرُّوا وصَدَقوا في إيمَانِهم، بأداءِ ما فَرضَ اللهُ عَليهم، واجتِنابِ ما نَهاهُم عنه، في جَنَّةٍ ونَعيم، ولذَّةٍ وسَعادَةٍ دائمَة.
وإنَّ الكافرِينَ الفاجِرين، الذينَ كذَّبوا بآياتِ اللهِ وأصَرُّوا على الكُفر، في جهنَّم، يُقاسُونَ حرَّها وعَذابَها الشَّديد.

وكذلكَ موضعُ الأبرارِ في علِّيين، وفي النعيم، وموضعُ الفجَّارِ في سجِّين، في الآيات (٧ – ٢٨) من سورةِ المطففين.

البرّ والبحر

الله يعلمُ ما في البرِّ والبحر، وكلَّ ما يجري على الأرض. قالَ الله تعالى:
{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [سورة الأنعام: ٥٩].

*** *** ***

واللهُ يسَّرَ لبني آدمَ التنقلَ بين البرِّ والبحر:
{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} [سورة الإسراء: ٧٠].

أي: جَعلنا بني آدمَ ذَوي كَرامَةٍ وشرَف، ومَحاسِنَ وفَضائل، بما أودعَ اللهُ فيهم مِن فِطرَة، وأكرمَهم مِن عَقل، وجعلَهم خُلَفاءَ في الأرض، وسخَّرَ لهم ما في السَّماواتِ والأرض.
وسهَّلنا لهمُ التنقُّلَ في البَرِّ والبَحرِ بما ذَلَّلناهُ لهم منَ الدوابِّ والسُّفُنِ وغَيرِها منَ المراكب..

*** *** ***

وهناكَ علاماتٌ مبثوثةٌ في البرِّ والبحرِ تدلُّ على أماكنَ معيَّنةٍ يعرفُها البشر:
{أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [سورة النمل: ٦٣].
أي: مَن الذي يُرشِدُكم في ظُلُماتِ اللَّيالي في البَرِّ والبَحرِ إذا سافَرتُم، بما جعلَ لكم مِنَ الدَّلائلِ والعَلاماتِ في الأرضِ وفي السَّماء؟

*** *** ***

وللبرِّ والبحرِ ظلمات!
{قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [سورة الأنعام: ٦٣].
أي: مَنْ يُخلِّصُكم منَ الشَّدائدِ والأهوالِ التي تُصيبُكم إذا كنتُم مُسافِرينَ في البَحرِ فأحاطَت بكمُ الأمواجُ مِن كلِّ مكان، وقَذفَتكُمُ الرياحُ العاتيَةُ في وسَطِ البَحر، أو في صَحارَى ومَهامهِ البَرّ، أو الجبالِ العَاليةِ والأوديةِ العَميقة، أو وقَعت أحداثٌ طبيعيَّةٌ بقَضاءِ اللهِ وقَدَره، فاهتزَّتِ الأرضُ وانفَجرتِ البراكينُ وهاجَتِ الأعاصير، أو لازمَتْكُمُ الأمراضُ ولا عِلاج، فتلجَؤونَ إليهِ وتَستَغيثونَ بهِ سرّاً وإعلاناً، قَلباً ولِساناً، مُخلِصينَ له الدِّين، لا تَدعونَ غيرَه، وتَقولون: لئنْ أنجانا اللهُ مِن هذا الكَرْبِ والضائقةِ لقدَّرنا نِعَمَهُ الجَليلة، وقُمنا بحقِّها كما يَنبَغي، حامِدينَ شاكِرين.
{قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ} [سورة الأنعام: ٦٤]:
فقُلْ لهم: إنَّ اللهَ يُنَجِّيكم من هذهِ الكرُباتِ وغَيرِها، لكنْ بعدَ أنْ يبلِّغَكم بَرَّ الأمانِ ويُعافيَكم ممّا أصابَكم، تَعودونَ فتُشرِكونَ في عبادتِه، ولا توفُونَ بالعَهد.

وقالَ سبحانهُ في آيةٍ أخرى:

{وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً} [سورة الإسراء: ٦٧].

أي: إذا أصابَكمُ الخَوفُ في البَحر، فقَويَتِ الرِّيح، وهاجَ الموج، وتَمايَلَتِ السَّفينَةُ مُنذِرَةً بالغَرَق، ذهَبَ عَنكم كُلُّ مَن كنتُم تَدعونَهم وتَعبدونَهم إلاّ الله، وعرَفتُم أنَّهُ لنْ يُغيثَكم إلاّ هو، فلمّا خلَّصَكم من ذلكَ الكَرْب، وأنقذَكم مِن هَولِ البَحرِ وأمواجِه، وأوصلَكم سالِمينَ إلى البَرّ، أعرَضتُم عن تَوحيدِ رَبّكم، ورجَعتُم إلى الشِّركِ والمعصِيَة. وهذهِ عادَةُ الإنسَان، الذي يَنسَى النِّعَم، ويَجحَدُ المعرُوف، إلاّ مَن عصَمَ الله، وتثَبَّتَ على الإيمان.

*** *** ***

والفسادُ يكونُ في البرّ وفي البحر:

{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة الروم: ٤١].

أي: ظهرَ الفسادُ، مِن المعاصي وقَطْعِ الطَّريقِ والظُّلمِ والمنكراتِ وغَيرِها، في البَرّ، وفي المدُنِ والقُرَى التي على الأنهَارِ والبِحار، بسبَبِ ذُنوبِهم وجرَائمِهم، ولَيُعاقِبَنَّهمُ اللهُ على فسَادِهم بابتِلائهم، بنَقصِ الأموَالِ والأنفُسِ والثمَرات، لعلَّهم بذلكَ يَرجِعونَ عن أعمالِهم السَّيِّئة.

البسط والقبض

(التوسيع والتقدير)

اللهُ تعالَى يوسِّعُ الرزق على من يشاءُ بحكمته، ويقبضهُ عن آخرين:

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة الروم: ٣٧، سورة الزمر: ٥٢]:

أوَلَا يَنظرونَ كيفَ يوَسِّعُ اللهُ الرِّزقَ على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُ على آخَرينَ منهم؟ إنَّ في هذا لَعِبَرًا لمن يؤمِنُ بأنَّ اللهَ بيَدِهِ كُلُّ شَيء، مِن رِزقٍ وغَيرِه، ولو أنَّهم تفَكَّروا في هذا وتدَبَّروه، لعَلِموا أنَّ المتصَرِّفَ في رِزقِهم وأمرِهم كُلِّهِ هوَ اللهُ سُبحانَه، فلم يَبطَروا، ولم يَيأَسُوا.

*** *** ***

ولو أعطى الله عبادَهُ فوقَ حاجتهم لبغَوا:

{وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [سورة الشورى: ٢٧].

أي: ولو وسَّعَ اللهُ الرِّزقَ لعِبادِهِ وأعطاهُم فَوقَ حاجَتِهم، لطغَوا وتجبَّروا، وأفسَدوا في الأرْض، ولكنَّهُ يُنَزِّلُ لهم مِنَ الرِّزقِ بقَدْرِ مَصلحَتِهم، كما تَقتَضيهِ حِكمَتُهُ تَعالَى، وهوَ أعلَمُ بما يُصلحُهم، فيُغني مَن يَستَحِقُّ الغِنَى، ويُفقِرُ مَن يَستَحِقُّ الفَقر. واللهُ خَبيرٌ بأمرِ عِبادِه، بَصيرٌ بما يَلزَمُهم وما يُصلِحُهم.

*** *** ***

وتمَنَّى بعضُهم أن يكونَ مثلَ قارونَ في ماله، وبعدَ أن خسفَ الله به وبخزائنِهِ الأرضَ تغيَّرتْ نظرتُهم:

{وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [سورة القصص: ٨٢].

أي: أصبَحَ الذينَ رَأوا قارُونَ في زِينَتِهِ وتمَنَّوا أنْ يَكونُوا في مَكانِهِ ومَنزِلَتِه بالأمسِ القَريبِ يَقولون، وقد نَدِموا على ما قالُوا: عجبًا! إنَّ اللهَ سُبحانَهُ يُعطي المالَ مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ ولا يَعني هذا أنَّهُ يُحِبُّهم ويَرضَى عَنهم، ويَمنَعُهُ ممَّن يَشاءُ ولا يَعني أنَّهُ يَكرَهُهم ويُهينُهم، فلَهُ الحِكمَةُ في ذلك، ولولا لُطفُ اللهِ بنا وتَجاوزُهُ عن تَقصيرِنا فيما تَمَنَّيناه، لخسَفَ بنا الأرضَ كما خسَفَ بقارُون. ألم ترَ أنَّ الكافِرينَ بنِعمَةِ اللهِ لا يَسعَدونَ ولا يَفوزون؟

البقاء والفناء

الله باق، وكلُّ شيءٍ آخرَ يفنى:

{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [سورة الرحمن: ٢٧].

أي: كُلُّ مَنْ على الأرضِ مِنَ المخلوقاتِ هالِكٌ ميّت، ويَبقَى اللهُ وحدَه، فهوَ الحيُّ الذي لا يَموت، العَظيمُ المنفَرِدُ بالجَلالِ والكبرياء، ذو الإنعامِ والإكرام.

*** *** ***

وما عندَ الله باق، وما عندَ الناسِ فان:

{مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة النحل: ٩٦].

أي: إنَّ ما عِندَكم مِن مَالٍ ومَتاعٍ يَنتَهي ويَزول، فمُدَّتُهُ قَصيرَةٌ مهما كَثُر، وما ادَّخَرَهُ اللهُ لكم في الآخِرَةِ مِن ثَوابٍ ونَعيمٍ يَدومُ ولا يَنقَطِعُ أبدًا، وسَوفَ نُجازي مَن صبرَ على تَكاليفِ الوفاءِ بالعُهودِ أفضلَ ما يُجازَى بهِ المرءُ على أعمالٍ حسَنةٍ عَمِلَها.

البنون والبنات = الذكر والأنثى

البياض والسواد = الأبيض والأسود

البيع والربا

قالَ الله تعالى مبيّنًا حكمَ الربا ومفرّقًا بينه وبين البيعِ:

{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [سورة البقرة: ٢٧٥].

أي: إنَّ الذينَ يأكلونَ الرِّبا ويتعامَلونَ به، يَكونُ مَصيرُهم عندما يَقومونَ مِن قُبورِهم للحَشرِ والحساب، كحالِ المصروعِ عندما يَقوم، فيؤذيهِ الشيطانُ ويَصرَعُه، فتَكونُ حركتهُ هِستيريةً عشوائيةً وكأنَّهُ مَجنونٌ يُخنَق، ممّا بهِ مِن جُنونٍ وفَزَع!...

وإنَّ سببَ ما يَنزِلُ بهؤلاءِ المرابينَ عندما يُبعثونَ مِن قبورِهم، هو استِحلالُهم الرِّبا وقَولِهم إنَّ البيعَ مثلُ الربا، وقالوا: لماذا أُحِلَّ هذا وحُرِّمَ ذاك؟ فهو اعتراضٌ على أحكامِ اللهِ وشرعِه. وشُبهتُهم الواهيةُ في هذا أنَّ كِلَيهما يَجُرّانِ ربحاً! معَ أنَّ العملياتِ الرِّبويَّةَ مُحَدَّدٌ ربحُها وفائدتُها في كلِّ حالة، وتَعودُ إلى مَجموعَةٍ منَ المموّلين المرابين، والبيعُ والتجارةُ يُخضَعُ فيه للربحِ والخَسارة، في مهاراتٍ شخصية، وظروفٍ جارية، وحركةٍ وعَمل، وتوزيعٍ متنوّعٍ في الأموالِ والأرباح. فالرِّبا يُفسِدُ الحياةَ البشريَّة، والبيعُ والتجارةُ تنشّطُ الحياةَ الاقتصاديةِ وسوقَ العمل. ولهذا وغيرِهِ منَ الاعتباراتِ التي يَعرِفُها الاقتصاديونَ والتجّار، أحلَّ اللهُ البيع، وحرَّمَ الرِّبا تَحريماً قاطِعاً.

فمَن بلَغَهُ نَهيٌ وزَجرٌ عن تعاطي الرِّبا حالَ وصولِ حُكمِ الشرعِ إليه، فلهُ ما سبقَ من مالهِ الذي وصلَهُ عن طَريقِ الرِّبا قبلَ التحريم، فلا يُستردُّ منه، وأمرُهُ إلى الله، فيَرجو عفوَهُ ورحمتَه، فهوَ من العفوِ عمّا سلفَ إنْ شاءَ الله.

ومَن عادَ إلى التعاملِ بالرِّبا بعدَ بلوغهِ نَهيَ اللهِ عنه، فقدِ استَحقَّ العقوبةَ والنارَ المحرِقةَ الدَّائمة. فلا يَغُرَّنَّ أحداً طولُ وقتٍ عاشَه، فإنَّ الموتَ يأتي فجأة، ولا يُبعِدَنَّ مِن حِسابهِ تهديدَ اللهِ ووعيدَه، فإنَّهُ حَقٌ وصِدق، وهو واقعٌ بمن خالفَ أمرَه.

وقد جاءَ التحريمُ لآكلِ الرِّبا لأنَّهُ الغالِب، والمقصودُ هو ومَن في حكمه، وفي صحيحِ مسلمٍ قولُ جابرٍ رضيَ اللهُ عنه: "لَعَنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلمَ آكِلَ الرِّبا، ومُؤكِلَهُ، وكاتِبَهُ، وشاهِدَيْه، وقال: هُمْ سَواء".

{يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} [سورة البقرة: ٢٧٦].

أي أنَّ اللهَ يُذهِبُ البَركةَ منَ الأموالِ الرِّبويَّة، فلا يُنتَفَعُ بها، وستَكونُ حسرةً على صاحبِها وعقاباً لهُ في اليومِ الآخِر. وما استوَى خَبيثٌ وطيِّب، ولو كانَ هذا الخبيثُ أبيضَ برّاقاً، فإنَّ

اللهَ يَرْكُمُهُ ويَجعَلُهُ في جهنَّم. وهوَ لا يعودُ على المجتمعِ الرِّبويّ إلا بالشقاءِ والنَّكد، على الرغمِ ممّا يُرَى في ظاهرِهِ من غِنىً ومَوارد، فإنَّهُ يَفيضُ بالقلقِ النفسيّ والخوفِ والاضطِراب، وليسَ فيه أمانٌ واطمئنانٌ وسَعادةٌ حقيقيَّة، حيثُ لا بَرَكةَ ولا تَكافلَ قائمٌ على الحقِّ والتقوَى.

أمّا المالُ الطيّبُ والصَّدقات، فإنَّ اللهَ يُنْمِيها ويَزيدُها خيراً وبَرَكةً ووَفرة، ويَجعلُ في مجتَمعهِ المودَّةَ والاطمئنانَ وراحةَ البال، حيثُ التكافلُ والتعاونُ على الخَير.

واللهُ يَبغُضُ ذلكَ المرابيَ الكَفورَ القَلب، الذي يأثَمُ في قولهِ وفِعله، فلا يَرضَى بما قسمَ اللهُ لهُ منَ الحلال، ولا يَكتفي بما شَرعَ اللهُ لهُ منَ التكسُّبِ المباح، بل يَسعَى إلى أكلِ أموالِ الناسِ بالباطِل، منَ الرِّبا وغَيرِه.

التبشير والإنذار

الرسلُ عليهم الصلاة والسلامُ مبشّرون ومنذِرون:

قالَ سبحانه: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة الأنعام: ٤٨].

أي: ليسَ الهدفُ من إرسالِ الرسُلِ إلى الناسِ إلاّ أنْ يُبَشِّروهم بالخَيرِ والثوابِ الجَزيلِ لمن أطاعَه، ويُنذِروهم ويخوّفوهم بالعِقابِ والعَذابِ لمن عصَى وأبَى.

وكذا قالَ الله تعالى لنبيّهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم:

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً} [سورة الفرقان: ٥٦].

أي: ما أرسَلناكَ إلاّ مُبَشِّرًا للمُؤمِنينَ المطيعينَ بالثَّوابِ الحسَن، ومُنذِرًا للكافِرينَ العاصِينَ المكَذِّبينَ بالعَذابِ والنَّكال.

التبصر والهوى = العقل والهوى

التجمع والتفرق = الوحدة والفرقة

التدبر والتبلد

ومن المقارناتِ القرآنيةِ بين متدبرٍ متبصِّرٍ وجاهلٍ متبلدٍ عنيد:

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [سورة محمد: ٢٤]:

أفلا يَتفَهَّمونَ القُرآن، ويَتمَعَّنونَ في آياتِه، ومَواعظِهِ وأحكامِه، وزَواجرِهِ ونَواهيه، حتَّى لا يَقَعوا فيما وَقعَ فيهِ الجاهِلون؟ بل هذهِ القُلوبُ مُغَطَّاةٌ بحُجُبٍ كثيفَة، ومُقفَلَةٌ بأقفالٍ ثَقيلَة، لا تَخترِقُها الكلِماتُ مَهما كانت مُؤَثِّرَة، ولا تَنتَهي إليها الأنوارُ مَهما كانت مُشِعَّة!

الترغيب والترهيب

قالَ الله تعالى في أنبيائهِ عليهم الصلاةُ والسلام:

{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [سورة الأنبياء: ٩٠].

أي: كانَ الأنبياءُ عابِدينَ صالِحين، يُسارِعونَ في عمَلِ الطَّاعاتِ وأنواعِ القُرُبات، حُبًّا في اللهِ وما عندَهُ مِنَ الثَّواب، وخَوفًا ورَهبَةً مِن نِقمَتِهِ وعذابِه، وكانوا مُتضَرِّعينَ إلى رَبِّهم، مؤمِنينَ مُخبِتين.

التزكية والإفساد

قالَ اللهُ تعالى:

{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [سورة الشمس: ١٠].

أي: قد فازَ وسَعِدَ مَن أصلحَ نَفسَهُ وطهَّرَها مِن الشِّركِ والمعاصِي ومَساوئِ الأخلاق، وقد خابَ وخَسِرَ مَن أفسَدَ نَفسَهُ وأغوَاها، وأهلكَها بحَملِها على الكُفرِ والمعصية.

التفاؤل والتشاؤم = اليأس والرجاء

التقدم والتأخر

قالَ الله تعالى:

{وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} [الحجر: ٢٤].

أي: قد عَلِمنا مَن ماتَ مِنكم مِن لَدُنْ آدَم، ومَن هوَ حَيٌّ لم يَمُت، ومَن سَيأتي بَعدَكم إلى يَومِ القيامَة.

*** *** ***

وبعثَ اللهُ نبيَّهُ محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم

{نَذِيراً لِّلْبَشَرِ} [سورة المدّثر: ٣٦].

أي: إنذارًا للنَّاسِ وتَخويفًا لهم مِنَ العَذاب، وما أنذرَ اللهُ بشَيءٍ أدهَى مِن جهنَّم.

{لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ} [سورة المدّثر: ٣٧].

أي: لمن شاءَ منكم أيُّها البشَرُ أنْ يَقبلَ الإنذَارَ فيَهتَديَ ويتَقدَّمَ إلى الخَيرِ والطَّاعَة، ولمن ردَّ الإنذَارَ فيَتأخَّرَ ويَنغَمِسَ في الشُّرورِ والمعَاصي.

*** *** ***

وقالَ سبحانهُ لنبيِّهِ عليه الصلاةُ والسلامُ في صلحِ الحديبية، الذي اعتُبِرَ فتحًا ظاهرًا:

{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً} [سورة الفتح: ٢].

أي: ليَغفِرَ اللهُ لكَ معَ نِعمَةِ الفَتحِ جَميعَ ذُنوبِك، ما سبقَ منها وما يَكون. وهذا مِن خَصائصِهِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام، والمرادُ ما ظَهرَ مِن خِلافِ الأَولَى بالنسبَةِ إلى مَقامِهِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام. وليُتِمَّ نِعمتَهُ عَليك، في الحيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة، فيَنصُرَ الإسلام، ويَنشُرَه، ويُعليَ مَقامَكَ في

العِلّيّين، وليُثبّتَكَ على صِراطِ اللهِ المستَقيم، وشَرعِهِ العَظيم، فتَحكُمَ بهِ وتُبَلّغَه، وليَهديَ بكَ النَّاس.

*** *** ***

واللهُ يؤخّرُ عقوبةَ الناسِ إلى أجلٍ لا يتقدَّمون عليه ولا يتأخرونَ عنه. قالَ سبحانه:
{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [سورة النحل: ٦١].
أي أنَّ اللهَ تعالَى لو عاقبَ النَّاسَ على ظُلمِهم وأعمالِهم الإجراميَّةِ في هذهِ الحياة، لأهلَكَهم ولم يُبْقِ منهم أحدًا، ولكنَّهُ سُبحانَهُ عَفوٌّ حَليمٌ لا يُعاجِلُهم بالعُقوبَةِ المقَدَّرَةِ عَليهم، وهوَ لا يُهمِلُهم بهذا، بل يُريهم آياتٍ وعُقوباتٍ وأمثالاً، عدا ما أرسَلَ من رسُلٍ وأنزَلَ من كتُب، ليَبحَثوا ويَتفكَّروا، وليَفقَهوا ويَتدَبَّروا. وليسَ هذا إلى الأبَد، بل إلى أجَلٍ مَحدود، فإذا جاءَ الوَقتُ الذي تُحصَدُ فيهِ أرواحُهم لا يَؤَجَّلون، فلا يتأخَّرونَ عن مَوعِدِ مَوتِهم أقَلَّ مُدَّةٍ ولا يَتقَدَّمونَه.

وقالَ في آيةٍ أخرى:
{مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ} [سورة المؤمنون: ٤٣].
أي: لا تتَقدَّمُ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ الوَقتَ الذي عُيِّنَ لهلاكِها ولا تتأخَّرُ عَنه، بل تَهلِكُ في الوَقتِ الذي قَدَّرَ اللهُ لها فيه.

*** *** ***

ويُخبَرُ الإنسانُ عندَ وَزنِ الأعمَالِ يَومَ الحِسابِ بجَميعِ أعمالِه، قَديمِها وحَديثِها، أوَّلِها وآخرِها. قالَ سبحانه:
{يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [سورة القيامة: ١٣].

التقليد والتفكير

التقليدُ درجات، وقد يكونُ كالغريزة، حيث يكونُ التصرفُ من غيرِ عقلٍ وتفكير.

ومن أرادَ أن يتعرفَ على أمرٍ فلا بدَّ من أن يفكِّرَ ويدرسَ ويوازن، ولا يحكمَ عليه من غيرِ دراية.

وقد كثرَ التقليدُ للآباء والارتماءُ في أحضانِ القبيلةِ أو القوميةِ والمذهبيةِ بتغليبِ العاطفةِ والغريزةِ على العقل.

ومن أخطرها إذا كان الأمرُ متعلقًا بالعقيدة، من ذلك قولهُ تعالى:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ} [سورة البقرة: ١٧٠].

أي: إذا طُلِبَ من المشركين وأهلِ الكتابِ أنْ يتَّبعوا كتابَ اللهِ الذي أنزلَهُ على رسولهِ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم قالوا: لا نتَّبعُه، بل نتَّبعُ ما وَجدنا عليه آباءَنا، لأنَّهم كانوا خَيراً منّا!

أيقتَدون بهم ويَقتَفونَ أثرَهم ولو كانوا لا يَفهمونَ شيئاً ولا يهتدونَ إلى الصواب؟ ولو كانوا غافلينَ وجاهلينَ ضالّين؟

التقوى والفجور

قالَ اللهُ تعالى في النفسِ البشريَّة:

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [سورة الشمس: ٧ – ٨].

أي: ونَفسٍ وما أنشَأها وأبدعَها، وسوَّى أعضاءَها، وجعلَها على الفِطرَة، فأرشدَها وبيَّنَ لها الخَيرَ والشرّ، وعرَّفَها الحقَّ والباطِل، وما يُصلِحُها وما يَشينُها.

*** *** ***

وقالَ في أهلِ الجنةِ وأهلِ النار:

{فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [سورة الليل: ١٤ – ١٦].

أي: فأبلَغتُكمْ رسَالَةَ الله، وخوَّفتُكمْ نارًا تتوقَّدُ وتتلهَّب، لا يَدخلُها ويَذوقُ حرَّها وسَعيرَها على الدَّوامِ إلاّ الشقيُّ مِنَ النَّاس، الذي كذَّبَ بالدِّين، وأعرضَ عن طاعَةِ ربِّه.

والمسلمُ العاصي يأخذُ نَصيبَهُ مِنَ العَذاب – إلاّ أنْ يَعفوَ اللهُ – ولكنْ ليسَ مثلَ العَذابِ الموصُوفِ للكافِرِ الشَّقيّ، فالنَّارُ درَكات. وقَصرُ النَّارِ على الكافِرِ في هذهِ الآيةِ أيضًا مِنْ جهةِ دَوامِهِ فيها إلى الأبَد، والمؤمِنُ لا يَخلدُ فيها. أو أنَّ الآيةَ عامَّةٌ تَخُصُّها الآياتُ الدَّالَّةُ على وَعيدِ الفُسَّاق.

{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} [سورة الليل: ١٧ – ١٨].

أي: سيُبعَدُ عنها ويَنجو المؤمِنُ التقيّ، الملازِمُ لطاعَةِ ربِّه، المنتَهي عمَّا نَهَى عنه، الذي يُنفِقُ مالَهُ في وجُوهِ البرِّ والخَير؛ ليُطهِّرَ بهِ نَفسَه...

التوحيد والشرك

الله واحدٌ لا شريكَ له، مهما قالَ المشركونَ غيرَه:

{أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} [سورة الأنعام: ١٩].

أي: أتَشهَدونَ أيُّها المشرِكونَ أنَّ هناكَ معَ اللهِ آلهةً أخرَى؟ قلْ لهم: لا أشهَدُ بهذا ولو شَهِدتُم به، فإنَّهُ باطِلٌ لا حقَّ فيه ولا دَليلَ عليه.

وقلْ لهم مُقِرّاً بالتوحيدِ والأُلوهيَّةِ لله، مُعَلِّماً إيّاهم ذلك: إنَّما اللهُ إلهٌ واحِد، لا شَريكَ لهُ ولا نِدّ، ولا أهلَ لهُ ولا كُفء، ولا مَعبودَ بحقٍّ سِواه، وبذلكَ أشهَد، وأنا بريءٌ مِن إشراكِكم وما تَعبدُون.

*** *** ***

الله واحدٌ أحد، لا شريك له، والشركُ يناقضُ التوحيد:

{يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الحَقَّ إِنَّمَا المسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا} [سورة النساء: ١٧١]:

يا أهلَ الكتاب، منَ اليهودِ والنَّصارَى، لا تَتطرَّفوا ولا تَتجاوزوا الحقَّ في دينِكم، ولا تَذكروا عنِ اللهِ إلاّ ما هوَ صِدقٌ وحَقٌّ وعَدل، بعيداً عنِ الكذبِ والضَّلالِ والباطِل، فلا صاحبةَ لهُ ولا ولَد، وما المسيحُ عيسى بنُ مريمَ إلا عبدُ اللهِ ورسولهُ، خُلِقَ بكلمةِ اللهِ وأمرِهِ "كُنْ" التي أوصلَها إلى مَريم، مِن غيرِ واسِطةٍ ولا أب، وهو رُوحٌ منَ الأرواحِ التي خلقَها اللهُ وكمَّلها بالصِّفاتِ الفاضِلةِ والأخلاقِ الكامِلة.

و"مِنْ" في قولهِ {وَرُوحٌ مِّنْهُ} للتَّشريفِ والتكريم، كأنْ تَقول: نِعمةٌ مِنَ الله، وليستْ "مِنْ" تَبعيضيَّةً كما ادَّعتِ النَّصارى وقالت: يَعني أنَّهُ بَعْضٌ مِنَ الله، تعالَى اللهُ عنْ ذلكَ عُلوّاً كبيراً، كما أنَّ قولَهُ تعالَى: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ} [سورة الجاثية: ١٣] لا يَعني أنَّ هذهِ الأشياءَ بعضٌ منَ الله...

فآمِنوا وصَدِّقوا باللهِ الواحدِ الأحَد، الذي لا صاحِبةَ لهُ ولا ولَد، وآمِنوا بجَميعِ أنبيائهِ ورُسُلِه، وهم عَبيدٌ مثلُكم، ولكنَّ اللهَ يوحِي إليهم ويُكلِّفُهم بتَبليغِ رسالتِه، ولا تَقولوا إنَّ الآلهةَ ثلاثة، فتَجعلوا عيسى وأمَّهُ شَريكينِ معَ الله، فانتَهوا من هذا الإثمِ العَظيمِ والشِّركِ الكبير، فإنَّ مَن قالَ ذلكَ أشركَ وكفَر. (وكانتْ هناكَ فِرقةٌ مِنَ النَّصارى يَقولونَ بأُلوهيَّةِ مريمَ أيضاً، يُقالُ لهمُ "المريَميُّون"، ظَهروا في القَرنِ السادسِ الميلادي، القرنِ الذي بُعِثَ فيهِ الرسولُ محمَّدٌ صلى اللهُ عليه وسلَّم).

انتَهُوا عن القولِ بالتَّثليث، فهوَ خَيرٌ لكم من هذا الكذِبِ والافتراءِ الباطِلِ الذي لا أصلَ لهُ ولا عقلَ يَقبلُه، إنَّما اللهُ إلهٌ واحِدٌ مُنزَّهٌ عنِ التعدُّدِ، تعالَى وتَقدَّسَ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ مثلُه، فلا شبيهَ لهُ ولا كُفء، بل جميعُ ما في السَّماواتِ والأرضِ مُلكهُ وعَبيدهُ وتحتَ تَصرُّفِه، لا يَخرجُ عن مُلكهِ شَيءٌ ممّا هوَ فيهما، ولو كانَ لهُ ولدٌ لكانَ مثلَهُ في صِفَةِ الملكيَّة، وهو الوكيلُ الحافِظُ

المستَقِلُّ بحفظِ جَميعِ ما في الكون، ولا يَحتاجُ إلى مَن يُعينُه، فلا يُتَصَوَّرُ له ولد، بلِ القائلُ بذلكَ في ضَلالٍ وكذبٍ وجَهل.

*** *** ***

وجزاءُ الشرك:

{ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} [غافر: ١٢].

أي: ذلكمُ العَذابُ الذي حقَّ عَليكم، لأنَّهُ إذا عُبِدَ اللهُ وَحدَهُ ودُعِيتُم إلى التَّوحيدِ جحَدتُم، وإذا أُشرِكَ بهِ غَيرُهُ ودُعيتُم إلى ذلك، كعِبادَةِ اللَّاتِ والعُزَّى، صدَقتُم واستَجَبتُم، فالقَضاءُ الحقُّ في أمرِكم هوَ للهِ العَليِّ الذي لا يَعلو عَليهِ شَيء، الكبيرِ الذي لا أكبرَ منهُ ولا أعظَم.

التوسيع والتقدير = البسط والقبض

الجحود واليقين

كذَّبَ فرعونُ وقومهُ بالأدلةِ والمعجزاتِ التي أيَّدَ الله بها موسى عليه السلام، وإن كانوا متيقنين أنها حقّ:

{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [سورة النمل: ١٤].

أي: كَذَّبوا بالآياتِ بألسِنَتِهم وظاهرِ أمرِهم، وعَلِموا في أنفُسِهم يَقينًا أنَّها مِن عندِ اللهِ وليسَتْ سِحرًا، فعَلُوا ذلكَ ظُلمًا مِن أنفُسِهمْ لكَونِهم مُشرِكين، وترَفُّعًا واستِكبارًا عنِ الإيمانِ بما جاءَ بهِ موسَى عليهِ السَّلام. فانظُرْ أيُّها الرَّسولُ كيفَ كانتْ نَتيجَةُ فِرعَونَ وقَومِهِ المفسِدينَ في الأرض.

الجنة وجهنم

هُناكَ فَريقانِ فَقَط في يومِ القيامة:

{فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [سورة الشورى: ٧].

أي: فَريقٌ كائنٌ في جنَّاتِ النَّعيم، وهمُ المؤمِنون، وآخَرونَ مُخَلَّدونَ في نارٍ تتَلظَّى، وهمُ الكافِرون.

*** *** ***

فلكلٍّ من الجنةِ والنارِ أصحابُها، كلٌّ بما قدَّم:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} [سورة النساء: ٥٦].

أي: إنَّ الذينَ كفَروا بآياتِنا، مِن شَواهدَ ومُعجِزاتٍ أيَّدنا بها رُسُلَنا، سوفَ نُدخِلُهم ناراً هائلةً عَظيمة، كلما احترَقَتْ جُلودُهم فيها بَدَّلناها جُلوداً جَديدةً ليَزدادَ إحساسُهم بالعَذاب، وليَدومَ ولا يَنقَطِع، واللهُ عزيزٌ لا يَمتَنِعُ عليهِ ما يُريد، ولا يَقدِرُ أنْ يَمنَعَهُ مِن ذلكَ أحَد، حَكيمٌ في تَدبيرِهِ وتَقديرِهِ وتَعذيبِ مَن يُعَذِّبُه.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} [سورة النساء: ٥٧]:

والذينَ آمَنوا بآياتِنا، وأتْبَعوا إيمانَهم بالأعمالِ الصَّالحةِ والطَّاعاتِ المقبولَة، سنُدخِلُهم جنّاتٍ كبيرةً وارِفةَ الظِّلال، تَجري مِن تحتِها الأنهار، معَ خلودٍ دائمٍ فيها، ولهم فيها أزواجٌ مُطَهَّراتٌ منَ الحيضِ والنفاسِ والأذَى والقذر، ونُدخِلُهم ظِلاً طيّباً كثيراً لا تَنسَخُهُ الشَّمس، فهوَ دائمُ الفَيء، لا حَرَّ فيهِ ولا قَرّ.

*** *** ***

مقارنةٌ بين من يدخلُ الجنةَ ومن يدخلُ النار:

{وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [سورة الزمر: ٧١]:

وسِيقَ الكافِرونَ المجرِمونَ إلى جهنَّمَ أفوَاجًا، بزَجرٍ وعُنفٍ وإهانَة، حتَّى إذا وصَلوا إليها فُتِحَتْ أبوابُها سَريعًا ليَدخُلوها، وقالَ لهم خزَنَتُها مِنَ الملائكةِ الزَّبانيَةِ تَوبيخًا وتَقريعًا لهم: ألم يَأتِكُم رسُلٌ مِن جِنسِكم تَفهَمونَ منهم ما يَقولون، وهم يَقرَؤونَ عليكم آياتِ اللهِ المنزَلَة، لِما فيهِ خَيرُكم وصَلاحُكم، ويُحَذِّرونَكم مِنَ الحِسابِ والجَزاء، ويُخَوِّفونَكم مِنَ النَّارِ المعَدَّةِ للكافِرين؟

قالَ الكافِرون: بلَى قد جاءَتْنا رسُلُنا، ولكنَّنا كذَّبْنا وخالَفنا، وآثَرْنا الهوَى والضَّلال، ووَجبَ عَلينا حُكمُ اللهِ بالعَذابِ الذي نَستَحِقُّه.

{قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [سورة الزمر: ٧٢]:

فقِيلَ لهم: ادخُلوا جهنَّمَ مِن أبوابِها المقسُومَةِ لكم، لتَمكثُوا فيها أبَدًا، فبئسَ مَأوَى المتَكبِّرين، الذينَ دُعُوا إلى الحقِّ في الدُّنيا فاستَكبَروا عن قَبولِه، وعنِ اتِّباعِ رسُلِ رَبِّهم، وأصَرُّوا على ذلكَ حتَّى ماتُوا عَليه.

{وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [سورة الزمر: ٧٣]:

وسِيقَ المؤمِنونَ المتَّقونَ إلى الجنَّةِ جَماعَةً بعدَ جَماعَة، بحسَبِ طَبقاتِهم في الفَضل، حتَّى إذا وصَلوا إليها وفُتِحَتْ أبوابُها، حيَّاهُمْ خَزنَتُها قائلين: سَلامٌ عَليكم: أنتُم في أمَانٍ مِن كُلِّ مَكروه، طابَتْ أعمالُكم، فطِبتُم نَفسًا، وطابَ لكمُ المقام، فادخُلوا الجنَّةَ ماكثينَ فيها أبَدًا، لا مَوتَ فيها، ولا تَحوُّلَ عَنها.

{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [سورة الزمر: ٧٤]:

وقالَ أهلُ الجنَّةِ حامِدينَ شَاكِرين: الحَمدُ للهِ والثَّناءُ عَليهِ بما هوَ أهلُه، الذي صدَقَ فيما وعدَنا بهِ مِنَ الثَّوابِ على ألسِنَةِ رسُلِه، وأعطانا أرْضَ الجنَّة، نَنزِلُ فيما أعطانا رَبُّنا مِنَ الجنَّةِ الواسِعَةِ حيثُ نَشاء، فأنعِمْ بهذا الأجرِ الجَزيل لأهلِها.

*** *** ***

فلا يستوي أهلُ الجنةِ وأهلُ النار:

{لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة الحشر: ٢٠].

أي: لا يتَساوَى أهلُ النَّارِ مِنَ الكافِرين، وأهلُ الجَنَّةِ مِنَ المؤمِنين، فالكافِرونَ يَفعَلونَ الشرّ، ويَرتَكبونَ المعَاصي والذُّنوب، ويتعاوَنونَ على الإثمِ والعُدوان، ويَظلِمون، ويُفسِدون. والمؤمِنونَ يَفعَلونَ الخَير، ويُطيعونَ اللهَ فيما أمرَهم، ويتعاوَنونَ على البرِّ والتَّقوَى، ويَنشُرونَ العَدل، ويَدعُونَ إلى الحقّ؛ فهمُ النَّاجونَ مِنَ النَّار، الفائزونَ برِضَى اللهِ وجنَّتِه. أمَّا الكافِرون، فعَليهم غضَبُ الله، ويَحِلُّ بهم عَذابُهُ يَومَ الحِساب.

الجهاد وما دونه

قالَ الله تعالى في موازنةٍ بين الإيمانِ والجهادِ وبين أعمالٍ أخرى دونهما:

{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [سورة التوبة: ١٩].

أي: أجعلتُم أيُّها الناسُ سِقايةَ الحُجّاجِ وخِدمةَ المسجدِ الحرام، كإيمانِ مَن آمنَ باللهِ وباليَومِ الآخِر، وجِهادِ مَن جاهدَ في سَبيلِ الله؟ ليسُوا سَواء، فالآخِرُ خَيرٌ وأحسَن، معَ فَضلٍ في الأوَّلِ لا يُنْكَر. واللهُ سُبحانَهُ لا يَهدي مَنِ انهمَكَ في الضَّلال، وأصرَّ على الخطأ.

وقد كانَ حديثٌ بينَ بعضِ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم حولَ ذلك، فنزَلتِ الآيةُ وبيَّنتْ أنَّ الجهادَ أفضل، كما في صَحيحِ مُسلِم.

{الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة التوبة: ٢٠].

أي: إنَّ الذينَ آمَنوا باللهِ ولم يُشرِكوا بهِ شَيئاً، وأنفَقوا أموالَهم لنُصرةِ دِينِه، وبَذَلوا مُهَجَهم جِهاداً في سَبيلِه، هم أكبرُ درَجة، وأرفَعُ شأناً عندَ اللهِ منَ الذينَ افتخَروا بما دونَ ذلك، وآثَروا السِّقايةَ والعِمارةَ في المسجدِ الحرام، وأولئكَ المؤمنونَ والمجاهِدونَ هم الذينَ حَازوا الخيرَ والدرَجاتِ العُليا.

{يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ} [سورة التوبة: ٢١]:

ولهؤلاءِ مِيزَةٌ كُبرى، فإنَّ ربَّهُم يُبشِّرهم في يَومِ الفَزَعِ الأكبرِ بالرَّحمةِ والأمن، والرِّضَى والعَافية، وجنَّاتٍ عاليةٍ فيها النَّعيمُ الدائم، من كلِّ ما تَشتهيهِ الأنفسُ وتَلَذُّ الأعيُن.

*** *** ***

وقالَ اللهُ تعالى في موازنةٍ أخرى:

{قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [سورة التوبة: ٢٤].

أي: قُلْ أيُّها النبيُّ لأصحابِك، وخاصَّةً مَن أسلمَ ولم يُهاجِرْ تمسُّكاً بأهلهِ ومالِه: إذا كانَ آباؤكم، وأبناؤكم، وإخوانُكم، وأزواجُكم، وذَوُو قَرابتِكم مِن عَشيرتِكم، وأموالٌ حصَّلتُموها، وأمتعةٌ وعُروضٌ اشترَيتُموها للتِّجارة، تَخافونَ فَواتَ ربحِها بفَواتِ وقتِ رَواجِها، وقُصورٌ ومنازلُ تَستطيبونَها وتُحبُّونَ الإقامةَ فيها، إذا كانَ هذا كلُّهُ أحبَّ إليكم ممّا أمرَكمُ اللهُ بهِ ورَسولُه، ومنَ الجهادِ في سَبيلِ دِينهِ وإعلاءِ كلمتِه، فانتَظِروا حتَّى يأتيَ اللهُ بعُقوبتهِ ويَنْكُلَ بِكم، واللهُ لا يوفِّقُ مَن خَرجَ عن طاعتِه، ووالَى المشرِكين، وقدَّمَ هواهُ على دينِه.

الجهر والإسرار

قالَ سبحانهُ وتعالى لرسولهِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم:

(وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً) [سورة الإسراء: ١١٠].

أي: لا تَرفَعْ صَوتَكَ بالقُرآنِ في الصَّلاة، ولا تَخفِضْهُ بحَيثُ لا يُسمَع، وليَكنْ بينَ الجَهرِ والمخافَتَة.

روَى الشَّيخانِ وغَيرُهما – واللَّفظُ لمسلمٍ – عنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عَنهما في هذهِ الآية، قال: نزَلَتْ ورَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُتوارٍ في مَكَّة، فكانَ إذا صَلَّى بأصحابِه رفَعَ صَوتَهُ بالقُرآن، فإذا سَمِعَ ذلكَ المشرِكونَ سَبُّوا القُرآنَ ومَن أنزلَهُ ومَن جاءَ به، فقالَ اللهُ تعالَى لنبيِّه:

{وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ} فيسمعَ المشركونَ قِراءَتك، {وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا} عنْ أصحابِك، أسمِعهمُ القُرآنَ ولا تَجهَرْ ذلكَ الجَهر، {وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً}، يَقول: بينَ الجَهرِ والمخافتَة.

الجود والبخل

والله تعالى كريم، لا تَنفَدُ خزائنه، وكذبَ اليهودُ بما قالوا.

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً} [سورة المائدة: ٦٤]:

قالتِ اليَهود: إنَّ يدَ اللهِ بَخيلة – تعالَى اللهُ عنْ ذلك –. بَخِلَتْ نفوسُهم وأمسَكتْ أيديهم عن فعلِ الخيرات، فهمُ المعرُوفونَ بالبُخلِ والحسَدِ والجُبْن، والذلَّةِ والصَّغار، ولعنَهمُ اللهُ وطردَهم مِن رحمتِهِ بما تَلفَّظوهُ مِن كلامٍ في جانبِ اللهِ خالقِهم العَظيم، ورازقِهم ورازقِ الأحياءِ في الكونِ كلِّه، فيَداهُ مَبسوطتانِ بالعَطاء، فهوَ ذو فَضلٍ عَميمٍ وعَطاءٍ جَزيل، لا تَنفَدُ خزائنُه، يُنفِقُ كما يَشاء، مِن توسيعٍ على عبادٍ له، أو تَضييقٍ في الرزقِ على آخَرينَ منهم، وما قالوهُ هنا هوَ مِن كفرِياتِهم، وسوفَ يَزيدونَ عليها ويَتمادَونَ فيها، فيَكفرونَ بآياتٍ أخرَى تَنزِلُ عليك، فيزدادونَ بذلكَ تَكذيباً وكُفراً على كفرِهم.

الحبُّ والكره

اللهُ يحبّبُ الإيمانَ إلى عبادِهِ المؤمنين، ويبغّضُ إليهم الكفر..

{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات: ٧].

أي: اعلَموا أنَّ بينَكم رَسُولَ الله، فأطيعُوه، فإنَّهُ أدرَى بمَصالحِكم منكم، ولو أنَّهُ أطاعَكم في جَميعِ ما تَقولونَهُ وتَطلُبونَه، وأخذَ برأيكم فيه، لوقَعتُم في الحرَجِ والهَلاك، ولكنَّ اللهَ حبَّبَ إلى نُفوسِكمُ الإيمَانَ وحسَّنَهُ في قُلوبِكم، فسَهُلَتْ عليكمُ الطَّاعَة، وبغَّضَ إلى نُفوسِكمُ الكُفرَ والذُّنوبَ والمعاصي، فكرِهتُموها، وأولئكَ همُ المهتَدون.

*** *** ***

ونظرةُ الإنسانِ إلى الحربِ غيرُ سديدة، فهو يكرهها، لقصرِ نظرٍ فيه، يقولُ الله تعالى مخاطبًا عبادَهُ المسلمين:

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: ٢١٦].

أي: فرَضَ اللهُ عليكمُ الجِهادَ وهو شاقٌّ عليكم، تَكرهُهُ النفوسُ وتَستَثقِلُه، ولكنْ رُبَّما كَرِهتُم شيئاً وفيهِ خيرٌ لكم، فإنَّ نتيجتَهُ – إنْ شاءَ اللهُ – النصرُ على الأعداءِ وفتحُ بلادِ الكفرِ ورفعُ رايةِ الإسلام، أو الشهادةُ التي يَدخلُ بها المرءُ الجنَّة. وعسَى أنْ تحبُّوا شَيئاً وفيهِ شرٌّ لكم، فإنَّ القُعودَ عنِ الجهادِ والركونَ إلى الكسلِ والرفاهيةِ يُعطي نتيجةً عَكسيَّة، فيَستولي الأعداءُ على البلاد، ويَنهزمُ المسلِمون، ويَتحكَّمُ الكفّارُ في شؤونِهم.

فالجهادُ سَببٌ لحصولِ النصرِ والأمن.

واللهُ أعلمُ منكم بمآلِ الأمور، وأخبَرُ بما فيهِ صلاحُكم في دنياكم وآخِرتِكم، فالتزِموا جانبَ الجهادِ والقوَّة. وقد قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كما في صحيحِ مسلم: "مَنْ ماتَ ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّثْ بهِ نفسَهُ، ماتَ على شُعبةٍ مِنْ نِفاق".

*** *** ***

وهذه صورةٌ من صورِ النفاق، عندما يحسِّنُ المنافقُ كلامهُ ويبدي طاعة، وحقيقتهُ العداوةُ والفجورُ والإفسادُ في الأرض. يقولُ سبحانهُ وتعالى:

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ} [سورة البقرة: ٢٠٤].

أي: هناكَ منَ الناسِ منافِقون، يقولُ لكَ أحدُهم كلاماً جميلاً في ظاهره، يُنْبِئُ عن مَحبَّةٍ وطَاعة، ويَحلِفُ أنَّهُ صادقٌ في إيمانهِ ومَوقفه، وهوَ في الحقيقةِ مِن أشدِّ الخُصَماءِ لكَ وللدِّين، فهوَ يَكذِبُ

ويَفْجُر، ولا يوافقُ باطِنُهُ ظاهرَه، وما كلامهُ هذا سِوَى تمويهٍ وسِترٍ يُخفيه، خشيةَ أنْ ينالَهُ سيفُ الإسلام، أو أنَّهُ يتحيَّنُ الفُرصةَ ليؤذيَ المسلِمين.

{وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ} [سورة البقرة: ٢٠٥].

أي: إذا مضَى أحَدُ هؤلاءِ المنافِقينَ الكذّابينَ عَمَدَ إلى بَثِّ الفسادِ وزرعِ الشرِّ والإضرارِ بكلِّ ما هوَ حيّ، قاصداً إهلاكَ الأحياءِ وتخريبَ الزُّروعِ والثِّمارِ والبيئةِ ونشرَ الخَرابِ والدَّمار، فلا مبادئَساميةٌ عندَه، ولا خوفَ لديهِ منَ الحِساب، حيثُ لا يؤمِنُ به، بل شأنهُ الغَدرُ والشرُّ والفَساد، واللهُ يَبغُضُ الفسادَ في الأرض، ولا يُحِبُّ مَن اتَّصفَ به، ولا تَخفَى عليهِ سرائرُ النَّاس، فلا تَغُرَّنَّكم المظاهرُ والكلِماتُ المعسولة.

الحبُّ ودرجاته

ومن مفارقاتِ القرآنِ وموازناتهِ بين حبِّ الكافرينَ لأصنامِهم وحبِّ المؤمنين لربِّهم، قولهُ تعالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} [سورة البقرة: ١٦٥].

أي: على الرغمِ منَ الدلالاتِ السابقةِ على وحدانيَّةِ اللهِ وتفرُّدِهِ بالخَلقِ والتدبير، إلاّ أنَّ هناكَ صِنفاً منَ الناسِ أشرَكوا بالله، وعبَدوا معَهُ نُظَراءَ وأمثالاً، على هوَى أنفسِهم وما تُسَوِّلُ لهُمُ الشياطين، في تقليدٍ جاهلٍ أو حُمْقٍ فاضِح، كعبادةِ أحجارٍ وأشجار، أو نجومٍ وكواكب، ويُدافِعونَ عنها ويُحاربونَ عليها، ويحبُّونَها كمَحبَّتِهم الله! وهوَ الواحدُ الأحد، الذي لم يتَّخذْ صاحبةً ولا ولداً، ولا مثيلَ لهُ ولا نَظير.

أمّا المؤمنون، فإنَّهم يَعبدونَ اللهَ على نُورٍ من ربِّهم وبُرهان، ويُحبُّونَهُ حُبًّا خالِصاً لا شائبةَ فيه، وهم أكثرُ حبًّا لهُ من حبِّهم أنفسَهم وما يملكون؛ لتَمامِ معرفتِهم به، وتوحيدِهم وتعظيمِهم له، ولجوئهم إليهِ وحُسنِ توكُّلِهم عليه.

ولو عاينَ المشركونَ ومَن تابعَهم ما أُعِدَّ لهم منَ العَذابِ يومَ القيامة، لعَلِموا أنَّ جميعَ الأشياءِ تحتَ قَهرِهِ وسُلطانه، وأنَّ القوَّةَ والتصرُّفَ لهُ وحدَه، وأنَّ عذابَهُ شَديدٌ مؤلِم، وإذاً لانتَهَوا عمّا هم فيهِ مِن ضَلال.

الحجاب والتبرج

قالَ الله تعالَى في لباسِ العجائز:

{وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة النور: ٦٠].

أي أنَّ النِّساءَ العَجائزَ اللَّواتي لا يُرِدْنَ الرِّجال، ولا يَتشَوَّفْنَ إلى الزَّواج، لكِبَرِ سنِّهنّ، فلا حرَجَ عَليهنَّ أنْ يَخلَعْنَ ثيابَهُنَّ الظَّاهِرَةَ أمامَ الرِّجال، كالجِلبابِ والقِناعِ الذي فَوقَ الخِمار، وهُنَّ لا يَقصِدْنَ إبرازَ جمَالٍ أو إظهارَ زِينَةٍ عَليهنّ، وإذا تَرَكْنَ ذلكَ واحتَشَمْنَ فهوَ أفضَلُ لهنّ، فهوَ أبعَدُ عنِ التُّهمَة، وأدفَعُ لكلامِ السُّفَهاءِ عَنهنّ. واللهُ سَميعٌ بما يَجري في مجالسِ الرِّجالِ والنِّساء، عَليمٌ بمقاصِدِهم مِن ذلك.

حرٌّ وأشدُّ حرًّا

موازنةٌ بين حرِّ الدنيا وحرِّ الآخرة:

{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} [سورة التوبة: ٨١].

أي: لقد فَرِحَ الذينَ تَخلَّفوا عنِ الجِهادِ في غَزوةِ تَبوكَ بقُعودِهم بعدَ خروجِ النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم، وكَرِهوا أنْ يَبذُلوا أموالَهم وأنفسَهم في سَبيلِ الله، إيثاراً للرَّاحةِ والكسَل، وطَلَباً للتنعُّمِ والتلذُّذ، وقالَ بَعضُهم لبَعض، تواصياً فيما بينَهم بالباطل، وتثبيتاً لهم على القُعودِ عنِ الغَزو: لا تَخرُجوا في الحرِّ فإنَّهُ لا يُطاق. قُلْ لهم أيُّها النبيّ: إنَّ نارَ جهنَّمَ التي تَصيرونَ إليها بسبَبِ

مُخالفتِكم، هيَ أشدُّ حرًّا مِنْ هذا الحَرِّ الذي ترَونَهُ مانعاً لكم منَ الخُروج، هذا لو كانوا يَعلمونَ أهوالَ جهنَّمَ وشدَّةَ حَرِّها، وفكَّروا بمصيرِهمْ حقًّا.

{فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [سورة التوبة: ٨٢]:

فلْيَتَنعَّموا ولْيَفرَحوا في هذهِ الدُّنيا، ولْيَضحَكوا ما شاؤوا في مدَّتِها القَصيرة، ولْيَذوقوا النارَ والهَوانَ في الدَّارِ الآخِرَة، ولْيَبكوا فيها بُكاءً دائماً لا يَنقَطِع، جزاءَ أعمالِهِمُ السيِّئة، ومَعاصِيهمُ المتكرِّرة، وإصرارِهم على مُخالفةِ أوامرِ اللهِ سُبحانه.

الحرارة والبرودة
(الحرّ والظلّ)

لا يستوي الظلُّ والحَرّ، كما قالَ اللهُ تعالَى:

{وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ} [سورة فاطر: ٢١].

أي: كما لا يَستَوي الظِّلُّ والحَرّ، كذلكَ لا يَستَوي الثَّوابُ والعِقاب، والجَنَّةُ والنَّار.

*** *** ***

وجزَى الله المحسنينَ جنةً عاليةً معتدلةَ الحرارة:

{مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً} [سورة الإنسان: ١٣].

أي: مُتَّكئينَ فيها على الأسِرَّة، لا يَجِدونَ فيها حَرًّا مُزعِجًا، ولا بَردًا مُؤذيًا، بلْ هيَ مُعتَدِلَة، تَبعَثُ على الرَّاحَةِ والهَناء.

الحركة والسكون

الأرضُ تبدو هادئة، فإذا نزلَ المطرُ تحركت!

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة فصلت: ٣٩].

أي: ومِن حُجَجِ اللهِ أيضًا، وأدلَّتِهِ على قدرتِهِ على بَعثِ الموتَى بعدَ تَفتُّتِ أجسادِهم، وإعادتِها لهيئتها، أنَّكَ تَرَى الأرْضَ يابِسَةً قاحِلَةً لا نَباتَ فيها ولا شَجَر، فإذا أنزَلنا المطَرَ وسَقَيناها به، تحرَّكَ نَباتُها وانبعَثَ فيها الحيَاة، وانتفَخَتْ وارتَفعَت، وصارَ كُلُّ شَيءٍ فيها يُوحي بالحرَكةِ والحياة. إنَّ الذي أحيا هذهِ الأرْضَ بعدَ قَحلِها وخُمودِها، قادِرٌ على إحياءِ الموتَى مِن قُبورِهم، وإنَّهُ قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ يُريدُه، لا يُعجِزُهُ شَيء.

*** *** ***

وقالَ الله تعالى في شأنِ الجبالِ:

{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} [سورة النمل: ٨٨].

أي: ترَى الجِبالَ يَومَ القيامةِ كأنَّها ثابِتَةٌ باقِيَةٌ على ما كانتْ عَليه، والحَقُّ أنَّها زائلَةٌ عَن أماكِنِها، وتَسيرُ كسَيرِ السَّحاب، حتَّى تقعَ على الأرضِ فتَستَويَ بها. وهذا مِن صُنعِ اللهِ الذي أجادَ وأحكمَ كُلَّ ما خلَق، واللهُ عَليمٌ بأفعالِ عِبادِه، ظواهِرِها وبَواطِنِها، خَيرِها وشَرِّها، وسيُجازيهِمْ على ذلكَ كُلِّه.

وذهبَ مُفَسِّرونَ إلى أنَّ المقصودَ بالحَديثِ في الجِبالِ هُنا ما يَجري لها في الدُّنيا. ويَقولُ المفَكِّرُ الإسلاميُّ زَغلولُ النجَّارُ في مَوقعِه: الجِبالُ ليستْ كُتَلاً هامِدَة، ولكنَّها تتحرَّكُ جانبيًّا بالتضاغُطِ والتشَنِّي والطَّيّ، كما تَتحرَّكُ رأسيًّا بالتصَدُّعِ والرَّفعِ مِن أسفَلَ إلى أعلَى بواسِطَةِ مُختَلِفِ قُوَى الأرضِ الداخليَّة، وبفِعلِ عَوامِلِ التَّعريَة...

ثمَّ يَقول: والجِبالُ تَمُرُّ معَ الأرضِ مرَّ السَّحاب، وتَترَنَّحُ معَها في دوَرانِها حَولَ مِحوَرِها، وتَجري معَها في مَدارِها حولَ الشَّمس، ولعلَّ هذهِ الحركاتِ هيَ صورَةٌ من صُوَرِ الخُضوعِ للهِ الخالِقِ سُبحانَهُ وتعالَى، بالعِبادَة، والطَّاعَة، والتَّسبيحِ والذِّكْر، والسُّجود.

الحسنة والسيئة

(الحسن والسيِّئ)

الشفاعةُ في الأمرِ الحسنِ أو السيِّئ:

قالَ الله تعالى: {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا} [سورة النساء: ٨٥].

أي: مَن يَسْعَ في أمرٍ يَترتَّبُ عليهِ خَيرٌ يكُنْ لهُ حَظٌّ وافرٌ مِنَ ثَوابِه، ومَن يَسْعَ في أمرٍ يَترتَّبُ عليهِ شرٌّ وإثمٌ يَكنْ عليهِ نَصيبٌ منَ الوِزْر، وكانَ اللهُ على كلِّ شيءٍ حافِظاً وشَهيداً.

*** *** ***

والحسنةُ بعشرِ أمثالها...

{مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [سورة الأنعام: ١٦٠].

أي: مَن جاءَ مِنَ المؤمِنينَ بخَصلةٍ واحدةٍ مِن خِصالِ الطَّاعة، فلهُ عشرُ حسَناتٍ أمثالَها، فضلاً وتكرُّماً منَ اللهِ تعالَى. ومَن جاءَ بسيِّئةٍ واحدة، منَ المؤمِنينَ أو من غَيرِهم، فلا يُجزَى إلاّ بتلكَ الواحِدَة، عَدلاً منهُ سُبحانَه، وهم لا يُظلَمونَ بنقصِ الثَّوابِ وزيادةِ العِقاب.

*** *** ***

ولا تستوي الحسنةُ والسيئة:

{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [سورة فصلت: ٣٤].

أي: لا تَستَوي الحسَنَةُ والسَّيِّئة، ولا السَّيِّئةُ والحسَنَة، فلا يَستَوي العِلمُ والجَهل، ولا العَفو والإساءَة، ولا الغضَبُ والحِلم. وإذا أساءَ إليكَ أحَدٌ فادفَعْهُ عنكَ بالإحسَانِ إليه، فإذا فعَلتَ

ذلكَ خضعَ لكَ خَصمُك، وانقلَبَتِ الحالَةُ بينكَ وبينَهُ إلى سَكينَةٍ بعدَ هِياج، وإلى هُدوءٍ بعدَ ثوَران، وصارَ كأنَّهُ مِنَ الأصدِقاءِ المقرَّبينَ إليك، بعدَ أنْ كانَ شَديدَ العَداوَةِ لك.

*** *** ***

والحسنةُ تُذهبُ السيئة:

{إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [سورة هود: ١١٤].

أي: إنَّ فِعلَ الخَيرِ والعملَ الصالِحَ يُكَفِّرُ السيِّئاتِ ويُذهِبُ الذُّنوبَ السَّابِقة، والصَّلواتُ مِن أعظَمِ العِباداتِ والقُرُبات. وهذا مَوعِظةٌ لمنِ اتَّعَظ، وعِبرَةٌ لمنِ اعتَبَر.

*** *** ***

كما تبدَّلُ السيئاتُ حسنات، إذا تابَ العاصي من المنكرات. قالَ الله سبحانهُ وتعالَى بعدَ ذكرِ معاصيَ وعقوبتها:

{إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} [سورة الفرقان: ٧٠].

أي: لا يُعاقَبُ مَن تابَ مِن تلكَ المنكراتِ في الدُّنيا، وآمنَ إيمانًا صَحيحًا، وعمِلَ أعمالاً حسَنة، فأولئكَ يَمحو اللهُ سَيِّئاتِهم ومَعاصيهم، ويُعطَونَ بدَلاً منها الثَّوابَ الحسَن، تفَضُّلاً وتَكرُّمًا منهُ سُبحانَه.

أو أنَّ المعنَى: أبدَلَهُمُ اللهُ بالعمَلِ السيِّءِ العملَ الصَّالِح، وأبدَلَهم بالشِّركِ إخلاصًا، وبالفُجورِ إحصانًا، وبالكُفرِ إسلامًا.

واللهُ يَغفِرُ ذُنوبَ عِبادِهِ التائبينَ ويَرحَمُهم، فيُدخِلُهم الجنَّةَ إذا آمَنوا وعَمِلوا صالِحًا.

*** *** ***

والحسنةُ والسيئةُ تأتي بمعان، من ذلك الأمرُ الحسنُ والمكروه، كما في قولهِ تعالى:
{إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران:١٢٠]
أي: ممّا يَبدو مِن عَداوةِ المنافِقينَ لكم، أنَّ اللهَ إذا مَنَّ عليكم برزقٍ أو نَصرٍ أو فَتح، أصابَهُمُ الهَمُّ والغَمّ، وإذا أصابَكم مَكروهٌ كقَحطٍ أو هَزيمة، فَرِحُوا واستَبشَروا، فلا يُحزِنَنَّكمْ هذا، واتَّقوا شرَّهم بالتحلّي بالصَّبر، والدوامِ على طاعةِ الله، وحُسنِ التوكُّلِ عليه، ولن يَضُرَّكم شيءٌ مِن مكرِهم إذا كنتُمْ كذلك، فاللهُ مُحيطٌ بهم، عليمٌ بما يَصنَعون، ولن يَقَعَ شيءٌ في الوجودِ إلا بتقديرِهِ ومَشيئتِه.

ويقولُ عزَّ وجلّ:
{وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ القَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [سورة النساء: ٧٨].
أي: إذا بُسِطَ لهمُ الرِّزقُ وجاءَتهمُ الثِّمارُ والزُّروع، والنَّعيمُ والرَّخاء، قالوا: هذا مِن عندِ الله، وإذا أُصِيبوا ببَليَّة، مِن جَدْبٍ وغَلاءٍ، ونَقصٍ في الثِّمار، أو مَوتِ أولادٍ أو غَيرِ ذلك، قالوا للرسُولِ صلى الله عليه وسلم: هذا جاءَنا مِن قِبَلك، لأنَّنا اتَّبعناكَ واقتدَينا بدينِك! وكما قال سبحانَهُ في مثلِ ذلك: {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ} [سورة الأعراف: ١٣١]. وهكذا كانَ المنافِقون، إذا أصابَهم الشرُّ أسنَدوهُ إلى اتِّباعِهم النبيَّ صلى الله عليه وسلم.
قلْ لهمْ أيُّها الرسُول: كلٌّ مِن عندِ الله، فالحسَنةُ والسيِّئة بقضاءِ اللهِ وقدَره، والنِّعمَةُ والبَليَّةُ مِن عندِه، وقَضاؤهُ ماضٍ في البَرِّ والفاجِر، ونافِذٌ في المؤمنِ والكافر، فما لهؤلاءِ القَومِ مِنَ اليهودِ والمنافِقينَ قدِ ابتُلوا بقلَّةِ الفَهمِ والعِلم، وكثرةِ الجَهلِ والظُّلم، ولا يَكادونَ يَفهَمونَ كلاماً يُوعَظونَ به؟!
{مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا} [سورة النساء: ٧٩].

أي: ما أصابكَ أيُّها الإنسانُ مِن نِعمَةٍ ورَخاءٍ فهو مِن فضلِ اللهِ عَليكَ ولُطفهِ وإحسانِه، وما تَقومُ بهِ مِن عِبادةٍ وطاعةٍ لا تَكادُ تُكافِئُ نِعمةَ وجودِك، فضلاً عنِ النِّعمِ الأخرَى عليك. وما أصابَكَ مِن مُصيبةٍ فقد جاءَتْكَ مِن قِبَلك، مِن عملِكَ وما اقترفتَهُ من مَعاصٍ ومُنكرات، وإنْ كانت مِن حيثُ الإيجادُ مُنتَسِبةً إلى اللهِ تعالى، نازلةً مِن عندهِ عُقوبة، وهذا كقولهِ سبحانه: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [سورة الشورى:٣٠].

وقد بعثناكَ للناسِ رسُولاً، تبلِّغُهم شَرائعَ الله، وتُبيِّنُ لهم أحكامَه.

وقريبٌ من هذا قولهُ تعالى:

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} [سورة الأعراف: ٩٤].

أي: ما أرسَلنا نبيًّا في بلدٍ مِنَ البُلدانِ المهلَكة، يدعو إلى دينِ اللهِ وينهاهُم عنِ الشرِّ والمنكرِ الذي هم فيه، فيُكذِّبونَه، إلاّ ابتَليناهم – قبلَ الإهلاكِ – بالفَقرِ والحاجة، والسَّقَمِ والمرَض، لعلَّ نفوسَهم تَخضَعُ وتَلين، ليَلتجِؤوا إلى الله، ويَستَجيبوا لأمرِه، ويَتوبوا منْ ذنوبِهم، فيَكشِفَ ما نَزلَ بهم.

{ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [سورة الأعراف: ٩٥]:

ولكنَّهم لم يتأدَّبوا بالشدَّة، ولم يَنزَجِروا بالترهيبِ والوَعيد، فبدَّلنا حالَهم منَ البؤسِ والشدَّةِ إلى الرَّخاءِ والنَّعِيم، حتَّى كَثُرَ عَددُهم ونَمَتْ أموالُهم؛ ليَشكروا اللهَ على ذلك، ولكنَّهم لم يَفعلوا، ولم يَعُدُّوا ذلكَ كلَّهُ ابتلاءً واختبارًا، بل قالوا: هذا شَيءٌ طَبيعيٌّ يُصيبُ النَّاسَ في كلِّ وقت، وقد سبقَ لآبائنا أنْ أصابَهُمُ البلاءُ والشدَّة، كما نَعِموا في عيشِهم واستَمتَعوا، ونحنُ مثلُهم ومثلُ غيرِهم مِنَ الناس. فأخذَهمُ اللهُ بالعُقوبةِ وهم في غَفلة، وما كانَ يَخطُرُ ببالِهم شَيءٌ مِن ذلك.

وملخصهُ في قولهِ سبحانه، عند الحديثِ عن اليهود:

{وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة الأعراف: ١٦٨].

أي: بَلوناهم واختَبرناهم بالخِصبِ والعافيَة، وبالجَدْبِ والشدَّة، لكي يَرجِعوا إلى طاعةِ ربِّهم ويَنتَهوا عمّا نُهوا عنه.

*** *** ***

والحسنةُ بمعنى الهداية، والسيئةُ بمعنى العقوبة:

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة الرعد: ٦].

أي: هؤلاءِ الكافِرونَ المكذِّبونَ يَستَعجِلونكَ لتأتيَهم بالعُقوبةِ قبلَ أنْ يَسألوا الهِدايةَ والرَّحمَة، والعَافيةَ والسَّلامة، وقد سبقَتْ مِن قبلِهمُ العُقوباتُ للأُممِ الغابِرةِ التي كذَّبتْ أنبياءَها، وتُرِكوا مُثْلَةً ليَعتَبِرَ بهم مَن بَعدَهم، ولكنَّ الكافِرينَ غافِلونَ لا يَعتَبِرون.

وإنَّ اللهَ كثيرُ المغفِرَةِ لذُنوبِ عِبادِه، معَ كونِهم يَظلِمونَ أنفُسَهم باستِمرار، بارتِكابِ الذُّنوبِ والمعَاصي، وهو شَديدُ العِقابِ لمن أصرَّ ولم يُبالِ بعُقوبةِ اللهِ ولم يَعتَبِرْ بما يُصيبُ الآخَرين.

وكما حدثَ لقومِ صالحٍ عليه السلام:

{قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [سورة النمل: ٤٦].

أي: قالَ صالِحٌ عَليهِ السَّلامُ للفَريقِ الكافِر، بعدَما رأى عُتوَّهم ومُكابرَتَهم عنِ اتِّباعِ الحَق، وطلَبَهم إنزالَ العَذابِ بهم إنْ كانَ ما يَقولُهُ حَقًّا، قال: يا قَوم، لماذا تَستَعجِلونَ العُقوبَةَ التي فيها شَرٌّ لكم، قَبلَ التَّوبَةِ وطلَبِ الرَّحمَةِ مِنَ الله، التي لكم فيها خَيرٌ وفلاح، فهلاّ طلَبتُم مَغفِرتَهُ قبلَ عَذابِه، فإنَّ طلبَ الخَيرِ أفضَلُ مِن طلبِ الشَّرّ، ولعلَّهُ يَقبَلُهُ منكم فيَرحمُكم؟

*** *** ***

والحسنةُ بمعنى العَفو، والسيئةُ بمعنى الأذَى:

{أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [سورة القصص: ٥٤].

أي: أولئكَ المؤمِنونَ من أهلِ الكِتابِ يُعطَونَ ثَوابَهم مرَّتين، لإيمانِهم بكتابِهِمْ أوَّلاً، ثمَّ لإيمانِهم بالقُرآنِ الكريم؛ وذلكَ لصَبرِهم وثَباتِهم على الحقّ. وهم يَدفَعونَ الأذَى بالعَفوِ والمغفِرَة، ويُنفِقونَ ممَّا رزَقناهُم مِنَ الحَلالِ في طاعَةِ الله.

*** *** ***

وقد يبدو للمغرورِ أن ما يقومُ به من عملٍ سيئٍ هو حس!

{أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ}[سورة فاطر:٨]

تفسيرها: أفمَن حسَّنَ الشَّيطانُ لهُ عمَلَهُ السيِّئَ، حتَّى بَدا لهُ أنَّ ما يَقومُ بهِ مِن أعمالٍ هيَ جَيِّدَةٌ وصَحيحَة، أفتَحزَنُ عَليهِ وتَتألَّمُ لحالِه؟ فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ مِنَ النَّاس، ويَهدِي مَنْ يَشاءُ منهم، فهوَ المطَّلِعُ على قُلوبِهِمْ والعالِمُ بما يَميلونَ إليه، وما يَستَعِدُّونَ لهُ ويَعزِمونَ عليه..

*** *** ***

وخطابٌ لبني إسرائيلَ إن أحسنوا أو أساؤوا:

{إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} [سورة الإسراء: ٧].

أي: إنَّ ثَمرَةَ صَلاحِكم وطاعَتِكم تَعودُ بالخَيرِ والنَّفعِ عَليكم، فإنَّكم إذا أحسَنتُم في أنفُسِكم وأعمالِكم، صَلَحَتْ أحوالُكم، وأعقبَكم ذلكَ نَصرًا وعِزًّا، وإذا انحَرَفتُم وأفسَدتُم كانتْ عاقِبَةُ ذلكَ شرًّا وفَسادًا، وخَرابًا وهَلاكًا.

*** *** ***

وجزاءُ الحسنةِ والسيئةِ يومَ القيامة:

{مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} [سورة النمل: ٨٩].

أي: مَن أطاعَ اللهَ وعَمِلَ صالِحًا فيُجازَى خَيرًا يَومَ القِيامَة، ويُعطَى أفضَلَ مِن حسَنَتِهِ تلك، وهم آمِنونَ سالِمونَ مِن خَوفِ ذلكَ اليَومِ العَصِيب.

{وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة النمل: ٩٠].

أي: ومَن أتَى اللهَ في ذلكَ اليَومِ مُشرِكًا، مُسيئًا لم يُحسِنْ في شَيء، أُلقُوا في النَّارِ على وجُوهِهم مَنكوسِين. هل تُحاسَبونَ وتُجزَونَ إلا على ما كنتُم تَعمَلونَ مِن أعمال؟

*** *** ***

ويجازي اللهُ الذين آمنوا وصدَّقوا الرسلَ بأحسنِ ما عملوا، ويغفرُ لهم أسوأَ ما عملوا:

{لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الزمر: ٣٥].

أي: ليَغفِرَ اللهُ لهم أسوَأَ ما عَمِلوا مِن ذُنوب، ويُثيبَهم على أعمالهمُ الحسَنةِ أحسَنَ الثَّوابِ وأجزلَه.

*** *** ***

فلا مساواةَ بين الصالحين والمسيئين، لا في الدنيا، ولا في الآخرة:

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [سورة الجاثية: ٢١:

بلْ ظَنَّ الذينَ اكتسَبوا السيِّئاتِ أنْ نَجعَلَهم كالذينَ آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الحسنَة، في حَياتِهم ومَماتِهم، بئسَ ما يَقضُونَ إذًا، أنْ يُساوَى بينَ المؤمِنينَ والمجرِمين.

الحصانة والبغاء = العفة والفجور

الحفظ والنسيان

قالَ اللهُ تعالَى في إحصاءِ أعمالِ الكافرينَ المحاربينَ لدينه:

{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [سورة المجادلة: ٦].

أي: يَومَ يَبعَثُ اللهُ الكافرينَ مِنْ قُبورِهم، ويَجمَعُهم كُلَّهم في صَعيدٍ واحِد، فيُحاسِبُهم، ويُخبِرُهم بما عَمِلوا مِن خَيرٍ وشرّ، وقد أحصَى اللهُ أعمالَهم وحفِظَها عَليهم، ونَسُوا هم ما عَمِلوه، واللهُ لا يَنسَى أمرًا، ولا يَغيبُ عَنهُ شَيء، بلْ هوَ شاهِدٌ يَسمَعُ كُلَّ ما تَقولون، ويُبصِرُ كُلَّ ما تَعمَلون.

الحق والباطل

الله سبحانهُ هو الإلهُ الحقّ:

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سورة الحج: ٦٢].

تفسيرها: ذلكَ بأنَّ اللهَ هوَ الإلهُ الحَقّ، فلا يُعبَدُ إلاّ هو، وأنَّ ما يَعبدُهُ المشرِكونَ منَ الأصنامِ وغَيرِها هو الباطِل، فلا أُلوهيَّةَ لها، فهيَ لا تَخلُق، ولا تَضُرّ، ولا تَنفَع. وأنَّ اللهَ هو العَليُّ على جَميعِ الأشياء، فلا شَيءَ أعلَى منه، الكبيرُ الذي لا أعظمَ منهُ ولا أكبَر، فكُلُّ شَيءٍ دونَه.

*** *** ***

واللهُ يَمحَقُ الباطِلَ ويُثبِتُ الحقَّ بوَحيهِ وقَضائه. قالَ اللهُ تعالى:

{وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} [سورة الشورى: ٢٤].

*** *** ***

المشركون يستندون إلى ظنونٍ وأوهامٍ لا حقيقةَ لها في عقائدهم. قالَ الله تعالى:
{وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [سورة يونس: ٣٦].
أي: وأكثرُ المشرِكينَ لا يَتَّبِعونَ في دِينِهم حُجَجًا ولو كانت واهية، بل هيَ ظُنونٌ وأوهامٌ وتَخَيُّلاتٌ لا تَستَنِدُ إلى أساس، فهم يَظنُّونَ أنَّ للهِ شُركاء، ولكنْ لا يَتحقَّقونَ منه. وهكذا مُجادلاتُهم ومُحاوراتُهم التي يُدافِعونَ بها عن آرائهمْ ومُعتَقداتِهم، وإنَّ الظنَّ الفاسِدَ لا يُحَقِّقُ لهم شَيئاً مِنَ الحقّ، واللهُ عَليمٌ بأفعالِهمُ السيِّئة، وإعراضِهم عنِ الحقِّ المبين.

*** *** ***

وقالَ سبحانه:
{وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً} [سورة الكهف: ٥٦].
أي أنَّ الكافِرِينَ يُعانِدونَ ويُجادِلونَ بالبَاطِل، ويَقتَرِحونَ مُعجِزاتٍ تَعَنُّتًا، ليُبطِلوا بجِدالِهِمُ الحَقَّ الذي جاءَ بهِ الرُّسُل، واتَّخَذوا آياتي والمعجِزاتِ التي أيَّدتُهم بها وما أُنذِروا بهِ منَ العِقابِ والعَذابِ استِهزاءً وسُخرِيَةً.

*** *** ***

وقالَ في دحضِ مفترياتِ المشركينَ وباطلِهم:
{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [سورة الأنبياء: ١٨].
تفسيرها: ليسَ مِن شَأنِنا اللَّهو، بل شأنُنا أنْ نُبَيِّنَ الحقَّ ونَغلِبَهُ على الباطِل، فيَمحَقُه، فإذا هوَ ذاهِبٌ مُضمَحِلّ، ولكمُ الهَلاكُ والعَذابُ أيُّها المشرِكون، ممّا تَصِفونَ بهِ الله، وتَكذِبونَ عَليه.

*** *** ***

وفي غزوةِ بدر، كانَ المسلمونَ قلَّة، ولذلكَ أحبوا غنيمةً بلا حرب، وهي السيطرةُ على قافِلةَ أبي سفيان، ولكن الله أرادَ لهم الحربَ والنصرَ على جَيشِ المشرِكين:

{لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [سورة الأنفال: ٨].

ليُثبِتَ الإسلامَ بذلكَ ويجعلَهُ غالِباً على الأديانِ، ويَمحَقَ الكُفر، ولو كَرِهَ المشرِكون.

*** *** ***

وقالَ اللهُ لرسولِهِ صلى الله عليه وسلم:

{وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً} [سورة الإسراء: ٨١]:

وقُلْ أيُّها الرَّسُول: جاءَ الإسلامُ الحَنيف، والشَّرعُ العَظيم، وزالَ الشِّركُ والكُفر، فلا عِبادَةَ للأصنامِ بعدَ اليَوم، ولا ثَباتَ للبَاطل، ولا مَكانَ لهُ معَ وجودِ الحَقّ.

وفي آيةٍ أخرى:

{قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} [سورة سبأ: ٤٩]:

قُل: جاءَ الإسلامُ والتَّوحيد، فلم يَبقَ للباطِلِ مَقالَةٌ ولا رِئاسَة، فقد مضَى وهلَكَ الكُفرُ والشِّرك، ولا بَقاءَ للباطِلِ بعدَ أنْ سَطَعَ نورُ الحقِّ وثبتَ أهلُه.

الحلال والحرام

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ مخاطبًا المشركين:

{وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ} [سورة النحل: ١١٦].

أي: لا تَكذِبوا فتَدَّعوا تَحريمَ ما أحَلَّهُ الله، أو تَحليلَ ما حرَّمَه، فيما اصطَلَحتُم عليهِ ووَضَعتُموهُ في جاهِليَّتِكم، وتَقولوا إنَّ اللهَ أمرَنا بهذا، فتُحَرِّمونَ ما سيَّبتُموهُ للأصنام... كما في قَولِهِ تَعالَى: {وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [سورة الأنعام: ١٣٨]. قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ الله: ويَدخلُ في هذا كلُّ منِ ابتَدَعَ بِدعَةً ليسَ فيها مُستَنَدٌ شَرعيّ، أو حَلَّلَ شَيئاً ممّا حرَّمَ الله، أو حرَّمَ شَيئاً ممّا أباحَ الله، بمُجرَّدِ رأيهِ وتَشَهّيه. اهـ.

فالتَّحليلُ والتَّحريمُ لا يَكونُ إلاّ بتَشريعٍ منَ اللهِ ورَسولِه. والذينَ يَكذِبونَ على اللهِ لا فَلاحَ لهم في الدُّنيا والآخِرَة، ولا يَنجونَ من عَذابِ الله.

فالذي يحلِّلُ ويحرِّمُ هو اللهُ ورسوله. قالَ اللهُ تعالى محذِّرًا ومنبِّهًا في آيةٍ أخرى:

{قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ} [سورة يونس: ٥٩].

أي: قُلْ لكُفّارِ مَكَّة: أرأيتُم هذا الرزقَ الذي قدَّرَهُ اللهُ لكم لتَنتَفِعوا به، فجعَلتُم تُحَرِّمونَ أنواعًا منَ الحيَواناتِ والزُّروع، وتُحَلِّلونَ أخرَى، فهل أذِنَ اللهُ لكم بذلِك، أم أنَّكم تَكذِبونَ عليه، وتَقولونَ إنَّهُ مِن عندِ الله، وهوَ من عندِ أنفسِكم؟

*** *** ***

شَرِبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عسَلاً عندَ إحدَى زَوجاتِه، فاتَّفقَتْ عائشَةُ وحفصَةُ رَضيَ اللهُ عَنهما على أنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إذا دخلَ على أيَّتِهنَّ فلتَقُلْ له: إنِّي أجِدُ منكَ ريحَ مَغافير، وهوَ شَبيهٌ بالصَّمغ، فيهِ حَلاوةٌ ولهُ رائحَةٌ كريهة، فقالتْ لهُ إحداهُنَّ ذلك، فقالَ صلى الله عليه وسلم: "لا، بلْ شَرِبتُ عسَلاً عندَ زَينبَ بنتِ جَحش، ولنْ أعُود". فنزلَتِ الآية: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة التحريم: ١]:

أيُّها النبيُّ الكريم، لماذا تُحرِّمُ على نَفسِكَ طَعامًا أحلَّهُ اللهُ لك، أتُريدُ بذلكَ أنْ تُرضيَ بعضَ زَوجاتِك؟ لقد غفرَ اللهُ لك، واللهُ كثيرُ المغفِرَة، واسِعُ الرَّحمَة.

ولفظُ قَولِهِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن صَحيحِ البخاريّ.

الحلو والمرّ
(العذب والمالح)

قالَ اللهُ تعالى في بحرينِ مختلفين:

{وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً} [سورة الفرقان: ٥٣].

أي: هوَ الذي أجرَى كِلا نَوعَي البَحرَينِ في مَجرَيَيهِما، فهذا نَهْرٌ جارٍ طَعمُهُ عَذبٌ لَذيذ، وهذا بَحْرٌ ماؤهُ مالِحٌ مُرٌّ لا يُطاقُ شُرْبُه، وقدْ جعلَ اللهُ بينَهما حاجِزًا، وسِترًا ممنوعًا، فإذا دخلَ ماءُ أحَدِهما على الآخَرِ لم يَختَلِطا.

ويَحدُثُ هذا عندَ مَصَابِّ الأنهارِ في البِحار، وبَعضُ هذهِ الأنهارِ يَمتَدُّ مَسيرُها ثمانينَ كيلومِترًا ولا يَتمازَجُ ماؤهُ معَ ماءِ البَحر! ومُعظَمُ أسماكِ المياهِ العَذبَةِ الدَّاخِلَةِ في البَحرِ لا تَدخُلُ مياهَ البَحرِ المالِحَة، وأسماكُ المالِحَةِ لا تَدخُلُ العَذبَة! وقدِ اكتُشِفَ هذا حَديثًا، وصُوِّرَ الحاجِزُ بالسُّفُنِ الفَضائيَّة، وهذا الحاجِزُ يَكونُ في حالَةِ مُروجٍ وذَهابٍ وإيَاب...

ومن كلٍّ نأكلُ لحمًا طريًّا..

{وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [سورة فاطر: ١٢].

أي: مِن آثارِ قُدرَةِ اللهِ ونِعمَتِه: البَحران، العَذْبُ والمالِح، وهُما بالرَّغمِ مِن كَونِهما ماءً، إلاّ أنَّهما لا يَستَويان، فهذهِ الأنهارُ الجاريَةُ بينَ العُمرانِ والبَراري عَذبَةٌ سَهلٌ شَرابُها، وهذهِ البِحارُ الواسِعَةُ مُرَّةٌ أو شَديدَةُ الملوحَة، ومعَ ذلكَ فإنَّكم تأكُلونَ مِن كِليهما لحومَ الأسماكِ والحِيتانِ الغَضَّةَ الطريَّة، وتَستَخرِجونَ مِنَ المالِحَةِ اللُّؤلُؤ والمرجانَ وتَتَّخِذونَ منهما زِينَة.

الحياة والموت

(الحيُّ والميِّت، الإحياء والإماتة)

ربُّنا سبحانهُ حيٌّ لا يموت:

{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [سورة الفرقان: ٥٨].

أي: الجَأْ إلى اللهِ واعتَمِدْ عَليه، وفَوِّضْ أمرَكَ إليه، فهوَ الحَيُّ الباقي الذي لا يَموت، يَنصُرُكَ ويُؤيِّدُكَ بقُوَّتِهِ وتأييدِه...

*** *** ***

اللهُ تعالَى خلقَ الموتَ والحياة:

{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [سورة الملك: ٢].

أي: اللهُ الذي أوجدَ الموتَ والحياةَ في الحيَاةِ الدُّنيا ليَختَبِرَكُمْ أيُّكم أفضَلُ عمَلاً وأحسَنُ طاعَةً لرَبِّه، وهوَ العَزيزُ الغالِبُ الذي لا يَقدِرُ أحَدٌ على مَنعِهِ مِن عُقوبَةِ مَن أسَاء، الغَفورُ لذُنوبِ مَن تابَ إليهِ مِن عبَادِهِ المؤمِنين.

*** *** ***

الله تعالى يحيي ويميت:

{وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ} [سورة الحجر: ٢٣].

تفسيرها: وإنَّا لَنَخلُقُ الشيءَ من العدَم، وننَفُخُ الرُّوحَ في الأشياءِ الميْتَةِ فتَحيا بإذنِنا، ونحنُ نُميتُ الحيَّ فلا نُبقي فيهِ أثَرًا للحَياة. ونحنُ الباقونَ بعدَ فَناءِ الخَلق، المالِكونَ للمُلْك، الحاكِمونَ والمتصَرِّفونَ في الكَونِ وحدَنا، الوارِثونَ للخَلْقِ جَميعًا.

*** *** ***

من قدرةِ اللهِ تعالى وعظمتهِ إخراجُ الحيِّ من الميِّت، وإخراجُ الميِّتِ من الحّي، كما في قولهِ سبحانهُ وتعالى:

{وَتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [سورة آل عمران: ٢٧].

أي: أنتَ الإلهُ الذي تُخرِجُ الحيَّ منَ الميِّت، وتُخرِجُ الميِّتَ منَ الحيّ، فتُخرِجُ الحبوبَ منَ الزُّروعِ والزُّروعَ منَ الحبوب، وتُخرِجُ الدجاجةَ منَ البيضةِ والبيضةَ منَ الدجاجة، وتُميتُ أشياءَ لتَكونَ مادَّةً لحياةٍ أخرَى في الإنسانِ والكَون، وهكذا في حركةٍ دائمة، لا يدَّعي أحدٌ أنَّهُ قادرٌ على مثلِها، ولا يَقولُ عاقلٌ إنَّهُ مصادَفةٌ مِنْ غَيرِ تَدبيرٍ وتَقدير.

وإذا عَرفَ الإنسانُ أنَّ كلَّ ما في الكونِ مُلْكٌ لله، وأنَّ ما يَجري فيهِ مِن عِزٍّ وذُلٍّ، وحياةٍ ومَوت، بمشِيئتِهِ وتَقديرِه، فليَعلم أنَّهُ هوَ وحدَهُ الذي يَرزُقُ مَن يَشاءُ بما يَشاء، فلا أحدَ يَستطيعُ أن يمنعَ نِعَمَهُ مِن أحَد، ولا أن يُعطيَ مَن يَمنعُه، فهوَ صاحبُ المشيئةِ والإرادة، وهوَ العادلُ الذي لا يَظلِم.

*** *** ***

والأرضُ وعاءٌ للأحياءِ والأموات:

{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً . أَحْيَاء وَأَمْوَاتاً} [سورة المرسلات: ٢٥ – ٢٦]:

ألمْ نَجعَلِ الأرضَ وِعاء، تَضُمُّ وتَجمَع؟ تَجمَعُ الأحياءَ على ظَهرِها، والأمواتَ في بَطنِها، مِن غَيرِ حَصر؟

*** *** ***

والله تعالى يحيي الأرضَ بعدَ موتها:

{وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} [سورة الروم: ١٩].

أي: كما يُحيي اللهُ الأرضَ بعدَ موتِها، فيُخرِجُ نَباتَها وزَرعَها، كذلكَ يُحييكم بعدَ موتِكم، فيُخرِجُكم أحياءً مِن قُبورِكم إلى المحشَرِ للحِساب.

وبتفصيلٍ أكثر:

{وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً} [سورة الفرقان: ٤٨].

أي: هوَ الذي بعثَ الرِّياحَ لتُبَشِّرَ بنُزولِ المطَر، بعدَ تشَكُّلِ السَّحاب، وأنزَلنا منهُ ماءً يُتَطَهَّرُ به.

{لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً} [سورة الفرقان: ٤٩]:

لنُحييَ بالمطَرِ أرضًا جَدْبَةً لا نَماءَ فيها، ونُسقيَ منهُ حيَواناتٍ وبشَرًا كثيرًا مُحتاجينَ إليه.

*** *** ***

الشهداءُ أحياءٌ ولو لم نشعر بحياتهم، هذا ما قالهُ الله تعالى، ونفَى أن يكونوا موتَى. قالَ سبحانه: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ} [سورة البقرة: ١٥٤].

أي أن الذين سقطوا شهداءَ في ساحةِ المعركة، لا تظنُّوا أنَّهم ماتوا، بل هم أحياءٌ عندَ ربِّهم، يُطعِمُهم ويَسقِيهم؛ جزاءَ تضحيتِهم بأرواحِهم في سبيلِه، ولكنَّكم لا تَشعُرونَ بهم، فهم في حياةٍ أخرَى (برزخيَّةٍ) غيرِ التي أنتم فيها.

وقالَ سبحانهُ في آيةٍ أخرى:

{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [سورة آل عمران: ١٦٩].

أي: لا تَظُنَّنَّ الذينَ فارقوا لحياةَ مِنَ الشُّهداءِ قد ماتُوا حقًّا، وإنْ ظَهرَ قَتلُهم في هذه الحياةِ الدُّنيا، فإنَّ أرواحَهُم حيَّةٌ تُرْزَقُ عندَ اللهِ في دارِ القَرار.

{فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة آل عمران: ١٧٠].

وهم فَرِحُونَ مُغتَبِطونَ بفَضلِ اللهِ عَليهم ورِضائهِ عَنهم، ويَستَبشِرونَ بإخوانِهم الذينَ يُقتَلونَ بعدَهم في سبيلِ اللهِ ألاّ خوفٌ عليهم فبما يَستَقبِلونَه، فهم أمامَ نِعمةٍ وفَضلٍ يَفِيضُ عَليهم، ولا هم يَحزنونَ على ما فاتَهُم مِنَ الدُّنيا، فالآخِرةُ لهم خَيرٌ وأبقَى.

*** *** ***

وقالَ عيسى عليه السلام:

{وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً} [سورة مريم: ٣٣].

أي: السَّلامُ والأمانُ عَليَّ يومَ وُلِدتُ: فلم يَنَلني الشَّيطانُ بسُوء، ويَومَ أموتُ: أَسلَمُ مِن عَذابِ القَبر، ويَومَ أُبْعَثُ حَيًّا: أَسلَمُ مِن هَولِ القيامَةِ وعَذابِ جَهنَّم.

*** *** ***

ويأتي لفظُ الإحياءِ بمعنى الإبقاءِ على الحياةِ في مقابلِ الإماتة، كما في معاملةِ فرعونَ مع بني إسرائيل:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} [إبراهيم: ٦].

أي: يَذبَحونَ كُلَّ ذَكَرٍ يُولَدُ فيكم، ويُبقونَ على بَناتِكم؛ خَوفًا مِن أن يَكونَ زوالُ مُلكِهِ على يدَي رَجُلٍ منكم.

*** *** ***

ولا يستوي حيٌّ ومَيِّت:

{وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ} [سورة فاطر: ٢٢].

أي: لا يَستَوي الأحيَاءُ والأموَات، كما لا يَستَوي المؤمِنونَ الذينَ فتَحوا قُلوبَهم للدِّينِ الحقّ، والكافِرونَ الذينَ استَكبَروا وأصَرُّوا على الكُفر، واللهُ يُسمِعُ مَن يَشاء، ممَّن يتَّعِظُ ويَستَجيب. ولا تَستَطيعُ أنْ تَهديَ المشرِكينَ الذينَ صَمُّوا آذانَهم عنِ السَّماع، وقُلوبَهم عنِ الوَعي والتفَقُّه، فهم كالأموَات، الذينَ تَدْعُوهم فلا يُجيبُون.

*** *** ***

الأصنامُ ليست آلهةً كما يقولُ المشركون، ولا تملكُ قدرةً على النفعِ والضرّ، ولا على الإحياءِ والإماتة، ولا تصرُّفًا في أيّ شيء. قالَ الله تعالى:

{وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً} [سورة الفرقان: ٣].

*** *** ***

والكافرونَ لا يؤمنون بحياةٍ بعدَ الموت، فقالوا:

{إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [سورة المؤمنون: ٣٧]:

قالوا: ليسَتْ هُناكَ حَياةٌ سِوَى حَياتِنا الدُّنيا هذه، يَموتُ بَعضُنا فيها ويُولَدُ آخَرون، ولن نُبعَثَ بعدَ الموت!

كما قالوا إنها أساطير:

{لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [سورة المؤمنون: ٨٣]:

قالوا: لقد سبَقَ أنْ ذُكِرَ لنا هذا مِن خبَرِ الأنبياءِ السَّابقِين، كما وعَدوا آباءَنا وأجدادَنا بذلك، وما هذا سِوَى حِكاياتِ المتَقَدِّمينَ وأكاذيبِهمُ التي سَطَّروها في كتُبِهم.

واللهُ خلقَنا ولم نكُ شيئًا:

{أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً} [سورة مريم: ٦٧]:

ألا يَتذَكَّرُ ويَتفَكَّرُ هذا الإنسَانُ أنَّهُ لم يَكنْ شَيئًا في وَقتٍ مِنَ الأوقات، ثمَّ خَلقنَاهُ فكانَ حَيًّا؟ فإذا كُنّا خَلقناهُ ولم يَكنْ شَيئًا، ألَسنا قادِرينَ على إعادَةِ خَلقِهِ وقد كانَ شَيئًا؟

فاللهُ بدأَ خَلقَنا، ثم يعيدُ خلقَنا بعدَ موتنا:

{اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة الروم: ١١].

أي أن اللهَ سُبحانَهُ يُنشِئُ الخَلقَ ابتِداءً ولم يَكونوا شَيئًا، ثمَّ يُعيدُ نَشأتَهُ بعدَ مَوتِهِ يومَ البَعث، ثمَّ تُرجَعونَ إليهِ – أيُّها الناسُ – ليُجازِيَكم على أعمالِكم.

والله تعالى أحيانا، ويميتنا، ثم يبعثنا:

{وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ} [سورة الحج: ٦٦].

أي: كيفَ تَكفرُونَ باللهِ أو تَعبدُونَ غَيرَه، وهوَ الذي خلقَكم ولم تَكونوا شَيئًا، ثمَّ يُميتُكم عندَما تَحينُ آجالُكم، ثمَّ يَبعَثُكم مِن قُبورِكم للبَعثِ والحِساب. إنَّ الإنسانَ جَحودٌ بنِعَمِ اللهِ وآلائه، على الرَّغمِ مِن ظُهورِها ووضُوحِها.

هما حياتان وموتتان:

{قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ} [سورة غافر: ١١]:

قالَ أهلُ النَّارِ وهم يَتحَسَّرون: اللهمَّ إنَّكَ أمَتَّنا مرَّتين، حيتَ خُلِقنا في أرحامِ أُمَّهاتِنا قَبلَ نَفخِ الرُّوح، وعندَ انقِضاءِ آجالِنا في الدُّنيا. وأحيَيتَنا مرَّتين: حينَ نفَختَ فينا الرُّوحَ ونحنُ في الأرحام، ثمَّ إحياءَنا للبَعثِ يَومَ القِيامَة. وقدِ اعترَفنا بما كنَّا عليهِ مِن كُفرٍ وتَكذيب، فهلْ مِن طَريقَةٍ للخُروجِ مِنَ النَّار، والعَودَةِ إلى الدُّنيا، لنَعملَ غَيرَ الذي كنَّا نَعمَل، فإنَّكَ قادِرٌ على كُلِّ شَيء؟ وقد أُجيبُوا أنْ لا خُروجَ منها.

*** *** ***

ويُلقَى الكافرُ في النارِ ويتعذَّب، ويبقَى بين موتٍ وحياة:
{ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} [سورة الأعلى: ١٣].
أي: لا يَموتُ فيها فيَستَريحُ مِنَ العَذاب، ولا يَحيَا فيها حَياةَ أمنٍ ورَاحَة، بلْ هيَ حَياةُ جَحيمٍ وعَذابٍ دَائم.

الخشية والقسوة

في آياتٍ متتاليةٍ عدَّدَ الله تعالى نعمهُ على بني إسرائيلَ مذكِّرًا إياهم بها، ثم قال:
{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سورة البقرة: ٧٤].
أي: بعدَ كلِّ هذهِ الآياتِ والنِّعَمِ والتحذيرات، قسَتْ قلوبُكم فصارَت كالحجارةِ التي لا علاجَ لِلِينها، وبعضُها أَقسَى مِنهَا، فإنَّ منَ الحجارةِ ما تتفجَّرُ منهُ العُيونُ الجارية، ومنها ما يتشَقَّقُ فيَخرجُ منهُ الماءُ وإنْ لم يكنْ جارياً، ومنَ الحجارةِ ما يَهبِطُ منْ رأسِ الجبلِ خوفاً منَ الله، وقد دُكَّ الجبلُ عندما تجلَّى اللهُ لهُ وخَرَّ موسى صَعِقاً. وقلوبُكُم لا تَلِينُ، ولا تنبِضُ بخشيةِ الله، واللهُ ليسَ بغافِلٍ عن أعمالِكُم وقساوَةِ قلوبِكُم، التي لا يُنتَظَرُ منها سِوَى الأعمالِ السيِّئة، إنَّما هو تأخيرٌ إلى موعدِ محاسبتِكم.

*** *** ***

ونصحَ الله عبادَهُ ونبَّههم فقال:

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [سورة الحديد: ١٦].

أي: ألمْ يَحِنْ للمؤمِنينَ أنْ تَلينَ وتَرِقَّ قُلوبُهم لذكرِ اللهِ ومَواعِظِه، وعندَ سَماعِ القُرآنِ والإنصاتِ له، فيُطيعوا ربَّهم، ولا يَكونوا كاليَهودِ والنَّصارَى، الذينَ طالَ الزَّمانُ بينَهم وبينَ أنبِيائهم، فبدَّلوا كتُبَهم، واشترَوا بآياتِها ثَمنًا قَليلاً، ومالُوا إلى الدُّنيا، واتَّبَعوا أهواءَهم، وأعرَضوا عنِ الموعِظَة، فقسَتْ قُلوبُهم فلم تَقبَلِ التَّذكير، ولم تَلِنْ بوَعدٍ ووَعيد، وكثيرٌ منهم خارِجونَ عن حُدودِ دينِهم، بَعيدونَ عن طاعَةِ ربِّهم، فقُلوبُهم فاسِدَة، وأعمالُهم باطِلَة.

*** *** ***

ولو أنزلَ الله هذا القرآنَ على الجبلِ المعروفِ بقساوتهِ وشموخهِ وثباتهِ لتصدَّع، من الخشية!

{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة الحشر: ٢١].

أي: لو أنزَلنا هذا القُرآنَ العَظيمَ الشَّأنِ على جبَل، وفهِمَهُ وتدبَّرَه، لرأيتَهُ خائفًا مُرتَعِدًا مُتَشقِّقًا عندَ سَماعِه، لِما فيهِ مِنَ التَّرغيبِ والتَّرهيب، والوَعدِ والوَعيد، على الرَّغمِ مِن صَلابَةِ الجبَلِ وقَساوَتِه. ونَضرِبُ هذا المثَلَ وأشباهَهُ للنَّاس، ليَتفَكَّروا ويَتدَبَّروا، ويَعتَبِروا ويؤمِنوا، ويَعمَلوا ويَخشَعوا. فكيفَ لا يَتدَبَّرُ الإنسانُ هذا القُرآنَ وهوَ كلامُ اللهِ العَليمِ الجَليل، وقد أكرمَهُ اللهُ بالعَقلِ ليَفهمَ ويَتدبَّر؟ وكيفَ لا يَخشَعُ لهُ وهوَ لا يأمرُهُ إلاّ بخَير، ولا يَنهاهُ إلاّ عن شرّ؟

*** *** ***

وسيتذكَّرُ من يخشَى الله..

{سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى . وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى} [سورة الأعلى: ١٠ - ١١]:

سيَتَّعِظُ بدَعوتِكَ مَن يَخشَى غضَبَ اللهِ وعَذابَه، ويَحسُبُ حِسابَ الثَّوابِ والعِقابِ يَومَ الجَزاء، ويَبتَعِدُ عَنها الشَّقيُّ الخَائب، المصِرُّ على الكُفر، المنكِرُ للمَعادِ والجَزاءِ على الأعمَال.

الخطأ والعمد

كلٌّ يُنسَبُ إلى أبيه، فإن لم يُعرفْ والدهُ فهو أخٌ للمسلمينَ ومن مواليهم، ولا حرَجَ في نسبةِ بعضِهم إلى غَيرِ آبائهم خطأً بعدَ البَحثِ والتحَرّي، ولكنَّ الإثمَ على مَن تعَمَّدَ نِسبَةَ شَخصٍ إلى غَيرِ أبيه. واللهُ يَغفِرُ لمن تابَ وإنْ كانَ مُتعَمِّدًا، رَحيمٌ بعبادِهِ المؤمِنينَ التَّائبين. كما قالَ سبحانه:

{ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} [سورة الأحزاب: ٥].

الخفيف والثقيل

أعمالُ الإنسانِ توزَن، فإما خفيفة، أو ثقيلة. قالَ الله تعالى:

{وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة الأعراف: ٨].

معناها: وزنُ الأعمَال، والتَّمييزُ بين الصالحِ منها والفاسدِ يومَ الحساب، حقٌّ ثابتٌ عَدْل، فمن رَجَحَتْ كِفَّةُ مَوازينهِ بالحسَنات، فقد فَازوا بالنَّجاةِ والثواب.

{وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ} [سورة الأعراف:٩].

أي: مَن رَجَحَتْ كِفَّةُ موازينهِ بالسيِّئات، فهمُ الذينَ خَسِروا أنفسَهم، نادمينَ مُتحَسِّرينَ على ما فاتَهم منَ الثَّوابِ والنَّعيم، وعلى ما لَحِقهم منَ العَذابِ الأليم، وهذا لأنَّهم كانوا يَجحَدونَ بحُجَجِنا وأَدلَّتِنا، ويُكذِّبونَ رسُلَنا.

ومثلهُ في سورةِ القارعة:

{فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ . وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ} [القارعة : ٦ – ١١]

الخير والشرّ

الخيرُ والشرُّ فتنة!

{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [سورة الأنبياء: ٣٥].

أي: كُلُّ نَفسٍ على وَجهِ الأرضِ سَوفَ تَموت، ونَختَبِرُكم بالمكارِهِ والمصائب، والنَّعيمِ والرَّخاء، ونُبادِلُ بينَ هذهِ وهذه، ابتِلاءً وتَمحيصًا، لنَرَى ما تُظهِرونَهُ من هِدايَةٍ أو ضلال، وشُكرٍ أو كُفر، وسَوفَ تُرجَعونَ إلَينا يَومَ الحِساب، لنُحاسِبَكم على أعمالِكم كُلِّها.

*** *** ***

المؤمنونَ خيرُ الخليقة، والكافرونَ شرُّهم:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} [سورة البينة: ٦]:

إنَّ الذينَ كفَروا مِن أهلِ الكتَاب، مِنَ اليَهودِ والنَّصارَى وغَيرِهم، والمشرِكينَ مِن عبَدَةِ الأوثَانِ والأفلاكِ وغَيرِها، مِنَ العرَبِ والعجَم، مَصيرُهم نارُ جهنَّمَ يَومَ القِيامَةِ، ماكثينَ فيها أبدًا، لا يَموتونَ فيها، ولا يَتحوَّلونَ عنها، أولئكَ هم أسوَأُ الخليقَةِ أعمَالاً.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} [سورة البينة: ٧]:

إنَّ الذينَ آمَنوا وأخلَصوا في إيمَانِهم، وعَمِلوا الأعمَالَ الحسنَةَ الموافِقَةَ للشَّريعَة، أولئكَ هم أحسَنُ الخليقَةِ أعمَالاً.

{جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} [سورة البينة: ٨].

أي: ثَوابُهُمْ على إيمَانِهم وطاعتِهم يَومَ القِيامَةِ جنَّاتُ إقامَةٍ دائمَة، تَجري مِن تَحتِ أشجارِها الأنهَار، خالدينَ فيها، لا يَبغونَ عنها تَحوُّلاً، لِما فيها مِنَ السَّعادَةِ والنَّعيم. رَضيَ اللهُ عنهم، ورِضوانُهُ سُبحانَهُ أعلَى ما أُوتُوهُ مِنْ النَّعيم. ورضُوا عنهُ فيما منحَهم مِن فَضلِهِ العَميم، ممَّا لا عَينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خطَرَ على قَلبِ بشَر. وهذا الثَّوابُ الجَزيل، هوَ لمن خَشِيَ اللهَ في الدُّنيا ولم يُخالِفْ أمرَه.

*** *** ***

وعملُ الخيرِ والشرِّ محسوبٌ على الإنسانِ بأدقِّ تفاصيله:
{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} [سورة الزلزلة: ٧ – ٨].
أي: فمَن يَعمَلْ مِثلَ وَزنِ ذَرَّةٍ مِنَ العمَلِ خَيرًا يُجْزَ بهِ خَيرًا، ويُضاعِفُ اللهُ لمن شاء، ومَن يَعمَلْ مِثلَ وَزنِ ذَرَّةٍ مِنَ العمَلِ شَرًّا يُجْزَ بهِ شَرًّا.
ويَومَئذٍ لا يَحقِرُ الإنسَانُ شَيئًا مِن عمَلِه، خَيرًا كانَ أو شَرًّا، وكُلُّ ذلكَ يَكونُ بحِسَابٍ دَقيق، فليَنظُرِ الإنسانُ ما يَقولُ وما يَفعَل.

*** *** ***

والإنسانُ جزوعٌ إذا أصابهُ بلاء، وبخيلٌ إذا حصَّلَ مالًا:
{إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً . إِلَّا الْمُصَلِّينَ...}
[سورة المعارج: ١٩ – ٢٢]:
لقد خُلِقَ الإنسَانُ شَديدَ الجزَع إذا أصابَهُ بَلاءٌ وشِدَّةٌ فَزِعَ وتألَّمَ وانطوَى على نَفسِه! وإذا حصلَتْ لهُ نِعمَةٌ وسَعَةٌ لم يُنفِقْ ممَّا يُحِبّ، ورأيتَهُ بَخيلاً، إلاّ مَن هَداهُ اللهُ للإيمَانِ فكان مِنَ المصَلّين...

*** *** ***

والإنسانُ مغرمٌ بطلبِ الخيرِ لنفسه، فإذا أصابَهُ شرٌّ جزع...
{لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ} [سورة فصلت: ٤٩].
أي: لا يَمَلُّ الإنسَانُ مِن طلَبِ المالِ والغِنَى والصِّحَّةِ مِن رَبِّه، وإذا أصابَهُ ضِيقٌ وشِدَّة، جَزِعَ وتَضايَقَ وفقَدَ الأمَل، وظنَّ أنَّ اللهَ لنْ يُعيدَ إليهِ ما كان!

ومن عادتهِ أيضًا:
{وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ} [سورة فصلت: ٥١].
أي: إذا أنعَمنا على الإنسَانِ بالمالِ والجاهِ والعافية، أعرَضَ عنِ الطَّاعَةِ والشُّكر، وتكبَّرَ وشمخَ بأنفِهِ واستَكبرَ عنِ الانقِيادِ لأمرِ الله، وإذا أصابَهُ فَقرٌ وبَلاء، دَعانا دُعاءً كثيرًا متواصِلاً!

*** *** ***

من الناسِ من يَدعو على نفسهِ بالشرّ! ولو استجابَ الله دعاءَهم لقُضيَ عليهم:
{وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} [سورة يونس: ١١].
أي: ولو يُعَجِّلُ اللهُ سُبحانَهُ في الاستِجابةِ لدَعوةِ الناسِ بالشرّ على أنفُسِهم كما يَستَعجِلونَ طلبَ الخَيرِ ويَنالونَه، لعَجَّلَ بأجَلِهم وقضَى عَليهم، كما كانَ الكفّارُ يَطلبونَ إمطارَهم بالحِجارةِ منَ السَّماء، أو يَنتَظِرونَ العَذاب...

وقالَ سبحانهُ في آيةٍ أخرى:
{وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً} [سورة الإسراء: ١١].
أي: مَنْ لم يَتَّخذِ القُرآنَ لهُ هاديًا ودَليلاً، تَخَبَّطَ في دُنياهُ وكانَ في ظَلام، ودعَا على نَفسِهِ بالشَّرِّ والعَذابِ كما يَدعو لها بالخَيرِ والمصلحَة، حَقيقَةً أو بأعمالِهِ السيِّئةِ التي تُودِي بهِ إلى النَّار،

والإنسانُ عَجولٌ بطَبعِه، يُسارِعُ إلى ما يَظنُّ فيهِ مَصلحَتُه، وإنْ كانتْ تَحمِلُ ضَرَرًا بعدَ النَّظَر، وهوَ غَيرُ مُطَّلِعٍ على عَواقِبِ الأمورِ حتَّى يَضبِطَ قيادَةَ العجَلَةِ في نَفسِه.
أو أنَّ المقصودَ أنَّ الإنسانَ لعَجلَتِهِ يَدعو على نَفسِهِ وأولادِهِ بما هوَ شَرّ، وأنَّ اللهَ لو استجابَ لدُعائِهِ لهَلَكَ به!

*** *** ***

ومن ثقافةِ الخيرِ والشرّ في حياتنا الاجتماعية: الزواج، فإن الله يبيّن للمسلمين في كتابهِ الكريمِ أن الزواجَ بين المسلمين والمشركين الوثنيين لا يحلّ، وأن الخيرَ يكمنُ في الزواجِ بين المسلمين بعضهم من بعض. قالَ الله تعالى:
{وَلَا تَنْكِحُوا المشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا المشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الجَنَّةِ وَالمغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [سورة البقرة: ٢٢١].
تفسيرها: لا تَتزوَّجوا النساءَ المشركاتِ عابداتِ الأوثان، إلاّ إذا أسلَمن، وإنَّ امرأةً مُؤمِنةً منَ الأرقّاء، أفضلُ مِنْ مُشرِكةٍ حرَّةٍ ولو كانت أكثرَ منها حُسناً وجَمالاً.
ولا تُزَوِّجوا المشركينَ من النساءِ المسلِماتِ حتَّى يؤمِنوا، وإنَّ عبداً مُؤمِناً مهما كانَ شأنُه، أفضلُ منَ المشركِ ولو كانَ ذا حَسبٍ ومالٍ وجَاه.
فإنَّ المشركينَ يَنضوونَ تحتَ ملَّةِ الكفرِ التي مآلُها النار، وإنَّ معاشرتَهم ومخالطتَهم تبعثُ على حُبِّ الدنيا والتعلُّقِ بها وإيثارِها على الدَّارِ الآخِرَة، وعاقِبَةُ ذلكَ وَخيمة. واللهُ سبحانَهُ يَدعو إلى الجنَّةِ والرَّحمةِ والرِّضوانِ بما شَرعَ لكم منَ الأحكام، لتُمَهِّدَ لكم طريقَ المغفرةِ والسَّعادة. وهذا ما بيَّنهُ لكم ربُّكم، لتَتذكَّروا وتُؤمِنوا، وتَعمَلوا وتَشكروا.

وفي حديثِ الإفكِ على أمِّنا عائشةَ رضيَ الله عنها:
{إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة النور: ١١].

أي: إنَّ الذينَ جاؤوا بالكذِبِ والبُهتانِ الذي افترَوهُ على أُمِّ المؤمِنينَ عائشَةَ بنتِ أبي بَكرٍ الصِّدِّيق، زوجِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، هُم جَماعَةٌ منكم، ولا تظنُّوا ذلكَ شَرًّا لكم – والخِطابُ الأخيرُ للنبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وآلِ أبي بَكر – بل هوَ خَيرٌ لكم، ففيهِ ثَوابٌ على صَبرِكم، ورِفعَةُ منازِلِكم في الآخِرَة، وظُهورُ كرامَتِكم، واهتِمامٌ وتَعظيمٌ لعِرْضِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، واعتِناءٌ بأُمِّ المؤمِنينَ رَضيَ اللهُ عَنها، فقد أنزلَ اللهُ براءَتَها في آياتٍ تُتلَى في كِتابِهِ إلى قِيامِ السَّاعَة. معَ تَشديدِ الوَعيدِ على المنافِقينَ وبيانِ أساليبِهِمُ العَدائيَّة.

ولكُلِّ مَن تكلَّمَ بهذا الإفكِ العَظيمِ نَصيبٌ منَ العَذاب، والذي ابتدَأَ بهِ وخطَّطَ لهُ وأشاعَهُ مِن بينِهم، لهُ عَذابٌ كبيرٌ على فِعلِهِ الشَّنيعِ هذا. وهوَ رأسُ المنافِقينَ عَبدُاللهِ بنُ أُبَيّ بنِ سَلُول.

*** *** ***

وكانَ رَميُ الشَّياطينِ بالشُّهُبِ مَوجودًا قَبلَ مَبعَثِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام، ولكنْ أحيَانًا بعدَ أحيَان، وبعدَهُ كانتْ كثرَةُ الشُّهب، والحرَسُ الشَّديد، فقالت الجنّ:

{وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً} [سورة الجن: ١٠].

أي أنَّا لا نَدري هذا الأمرَ الذي حدَثَ في السَّماءِ مِنَ الحرَسِ والرَّمي بالشُّهُب، أهوَ شَرٌّ أُريدَ بأهلِ الأرْض، أمْ أرادَ بهم رَبُّهم خَيرًا وصَلاحًا؟

الدخول والخروج

قالَ اللهُ تعالى لرسولِهِ الكريمِ عليهِ الصلاةُ والسلام:

{وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً} [سورة الإسراء: ٨٠].

أي: قُلْ في دُعائكَ أيُّها الرَّسول: {رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ}: وهوَ الإدخالُ المرْضِيُّ لمكانٍ لا يُرَى فيهِ مَكروه، وفُسِّرَ بالمدينَةِ المنوَّرَةِ مَهجَرِهِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام. {وأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ}: أَمْنًا لا أرَى فيهِ مَكروهًا، وهوَ مكَّةُ المكرَّمَة. ففي حَديثِ ابنِ عَبّاسٍ الصَّحيح: كانَ

النبيُّ صلى الله عليه وسلم بمَكَّة، ثمّ أُمِرَ بالهِجرَة، فنَزَلَتْ عَليه: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ...}. اهـ.

واجعَلْ لي مِن عندِكَ قوَّةً كبيرَةً ومَنَعَةً أستَعينُ بها على الأعداءِ وأنتَصِرُ عَليهم.

الدنيا والآخرة

الشكرُ لله تعالى في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة:

{وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة القصص: ٧٠].

أي: هوَ المحمودُ في كُلِّ ما يَفعَلُ ويَختار، في الدُّنيا وفي الآخِرَة، لعَدْلِهِ وحِكمَتِه...

*** *** ***

والملائكةُ عونٌ للمؤمنين، في الدنيا وفي الآخرة:

{نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} [سورة فصلت: ٣١].

أي: تَقولُ مَلائكةُ اللهِ لهم: نحنُ كنَّا في الدُّنيا أنصارَكم وأعوانَكم في الخَير، نُرشِدُكم إلى ما فيهِ فَوزُكم وفَلاحُكم، ونَحفَظُكم بأمرِ اللهِ في الحيَاةِ الدُّنيا، ونُؤنِسُكم في وَحشَةِ القُبور، ونَتلقَّاكم بالأمنِ والكرامَةِ يَومَ الدِّين، ولكم في الجنَّةِ ما تَشتَهي أنفُسُكم مِنَ أنوَاعِ الأطعِمَةِ والفَواكهِ المستَلَذَّة، ولكم فيها كُلُّ ما تَطلُبونَ وتَتمَنَّون.

*** *** ***

والله تعالَى آتَى نبيَّهُ إبراهيمَ أجرَهُ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة:

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [سورة العنكبوت: ٢٧].

أي: جعلَهُ مِنَ السُّعداءِ في الحيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة، فآتاهُ النبوَّة، وهيَ أكمَلُ ما يَكونُ بهِ الإنسَان، معَ الثَّناءِ عَليهِ من جَميعِ أهلِ الأديان، فكانَ إمامًا للنَّاس، وخَليلَ الله، وهو في الآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ الذينَ يُضاعَفُ لهمُ الثَّواب، ويَكونُ في أعلى دَرجاتِ الجنَّة.

*** *** ***

حقيقةُ الدارين:

قالَ الله تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [سورة الأنعام: ٣٢].

أي: ما الحياةُ الدنيا – في غالبِها – إلا كاللَّعبِ واللَّهوِ في عَدَمِ النَّفعِ والثَّبات، فلا يشتَغلُ العاقِلُ بما هوَ باطِلٌ وغُرورٌ ولا بقاءَ له، فهوَ سريعُ الزَّوال، قليلُ الانتِفاعِ به، والدَّارُ الآخِرَةُ وما يتعلَّقُ بها من ثَوابٍ ونَعيم، وخُلودٍ ورِضوانٍ منَ الله، خَيرٌ وأعظَمُ من ذلكَ المتاعِ القَليل، للَّذينَ يَبتَعدونَ عنِ الكُفرِ والعِناد، ويَفتَحونَ قلوبَهم للحقِّ والإيمان، أفلا تَفقَهونَ ذلكَ لتبتَعِدوا عمّا نَهى اللهُ عنه، وتُقبِلوا على ما رغَّبَكم فيهِ وحثَّكم عليه، وفيهِ مَنفَعةٌ لكم في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرة ؟!

*** *** ***

فالآخرةُ أفضلُ وأبقَى:

{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [سورة الأعلى: ١٦]:

بلْ تُقَدِّمونَ الدُّنيا على الآخِرَة، حُبًّا للعَاجِل، وجَهلاً بالبَاقي. والكافِرُ يُعرِضُ عنِ الآخِرَةِ كُفرًا بها، والمسلِمُ إذا فَعلَ فلإيثارِ مَعصيَةٍ وغلَبَةِ نَفس، وقَبلَ ذلكَ لضَعفٍ في الإيمَان.

{وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [سورة الأعلى: ١٧]:

معَ أنَّ تَقديمَ الآخِرَةِ هوَ الذي فيهِ النَّفعُ والفَلاح، فنَعيمُها أفضَل، وأبقَى دَوامًا وعافيَة، والدُّنيَا شَهواتُها مُكدَّرَة، ولذَّاتُها فانيَة، وعَليها حِسابٌ وتَبِعات.

*** *** ***

فويلٌ لمن فضَّلَ الدنيا على الآخرة:

{اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ} [سورة إبراهيم: ٢ – ٣].

أي: وَيلٌ للكافِرِينَ إذا لم يَتَّبِعوا الدِّينَ الحقَّ مِن عَذابٍ أليمٍ يومَ القِيامة، الذينَ يُفضِّلونَ الحَياةَ الدُّنيا، ويَركنونَ إلى لَذَّاتِها وشَهواتِها، ولا يتفَكَّرونَ في الآخِرةِ وجَزائها، ويَمنعونَ النَّاسَ منِ اتِّباعِ الرسُل، ويُريدونَ لدِينِ اللهِ طَريقًا مُلتَويًا يُناسِبُ أهواءَهم الزائغَة، وأفكارَهمُ المنحَرِفَة، أولئكَ في جَهلٍ وضَلال، بَعيدونَ عن الحقِّ والصَّواب.

*** *** ***

وقالَ الصالحونَ من قومِ قارونَ له:

{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [سورة القصص: ٧٧]

أي: واطلُبْ بهذهِ الأموَالِ التي أعطاكَها اللهُ طاعتَهُ وشُكرَهُ والإنفاقَ منها فيما يُرضِيه، ليَجلُبَ لكَ ذلكَ الرِّضَى والثَّوابَ في الدَّارِ الآخِرَة، ولا تَترُكْ حظَّكَ مِنَ الدُّنيا، ممَّا أحلَّ اللهُ لكَ منها مِن المأكَلِ والمشرَبِ والملبَس، والمسكَنِ والمنْكَح.

*** *** ***

والمرتدون فضَّلوا الحياةَ الدنيا على الآخرة، ولذلك ارتدُّوا:

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [سورة النحل: ١٠٧]:

ذلكَ بأنَّ هؤلاءِ المرتدّينَ فضَّلوا الحياةَ الدُّنيا، بشَهواتِها وإغراءاتِها وأهلِها، على الصَّبرِ على طاعَةِ اللهِ والعمَلِ لليَومِ الآخِر، واللهُ لا يَهدي الكافِرينَ إلى الإيمانِ والثَّباتِ عليهِ ما دامُوا رافِضينَ لسُبُلِهِ والطُّرقِ المؤدّيَةِ إليه، ولا يُرشِدُهم إلى الجنَّة، الخاصَّةِ بالمؤمِنينَ الثابتينَ على إيمانِهم.

*** *** ***

وهكذا حياةُ الناس، منهم من يريدُ الدنيا، ومنهم من يريدُ الآخرة:

{مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً} [سورة الإسراء: ١٨].

أي: مَنْ كانَ يَبغي الحَياةَ الدُّنيا ونَعيمَها السَّريعَ الزوَال، مُقتَصرًا فيها على الاستِمتاعِ بالشَّهَواتِ والملذَّات، دونَ اعتِبارٍ لليَومِ الآخِر، فسَنُعطيهِ منها ما نَشاءُ وليسَ كُلَّ ما يُريد، لمن نُريدُ منهم لا كُلّهم، ثمَّ هيَّأنا لهُ جَهنَّمَ يَدخلُها مُهانًا ذَليلاً، مُبعَدًا مَطرودًا مِن رَحمَةِ الله.

{وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً} [سورة الإسراء: ١٩]:

ومَنِ ابتَغَى الدّارَ الآخِرَة، وصَبرَ على تَكاليفِ الدّينِ الحقّ، والتزَمَ بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِهِ صلى الله عليه وسلم، وكانَ مُؤمِناً صادِقًا في إيمانِه، مُصَدّقًا بالحِساب، والثَّوابِ والعِقاب، فسَيُثابُ على عمَلِهِ خَيرًا، ويَلقَى جَزاءً مَقبولاً، ويُهنَّأُ بذلكَ من قِبَلِ الملائكةِ الكِرام.

*** *** ***

وهناك من يعملُ للدنيا وحدَها:

{وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [سورة آل عمران: ١٤٥].

أي: مَن كان يَعملُ للدُّنيا وحدَها أعطاهمُ اللهُ منها وحَرمَهم ثوابَ الآخِرة، ومَن كانَ يَعملُ للآخِرةِ أعطاهمُ اللهُ منها ولم يَحرِمْهم نصيبَهم منَ الدُّنيا، بحسَبِ عَملِهم وشُكرِهم.

وكذا قولهُ تعالى:

{مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً} [سورة النساء: ١٣٤].

أي: مَن كانَ يُريدُ بعَملهِ مَغنماً دنيويًّا لا يَتجاوَزُه، فإنَّ لدَى اللهِ ما يُعطيهِ لعِبادهِ مِن منافعِ الدُّنيا إضافَةً إلى ما هوَ أكبرُ وأنفَع، وأهَمُّ وأدوَم، وهوَ ثوابُ الآخِرة، وهوَ لمن آمنَ وأحسَن، فمن سألَهُ منهما أعطَاه، ومنِ اقتصرَ على الدُّنيا حَرَمَهُ الآخِرة، كالمنافِقينَ الذينَ أظهَروا الإيمانَ ليَنالوا مَغنَماً معَ المسلِمين، والكافِرينَ الذينَ همُّهم ما في الدُّنيا، لأنَّهم لا يؤمِنونَ بالآخِرَة. واللهُ يَسمَعُ دعاءَ النَّاس، بَصيرٌ بما يَطلبونَه، مُطَّلِعٌ على غَرَضِهم في ذلك.

ولا نصيبَ لهُ مِن نعيمِ الآخرة:

{مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ} [سورة الشورى: ٢٠].

أي: مَن كانَ يُريدُ بأعمالِهِ ثَوابَ الآخِرَةِ أعطَيناهُ إيَّاهُ وضاعَفناهُ له، ومَن كانَ يُريدُ بأعمالِهِ مَتاعَ الدُّنيا وطيِّباتِها أعطَيناهُ منهُ نَصيبَه، وحرَمناهُ ثَوابَ الآخِرَة، فهوَ لم يَعمَلْ لها ولم يَطلُبْها.

*** *** ***

والناسُ يعلَمون ظاهرَ الحياةِ الدنيا..

{يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [سورة الروم: ٧].

أي: إنَّما يَعلَمُ الناسُ ظاهِرَ ما هُم فيهِ مِنَ الحيَاةِ الدُّنيا، كأمرِ التكَسُّبِ والتِّجارَة، والغِراسِ والحَصاد، والشَّهواتِ والملذَّات، وهم سَاهونَ عنِ الدَّارِ الآخِرَة، جاهِلونَ بها، لا يَتفَكَّرونَ فيها ولا يَعمَلونَ لها.

*** *** ***

وفي غزوةِ أُحد، قالَ الله تعالى:

{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران: ١٥٢].

أي: صَدقَ اللهُ وعدَهُ معَكم بالنَّصرِ في غزوةِ أُحُد، كما كانَ في أوَّلِ النَّهار، عندَما سلَّطكمُ اللهُ عليهِم، فصِرتُم تَقتلونَهم، وكِدتُم أنْ تَستأصِلوا شأفتَهم، حتَّى إذا جَبُنَ بعضُكم في القِتال، نتيجةَ النزاعِ والخِصامِ الذي دارَ بينَكم، وعصَى بعضُكمُ الآخَرُ – وهم الرُّماةُ – قائدَهُم محمَّداً صلى الله عليه وسلم، وكانَ قد أمرَهم ألاّ يَبرَحُوا مكانَهم، فنَزلوا يَنهَبونَ في العَسكر، فبقيَ ظهرُ المسلِمينَ مَكشوفاً للعدوّ، أراكمُ اللهُ الفشَلَ بعدَ النصر، فقد شابَ إخلاصَكم مَطامِعُ، فمنكم مَن رَغِبَ في الغَنائمِ عندما رَأى هَزيمةَ العدوّ، ومنكم مَن أرادَ وجهَ اللهِ في جِهادهِ فثَبتَ في مَكانهِ حتَّى يَتلقَّى أوامرَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم، فكانَ نتيجةَ ذلكَ أن صَرَفَ قوَّتكم واجتماعَكم عنِ العدوّ، ففَشِلتُم، ليَختَبِرَ إيمانَكم، ويَمتحِنَ قوَّةَ صُمودِكم وعَزيمَتِكم وتَمسُّكِكم بدينِكم، ولتَعتَبروا ممّا أصابَكم، ولا تُكرِّروه، وغفرَ لكم ضَعفَكم وتنازُعَكم وعصيانَكم، وهذا مِن فضلِ اللهِ عليكم ورحمتهِ بكم.

*** *** ***

وخيَّرَ رسولُ اللهِ زوجاتهِ بين نعيمِ الدنيا أو الآخرة، عندما طلبنَ منه زيادةَ النفقة:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً} [سورة الأحزاب: ٢٨].

أي: إنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ السَّعَةَ والتنَعُّمَ في الحيَاةِ الدُّنيا وزُخرُفَها – وكُنَّ سَألْنَهُ النفَقَةَ وراجَعْنَهُ في ذلك – فأقبِلْنَ لأُمَتِّعْكُنَّ مُتْعَةَ الطَّلاقِ – وهوَ مالٌ أو مَتاعٌ يُعطَى لهُنَّ تَكريمًا لهنَّ – وأُطَلِّقْكُنَّ طَلاقًا حسَنًا لا ضَرَرَ فيه.

{وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً} [سورة الأحزاب: ٢٩]:

وإنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ رَسُولَ اللهِ والثَّوابَ الجَزيلَ مِن عندِ الله، والنَّعيمَ الباقي في الآخِرَة، وتَصبِرْنَ على الرسُولِ في الحالِ التي هوَ فيها، فإنَّ اللهَ قد هيَّأَ للمُحسِناتِ منكُنَّ، جَزاءَ إحسَانِهِنّ، ثَوابًا عَظيمًا، ورِزقًا كريمًا.

*** *** ***

والدُّنيا متاع، والآخرةُ خيرٌ وأبقَى:

{فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [سورة الشورى: ٣٦].

أي: فما حصَلتُم على شَيءٍ مِن زينَةِ الدُّنيا ونَعيمِها، فمَتاعٌ تتَمتَّعونَ بهِ مُدَّةَ حياتِكم، وتَزولُ عنكم بزَوالِكم، وما عندَ اللهِ مِنَ الثَّوابِ في الآخِرَةِ أفضَلُ وأدوَم، للَّذينَ آمَنوا برَبِّهم وأخلَصوا لهُ الطَّاعَة، ويَعتَمِدونَ عليهِ في أُمورِهم كُلِّها.

وقالَ مؤمنُ آلِ فرعون:

{يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} [سورة غافر: ٣٩]:

يا قَوم، إنَّ هذهِ الحياةَ الدُّنيا استِمتاعٌ يَسيرٌ يَزولُ بعدَ حين، والدَّارُ الآخِرَةُ هيَ التي فيها الحياةُ الحقيقيَّة، التي لا تَزولُ ولا تَنقَطِع.

*** *** ***

وليعرفِ المرءُ ما يدعو، وليتخيَّرْ أحسنَهُ، لا كما يدعو به بعضُهم من دعاءٍ غيرِ واف، أو غيرِ دالٍّ على المطلوب، أو متعدٍّ فيه. كما حَكى القرآنُ جانبًا منه في الآياتِ الكريمة، وزمانهُ في الحجّ:

{فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} [سورة البقرة: ٢٠٠].

أي أن منَ الناسِ مَن لم يُوفَّقْ في الدُّعاء، فيَقولُ أحدُهم: ربَّنا زِدنا منَ النِّعَمِ والخَيراتِ في الدُّنيا، واجعَلْ هذا العامَ عامَ خِصْبٍ وغَيْث. فمِثلُ هذا لا نَصيبَ لهُ في الآخِرَة، لأنَّهُ لم يَسألْ لنفسهِ خيرَها.

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [سورة البقرة: ٢٠١].

أي أن هناكَ مَن يَدعو فيُحسِنُ الدُّعاء، ويَجمَعُ فيه بين خَيرَي الدُّنيا والآخِرَة، فَقول: ربَّنا أعطِنا جِماعَ الخَيرِ في الدنيا والآخِرَة.

وهو كأنْ يدعوَ لنفسهِ بالرزقِ الواسع، والزوجةِ الصالحة، والمركبِ الهنيء، والثناءِ الطيِّب، والعلمِ النافِع.

كما يدعو لنفسهِ بحُسنِ الخاتمة، والأمنِ يومَ الحشرِ والحِساب، ودخولِ الجنَّةِ معَ الأبرار، والوقايةِ من عذابِ النار.

{أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ} [سورة البقرة: ٢٠٢].

فهؤلاءِ سنُعطيهم نصيبَهمُ الذي دَعَوا به، مِن قبولِ حجٍّ وغيرِه، واللهُ سريعٌ في الحِساب، يُحاسِبُ عبادَهُ بسُرعةٍ فائقة، على كثرتِهم وكثرةِ أعمالِهم.

*** *** ***

والعذابُ يكونُ في الدنيا، ويكونُ في الآخرة، والأخيرُ أشدّ:

{لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ} [سورة الرعد: ٣٤].

أي: للكافِرِينَ عَذابٌ مؤلِمٌ في الحَياةِ الدُّنيا، عندما يَنتَصِرُ عَليهمُ المسلِمونَ فيَقتُلونَهم ويأسِرونَهم، ويَغنَمونَ أموالَهم، ولهم في الآخِرَةِ عذابٌ أشَدُّ وأبقَى، عندَما يَدخُلونَ جَهنَّمَ فتُسعَرُ بهمُ النَّار، وليسَ هناكَ مانِعٌ وحاجِزٌ يَقيهمُ العَذاب، ولا يَشفَعُ لهم عِندَهُ أحَد.

وفي نوعٍ آخرَ من العذاب، في الدنيا والآخرة:

{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة النور: ٢٣].

أي: إنَّ الذينَ يَقذِفونَ العَفيفاتِ البَعيداتِ عنِ التُّهَم، المؤمِناتِ، بالزِّنا، أُبعِدوا منَ الرَّحمَة، فعُذِّبوا في الدُّنيا بالحَدّ، وفي الآخِرَةِ بالنَّار، ولهم معَ اللَّعنِ عَذابٌ كبيرٌ هائل.

*** *** ***

وقالَ الله تعالى في فرعونَ وآله:

{وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ} [سورة القصص: ٤٢].

أي: ولعَنَّاهُم في هذهِ الدُّنيا، ويَلعَنُهم الملائكَة، والمؤمِنونَ يَلعَنونَهم خلَفًا عن سلَفٍ حتَّى قيامِ السَّاعَة، وهم في يَومِ القيامَةِ مِنَ المبعَدينَ المطرودينَ مِن رَحمَةِ الله، وسيَكونونَ في أَسوَإِ حالٍ وأشَدِّ عَذاب.

الذكر والأنثى
(الرجال والنساء)
(البنون والبنات)

الله تعالى خلقَ الذكرَ والأنثى:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} [سورة النساء: ١]:

أيُّها النَّاس، أطِيعُوا اللهَ واحذَروا مخالفةَ أمرِه، واتَّقوا عذابَه، هوَ الذي خَلقَكُم مِن نفسٍ واحِدة، هيَ آدم، وخَلَقَ منهُ زوجَهُ حَوّاء، خَلَقَها مِن ضِلْعٍ له، ونَشرَ منهما ذُكوراً وإناثاً كثيرِين.

*** *** ***

قالَ نبيُّ الله لوطٌ عليهِ السلامُ لقومه:

{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [سورة النمل: ٥٥].

أي: أتأتونَ الرِّجالَ في أدبارِهم لقَضاءِ شَهوَتِكم وتدَعُونَ ما خلقَ اللهُ لكم مِنَ الزَّوجاتِ وهُنَّ محَلُّ الشَّهوَة؟ بل أنتُم سُفَهاءُ ماجِنون، تَجهَلونَ عاقِبَةَ فِعلِكمُ الفاحِش، الذي هوَ انتِكاسَةٌ للفِطرَةِ والرجُولَة، وشُذوذٌ وانحِرافٌ في السُّلوك، وأمراضٌ جنسيَّةٌ وغَيرُ جنسيَّة، وعُقوبَةٌ في الدُّنيا، وعَذابٌ في الآخِرَة.

*** *** ***

وكان من شركِ المشركينَ قولُهم إن للهِ بنات، ومع ذلك يكرهونَ إذا رُزقوا ببنات!

{أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً} [سورة الإسراء: ٤٠].

أي: كيفَ تَقولونَ إنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ أيُّها المشرِكونَ الجاهِلون؟ فهلِ اختارَ لكم رَبُّكم أولادًا ذُكورًا واتَّخَذَ لنَفسِهِ منَ الملائكَةِ إناثًا؟ كيفَ تَجعَلونَ لرَبِّكم شَيئًا تَكرَهونَهُ لأنفسِكم؟ إنَّكم تَقولونَ قَولاً مُستَنكَرًا مِن أساسِه، عَظيمًا في جُرأتِهِ وشَناعَتِه.

ومثلهُ قولهُ تعالى:

{فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ} [سورة الصافات: ١٤٩].

{أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ} [سورة الصافات: ١٥٣].

*** *** ***

والله يهبُ لمن يشاءُ ذكورًا أو إناثًا..

{يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}.

أي: يَرزُقُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ البناتِ دونَ البَنين، ويَرزُقُ مَن يَشاءُ منهمُ البَنينَ دونَ البَنات، أو يَجمَعُ لهم بينَ الذُّكورِ والإنَاث، ويَجعَلُ مَن يَشاءُ منهم عَقيمًا لا يُولَدُ له، وهوَ عَليمٌ بأحوالِ عِبادِهِ وبمَن يَستَحِقُّ منهم هذا دُونَ ذاك، قادِرٌ على ما يَشاءُ مِن ذلك، ولهُ الحِكمَةُ العُليا في الخَلقِ والتَّدبير.

*** *** ***

وفي قصةِ مريمَ عليها السلام:

{إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ} [سورة آل عمران: ٣٥].

أي: اذكرْ ما قالَتهُ أمُّ مريمَ زَوجَةُ عِمرانَ بعدَ أنَ حَمَلَت، قالت: اللهمَّ إنِّي نَذَرتُ أنْ أجعلَ حَمْلِي خالِصاً لعبادتِك، مُتَفَرِّغاً لخدمةِ الكنيسةِ في بيتِ المقدس، فتَقبَّلْ منِّي ذلك، فأنتَ الكريمُ المجيب، تَسمعُ دُعائي وتَضرُّعي إليك، وتَعلمُ صِدقَ نيَّتِي في ذلك.

{فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [سورة آل عمران: ٣٦].

أي: فلمّا وَضَعتْ حَمْلَها قالت: اللهمَّ إنِّي وَضعتُها أنثَى، واللهُ عالمٌ بما رُزِقَتْ به، قالت: وليسَ الذكرُ كالأنثَى، في العِبادةِ والقوَّة، والصبرِ على المشاقّ، وخاصَّةً في خدمةِ الكنيسة، التي نَذَرتْ أنْ تُقَدِّمَ حَمْلَها لها. وكانَ الصبيانُ همُ الذينَ يَنهضونَ لمثلِ هذا وليسَ الإناث. قالت: وسمَّيتُها مَرْيم، وقدْ عَوَّذْتُها وذرِّيتَها بكَ منَ شرِّ الشيطانِ المُبْعَدِ من رحمتِك، وأودعتُها حمايتَكَ ورعايتَك.

*** *** ***

كلٌّ يرضَى بما قسمَ الله له، من ذكرٍ وأنثى:
{وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً} [سورة النساء: ٣٢].
في حَديثٍ صَحيحٍ رواهُ الترمذيُّ والحاكمُ وأحمدُ، أنَّ أمَّ سَلَمةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: يَغزو الرِّجالُ ولا تَغزو النِّساء، وإنَّما لنا نِصفُ الميراث: فأنزلَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى: {وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}.
أي: ولا تَتمنَّوا ما أعطاهُ اللهُ تَعالَى بَعضَكم وميَّزَهُ بهِ عَليكم، فلِكلٍّ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ نَصيبُهُ الذي قَسَمَهُ اللهُ له، فهيَ قِسْمَةٌ صَادِرَةٌ مِن حَكيمٍ خَبير، وعلى الكلِّ أنْ يَرضَى بما قُسِمَ له، ولا يَتمنَّى حَظَّ الآخَرِ ولا يَحسُدُهُ على ذلك، واسألوا اللهَ مِن إحسانهِ وإنعامِه، فإنَّ ما عندَهُ كثيرٌ لا يَنْفَدُ أبَداً، كريمٌ وَهّاب، عَليمٌ بمَن يَستَحِقُّ فَضلَهُ فيُعطيه، ممَّن لا يَستَحِقُّهُ فيَمنَعُه، ولذلكَ جَعلهم مَراتبَ بِحكمَتِه، بحَسَبِ استعدادِهم وتَفاوتِ قابليَّتِهم.

*** *** ***

والتركةُ في الإسلامِ للرجالِ والنساء، فلا يُحرَمْنَ منها كصنيعِ الجاهلية:
{لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا} [سورة النساء: ٧].
أي: الجَميعُ سواءٌ في أصلِ الوِراثة، فللرِّجالِ نَصيبُهم ممّا تركَهُ الوالدانِ وأقرِباؤهم، وللنساءِ كذلكَ نَصيبُهنَّ ممّا تركَ الوالدانِ وأقرِباؤهنّ، سواءٌ كانتِ التركَةُ قَليلةً أو كَثيرة، حقًّا واجِباً مَفروضاً.

*** *** ***

وللرجلِ قوامةٌ عليها:

{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً} [سورة النساء: ٣٤].

مِن أسبابِ استِحقاقِ الرِّجالِ أكثرَ مِنَ النساءِ في الميراث، أنَّ لهمُ القَوَامةَ عَليهنَّ. وهيَ القيامُ بالمصالحِ والتدبيرِ والتأديب، وذلكَ بما فضَّلَ اللهُ الرجالَ على النساءِ في أمورٍ عِدَّةٍ مُستَنتَجةٍ ومُشاهَدة، ولذلكَ كانتِ النبوَّةُ مُختَصَّةً بالرِّجال، وفيهم مِنَ الصِّفاتِ والخصائصِ ما يُؤهِّلُهم لأعمالٍ ووظائفَ لا تَقدِرُ عليها النِّساء، أو أنَّها غيرُ مُناسِبةٍ لهنَّ أصلاً، كالجِهاد، والإمامةِ الكبرى، والأذان، والخُطبة، والشَّهادةِ في الحدودِ والقِصاص، وتَحَمُّلِ الدِّيَةِ في القَتلِ الخطأ، والوِلايةِ في النِّكاحِ والطَّلاقِ والرَّجعة، وعددِ الأزواج، وجوانبَ كثيرةٍ في الحزمِ ورَزانةِ الرأي. وكذلكَ بما يُنفقونَ مِن أموالِهم، منَ المهرِ والنفَقةِ على النِّساءِ وعلى الأسرَةِ جميعِها، وأمورٍ أخرَى أوجبَها اللهُ عليهم في كتابهِ وسُنَّةِ نبيِّهِ صلى الله عليه وسلم.

الرجال والنساء = الذكر والأنثى

الرحمة والعذاب = الرحمة والعقوبة

الرحمة والعقوبة

وصفَ الله تعالَى صَحابةَ رَسولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنهم أشِدَّاءُ عَنيفُونَ على الكُفَّارِ أعداءِ الدِّين، رُحَماءُ مُتوادُّونَ معَ إخوانِهمُ المؤمنين:

{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} [سورة الفتح: ٢٩]:

*** *** ***

وقالَ الله تعالى في رحمتهِ وعذابه:

{رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ} [سورة الإسراء: ٥٤].
أي: رَبُّكم مُطَّلِعٌ على نفُوسِكم، ويَعلَمُ استِعدادَ كُلٍّ منكم وقابليَّتَهُ للهُدَى أو الضَّلال، فإنْ شَاءَ رَحِمَكم فوفَّقَكم للإيمان، وإنْ شَاءَ خَذَلَكم عنِ الإيمانِ فأماتَكم على الكُفرِ والضَّلال، بعِلمِهِ وحِكمَتِه، وعَذَّبَكم يَومَ القيامَةِ بكُفرِكم به، {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} [سورة الكهف: ٤٩].

وقالَ سبحانه:
{يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ} [سورة العنكبوت: ٢١].
أي: اللهُ يُعَذِّبُ مَن يَشاءُ مِن العِباد، وهم الذينَ اختاروا طَريقَ الضَّلالِ وكفَروا بالحِسابِ والجَزاء، ويَرحَمُ مَن يَشاءُ منهم، وهم الذينَ آمَنوا واختاروا طَريقَ الحقِّ والهُدَى، وصبَروا على ما كَلَّفَهم اللهُ به، وآمَنوا بالبَعثِ والحِساب، وانتَظَروا ثَوابًا ورَحمَةً مِن رَبِّهم، فإليهِ تُرجَعونَ جَميعًا أيُّها النَّاس، مؤمِنُكم وكافِرُكم، فيُحاسِبُ كُلاًّ بما عَمِل، ويُجازيهم بالعَدل.

*** *** ***

ووصفَ الله تعالَى جنَّا أسلَموا بأنهم يرجون رحمةَ الله ويخشونَ عذابه:
{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً} [سورة الإسراء: ٥٧].
أي أنَّ أولئكَ الذينَ يَدعُوهم المشرِكونَ ويَعبدونَهم (وكانوا جِنًّا أسلَموا) يَطلبونَ منَ اللهِ القُرْبَ إليهِ بطاعَتِهِ وعِبادَتِه، ويَنظُرونَ في أفضَلِ وأحسَنِ ما يَتقَرَّبونَ بهِ إليهِ سُبحانَهُ ليَفعَلوه، ويَرجونَ بذلكَ رَحمتَهُ وعَفوَه، ويَخافونَ عَذابَهُ ويَتَّقونَه، وإنَّ عَذابَ اللهِ شَديدٌ مُخيف، يَحذَرُهُ العاقِلون، ويَحتَرِزُ منهُ العَارِفون.
وفي الصَّحيحَينِ وغَيرِهما أنَّها نزَلتْ في نَفَرٍ منَ العرَبِ كانوا يَعبدونَ نفَرًا منَ الجِنّ، فأسلمَ الجِنّيون، والإنسُ الذينَ كانوا يَعبدونَهُمْ لا يَشعُرون.

الرشد والغيّ = الهدى والضلال

الرضا والسخط

رضى الله تعالى غايةُ كلِّ مسلم. ومن سخطَ الله عليه أدخلهُ النار.

{أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ} [سورة آل عمران: ١٦٢].

أي: هَل يَتساوَى مَن سعَى في رِضَى اللهِ بطاعتهِ واتِّباعِ سيرةِ نبيِّهِ مع مَن رجعَ بغضبِ اللهِ بسببِ مَعصيتهِ وغُلولِه، فكانَ مصيرهُ جهنَّم؟ وبئسَ هذا المكانُ الذي ليسَ فيه سِوَى العَذابِ والنَّكال.

{هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [سورة آل عمران: ١٦٣].

وكِلا الطَّرفينِ متفاوتانِ في مَنازلِهما يومَ القيامة؛ دَرجاتٌ في الجنَّة، ودَرَكاتٌ في النّار. واللهُ بَصيرٌ بأعمالِهم ودَرَجاتِها، ويُجازيهم بحَسَبها.

وقد استحقَّ المنافقونَ العذابَ لأنهم اتَّبعوا ما أسخطَ الله:

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [سورة محمد: ٢٨].

أي: وهذا الذي استحَقَّهُ المنافقونَ ونالُوهُ مِنَ العَذاب، بسبَبِ أنَّهُمُ اتَّبَعوا ما أغضبَ اللهَ وأسخطَهُ مِنَ الكُفرِ والضَّلالِ والمعاصي، وكَرِهوا ما يَرضاهُ مِنَ الإيمانِ والجِهادِ والطَّاعَة، فأبطلَ اللهُ ثوابَ أعمالِهم.

*** *** ***

والأعمالُ تدلُّ على وجهاتِ أصحابها ونياتهم:

{أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [سورة التوبة: ١٠٩].

أي: أفمَنْ أسَّسَ بُنيانَ دِينِهِ على قاعِدةٍ مُحكَمة، هيَ طاعةُ اللهِ ومَرضاتُه، أفضَل، أمْ مَن أسَّسَهُ على طَرَفِ حَفيرةٍ مُتَصَدِّعةٍ مُشرِفَةٍ على السُّقوط، فأدَّى ذلكَ إلى انهيارِهِ وسقوطِهِ في نارِ جَهنَّم، فيكونُ ذلكَ جزاءَهُ ومصيرَه؟ واللهُ لا يُصلِحُ عَملَ المفسِدين.

الرطب واليابس

قالَ ربُّنا سبحانه:

{وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [سورة الأنعام: ٥٩].

أي: يَعلَمُ عددَ ما يَسقطُ مِن ورقِ الشجرِ وما يَبقَى عليه، وليسَ هناكَ مِن أمرٍ إلاّ ويَعلمُ حركتَهُ وأحوالَه، مهما دَقَّ وأينَما كان، فلا توجَدُ حَبَّةٌ في باطنِ الأرض، مهما كانَ بَعيداً ومُظلِماً، ولا جَمادٌ أو نَباتٌ أو حَيوان، أو أيُّ شَيء، إلاّ وهوَ في علمِ اللهِ ومُدَوَّنٌ في اللَّوحِ المحفُوظ.

الرفع والخفض

في حضرةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم يُخفَضُ الصوتُ ولا يُرفع:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [سورة الحجرات: ٢]:

أيُّها المؤمِنون، لا تُعلُوا أصواتَكم في حَضرَةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولا تَرفَعوها فَوقَ الحَدِّ الذي يَبلُغُهُ صَوتُه، ولا يَكنْ جَهرُكم لهُ بالحَديثِ كجَهرِ بَعضِكم لبَعض، بلِ اجعَلوهُ أخفَضَ مِن صَوته، حتَّى لا تَبطُلَ أعمالُكم وأنتُم لا تَدرون.

{إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [سورة الحجرات: ٣]:

إنَّ الذينَ يَخفِضُونَ أصواتَهم عندَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إجلالاً له، أولئكَ الذينَ أخلصَ اللهُ قُلوبَهم للتَّقوَى، وجعلَها مَحلاً للطَّاعَةِ والخَشيَة، لهم في الآخِرَةِ مَغفِرَةٌ لذُنوبِهم، وثَوابٌ كبيرٌ على طاعَتِهم.

*** *** ***

والقيامةُ تخفضُ وترفع!

{خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ} [سورة الواقعة: ٣].

أي: تَخفِضُ أعداءَ اللهِ إلى دركَاتِ النَّار، وإنْ كانوا أعِزَّاءَ في الدُّنيا، وتَرفَعُ أولياءَهُ إلى الجِنانِ العاليَة، وإنْ كانوا ضُعَفاءَ في الدُّنيا.

الزواج والطلاق

قالَ اللهُ تعالَى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً} [سورة الأحزاب: ٤٩]:

أيُّها المؤمِنون، إذا عقَدتُم على المؤمِنات، ثمَّ طلَّقتُموهنَّ قبلَ أنْ تُجامِعوهُنّ، فلا تَلزَمهُنَّ العِدَّة، ولهنَّ أنْ يتزَوَّجْنَ بعدَ الطَّلاقِ مُباشَرة، فأعطوهُنَّ المتعَة، وهوَ ما تُكْرَمُ بهِ المرأةُ المطَلَّقةُ مِن مالٍ أو مَتاع، ويَختَلِفُ بحسَبِ حالِ الزَّوجِ وعُرفِ البلَد. وخَلُّوا سَبيلَهنَّ مِن غَيرِ إضرارٍ بهنّ، فلا تُؤذوهُنَّ ولا تُسمِعوهُنَّ كلامًا جارِحًا.

سبيل الله وسبيل الطاغوت

يقولُ اللهُ تعالى في نهجِ مَن يقاتِلون:

{الَّذِينَ آَمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [سورة النساء: ٧٦].

أي: إنَّ المؤمِنينَ إنَّما يُقاتِلونَ لأجلِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ وطلبًا لمرضاتِه، فهوَ وليُّهُم وناصرُهم ومُوصِلُهم إلى جنَّته.

والكافِرونَ يُقاتِلونَ في طَاعةِ الشيطان، الذي يُوصِلُهم إلى الكُفر، فالنَّار. فقاتِلوا يا أولياءَ اللهِ وأنصارَ نَبيّه، قاتِلوا الكافِرينَ الذينَ والَوا الشَّيطان، ولا تَخشَوا تَهويلَه، فإنَّ كيدَهُ ضَعِيف، ومَكرَهُ يَبور، وإنَّ كيدَهُ للمُؤمنينَ بالمقارنةِ إلى كيدِ اللهِ سبحانَهُ وتعالَى للكافرينَ ضَعيفٌ لا يُؤبَهُ به، فلا تَخافوا أولياءَه، واللهُ وليُّكم وناصرُكم.

السبيل الواحد والمتفرق

قالَ الله تعالى:

{وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة الأنعام: ١٥٣].

تفسيرها: قلْ أيُّها النبيّ: إنَّ الإسلامَ هوَ صِراطي المستَقيمُ الذي لا اعوِجاجَ فيه، فهوَ ما أسلُكهُ وأدعو إليه، فاتَّبِعوا تعاليمَهُ واعمَلوا به، ولا تتَّبعوا الضَّلالات، والبِدَعَ والشُّبهات، فتُفرِّقَكم حسَبَ تَفرُّقها عن دينِ الله. هذا ما أمرَكمُ اللهُ به، لتَبتَعِدوا عنِ المراءِ والخصُومات، والاختلافِ والفُرقة، التي أهلكتْ مَن قبلَكم.

السجود والتعالي

طلبَ الله تعالى من ملائكتهِ أن يسجدوا لآدمَ، بعدَ أن سوّاهُ ونفخَ فيه الروح، سجودَ تكريمٍ لا عبادة، فسجدوا له كلُّهم، إلا إبليسَ اللعين، أبَى أن يسجدَ له:

{قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ}؟ [سورة ص: ٧٥]:

قالَ اللهُ له: يا إبليس، ما الذي مَنعَكَ أنْ تَسجُدَ لآدمَ الذي خلَقتُهُ بيَدَيّ، أتَكبَّرْتَ عمَّا أمَرتُكَ به، أمْ أنَّكَ مِنَ العالِينَ الذينَ لا يَخضَعونَ لأمر؟

{قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [سورة ص: ٧٦]:

قالَ إبليسُ اللَّعين: أنا أفضَلُ مِن آدم، فقد خلَقتَني مِن نار، وخلَقتَهُ مِنَ طِين، والنَّارُ أشرَفُ مِنَ الطِّين، فلماذا أسجُدُ له؟

ومِقياسُهُ فاسِد، وعِصيانُهُ ظاهِر، فالفَضلُ لمن جعلَ اللهُ لهُ الفَضل، والطِّينُ أفضَلُ مِنَ النَّار، فَفيهِ الرَّزانَةُ والحِلمُ والصَّبر، وهوَ محَلُّ النَّباتِ والنموّ... والنَّارُ مِن شَأنِها الإحرَاقُ والطَّيش، والجُرأةُ والسُّرعَة، ولهذا كانَ الشَّيطانُ طائشًا، عاصِيًا لرَبِّه.

*** *** ***

وعبادُ الله المؤمنون يسجدونَ لله ولا يستكبرون:

{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [سورة السجدة: ١٥].

أي: إنَّما يُصَدِّقُ بآياتِنا الذينَ إذا وُعِظوا بها استَمَعوا إليها وعَمِلوا بما فيها، مِن غَيرِ تَرَدُّدٍ ولا تَكبُّر، وبادَروا إلى السُّجودِ لرَبِّهم على وُجوهِهم؛ تَواضُعًا لهُ وخَوفًا مِن عَذابِه، ونزَّهوهُ عن كُلِّ ما لا يَليقُ بذاتِهِ وأسمائِهِ وصِفاتِه، وأثنَوا عليهِ الخَيرَ كُلَّه، لِما هَداهُم إلى دِينِه، وأسبَغَ عَليهم مِن نِعَمَه، وهم لا يَستَكبِرونَ عنِ الإيمانِ بهِ وطاعَتِهِ والسُّجودِ له.

السرُّ والعلن

(الإسرار والإعلان)

(الإخفاء والإظهار)

الله تعالى يعلمُ ما نُخفي وما نُظهرُ من أقوالٍ وأفعال:

{وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [سورة الأنعام:٣]

وقالَ خليلُ الرحمنِ إبراهيمُ عليه السلام:
{رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فِيَ الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء} (سورة إبراهيم: ٣٨].
تفسيرها: ربَّنا إنَّكَ مُطَّلِعٌ على أقوالِنا وأعمالِنا، وما نَجهَرُ بهِ وما نُسِرّ، ولا يَخفَى على اللهِ شَيءٌ صَغيرٌ ولا كَبير، إنْ ظهَرَ أو بطَن، في الأرضِ أو في السَّماء، فلكَ اللهمَّ خالِصُ تَضَرُّعي ودُعائي، وعُبوديَّتي وتَذَلُّلي.

*** *** ***

وقالَ سبحانهُ مبيِّنًا لعبادهِ استواءَ الإظهارِ والإخفاءِ عنده:
{قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة آل عمران: ٢٩].
أي: إنَّكم إنْ أخفَيتُم ما في قلوبِكم مِن مَودَّةِ الكافِرين، أو أبدَيتُم موالاتَكم لهم قَولاً وفِعلاً، فإنَّ اللهَ عالِمٌ بالسَّرائرِ والظواهِر، لا يَخفَى عليهِ شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماء، وهوَ قادِرٌ على عُقوبتِكم إنْ لم تَنتهوا عمّا نَهاكم عنه، وقادِرٌ على كلِّ شَيء. فاتَّقوا الله، ولا تَرتَكبوا ما مَنعكم منه.

وقالَ عزَّ مِن قائل:
{وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [سورة طه: ٧].
أي: وإنْ تَرفَعْ صَوتَكَ أيُّها الإنسَانُ فإنَّهُ يَعلَمُه، ويَعلَمُ ما أسرَرتَ إلى غَيرِكَ ولم تَرفَعْ بهِ صَوتَك، بل أخفَى مِن ذلك، كالَّذي تُسِرُّهُ في نَفسِك، أو خاطِرٍ يَمُرُّ ببالِك.

*** *** ***

وقالَ اللهُ لرسولِهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في شأنِ مولاهُ زيد:

{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً} [سورة الأحزاب: ٣٧].

أي: واذكُرْ قَولكَ – أيُّها النبيُّ – لمولاكَ زَيدٍ، الذي أنعمَ اللهُ عليهِ بالإسلام، وأنعَمتَ عليهِ بالعِتقِ مِنَ الرِّقِّ ومَزيدِ القُرب: أَبْقِ على زَوجَتِكَ زَينَب، واتَّقِ اللهَ في أمرِها، ولا تُطَلِّقْها. وكانَ قدِ اشتَدَّ لِسانُها عليه، رَضيَ اللهُ عنهما. وتُسِرُّ في نَفسِكَ أيُّها الرَّسُولُ ما اللهُ مُظهِرُه، وهوَ أنَّ زَيدًا سيُطَلِّقُها وتتَزَوَّجُها بعدُ، وتَخافُ منِ اعتِراضِ النَّاسِ ولَومِهم، لكَونِكَ تزوَّجتَ زَوجةَ مَنْ تبَنَّيتَهُ سابِقًا بعدَ طَلاقِها منه، واللهُ أحَقُّ وأَولَى أنْ تَخافَهُ في كُلِّ أمر...

*** *** ***

وقالَ تعالى في شأنِ الكفّار:

{لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} [سورة النحل: ٢٣].

تفسيرها: حقًّا إنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على ما يُضمِرُ هؤلاءِ الكافِرونَ منَ الإنكار، وما يُظهِرونَهُ منَ الاستِكبار، واللهُ يَبغُضُ المستَكبِرينَ الذينَ يَتعالَونَ على الحَقّ، فلا يُرتَجَى منهمُ اقتِناعٌ وإيمان.

وأمرَ رسولَهُ أن يقولَ للمشركين:

{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ} [سورة الأنبياء: ١١٠].

أي: اللهُ عالِمٌ بما تَعمَلون، مِنَ الكَيدِ للإسلام، وتَكذيبِ رَسولِه، وعَيبِ أهلِه، يَعلَمُ ما تُظهِرونَهُ مِن أقوالٍ وإنْ كثُرَت، فلا يَشغَلُهُ سَمعُ كلامٍ عن سَمعِ آخَر، ويَعلَمُ ما تُخفُونَهُ في صُدورِكم مِن أسرارٍ وإنْ دَقَّت.

*** *** ***

ودعا نوحٌ قومَهُ سرًّا وجهرًا:

{ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً} [سورة نوح: ٨ – ٩]:

ثمَّ إنّي دعَوتُهُمْ جَهرَةً بينَ النَّاس، ثمَّ كرَّرْتُ فأعلَنتُ لهمُ الدَّعوَة، ونوَّعتُ في الأُسلُوبِ فدعَوتُهم سرًّا بَيني وبينَهم، فقد يَكونُ ذلكَ أدعَى لاستِجابتِهم.

*** *** ***

والإنفاقُ يكونُ سرًّا وعلنًا. قالَ الله تعالى:

{قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} (سورة إبراهيم: ٣١].

أي أنهم يُعطون المحتاجينَ ممّا رزَقَهمُ اللهُ مِن مَالٍ ومَتاع، زَكاةً وصَدَقَة، خِفيةً وجَهرًا.

*** *** ***

وقالَ ربُّنا سبحانهُ مبيّنًا حكم إظهارِ الصدقةِ وإخفائها:

{إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [سورة البقرة: ٢٧١].

أي: وإذا أظهرتم الصَّدقاتِ أمامَ الناسِ فهو أمرٌ مرغوبٌ ولا حرجَ فيه، وخاصَّةً إذا ترتَّبَ على إظهارِها مصلحةٌ راجِحة، كأنْ يَكونَ أداءً للزكاة، فإنَّ إظهارَها فيهِ معنَى الطَّاعة، وانتشارُ هذا الأمرِ وظهورُهُ خَير، وإذا أخفَيتم صدقاتِكم فهوَ أفضل، لأنَّهُ أبعدُ عنِ الرياءِ وشوائبِ النَّفس، وأقربُ إلى الإخلاصِ وطلبِ مرضاةِ الله. ويَمحو اللهُ بها سيّئاتِكم.

ولا يَخفَى على اللهِ شيءٌ ممّا تُقَدّمونَهُ لأنفسِكم، وما تُسِرُّونَهُ وما تُعلنونَه، في نيّاتِكم وأفعالِكم.

السرّاء والضرّاء

قالَ الله تعالى:

{وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ} [سورة هود: ٩].

أي: إذا أنعَمنا على الإنسَانِ نِعمَة، مِن غِنىً وصِحَّةٍ وأمن، وذاقَ لذَّتَها، واستَمتعَ بها، ثمَّ سَلبناها منه، وجدتَهُ مَهمومًا مَغمومًا على ما أصابَه، يائسًا من رُجوعِ رحمةِ اللهِ إليه، جاحِداً بتلكَ النِّعمَة.

{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} [سورة هود: ١٠]:

وإذا أعطَيناهُ نِعمةً من عندِنا بعدَ شِدَّةٍ وبَلاءٍ أصابَه، قال: زالتِ الشَّدائدُ عنِّي، فهوَ بذلكَ فَرِحٌ فَخور، مُغترٌّ مُتَعاظِمٌ على النَّاس، لا يَحسُبُ لزوالِها حِسابًا. وذاكَ دأبُ الكافِرينَ وضَعِيفي الإيمان.

{إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [سورة هود: ١١]:

أمّا المؤمِنونَ الصَّابِرون، الذينَ أتْبَعوا إيمانَهم بالعمَلِ الصالِحِ الموافِقِ للدِّين، وأخلَصوا للهِ فيه، فإنَّهم إذا أصابَتهُم شِدَّةٌ صَبَروا حتَّى يأتيَ اللهُ بالفرَج، وإذا أنعمَ عليهم بالخَيرِ والعَافيةِ شَكروا ولم يَبطَروا، ولم يَنسَوا حُقوقَ الناس، فأولئكَ الذينَ يَغفِرُ اللهُ ذُنوبَهم، ويُثيبُهم على أعمالِهِمُ الحسَنةِ ثوابًا عَظيمًا؛ جَزاءَ صَبرِهم على الشَّدائد، وشُكرِهم على النِّعَم.

السعادة والشقاء

قالَ الله تعالى في سورةِ هود ١٠٥ – ١٠٨:

{يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ}.

أي: يَومَ يأتي ذلكَ اليَومُ العَظيم، وقد طغَى السُّكونُ الرَّهيبُ على الجَميع، فلا يَتكلَّمُ أحَدٌ إلاّ بإذنِ الله، فمِن هؤلاءِ مَن يَكونُ شَقيًّا تَعيسًا، ومنهم مَن يَكونُ سَعيدًا مَسرورًا.

{فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ}:

فأمّا الأشقياءُ فمأواهمُ نارُ جهنَّمَ المسعَرَة، فيَشهَقونَ ويَزفِرونَ بشِدَّةٍ وألم؛ مِنَ الضِّيقِ والحرّ والإحراق.

{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}:

ماكثينَ في جَهنَّمَ مادامتِ السَّماواتُ والأرض.

وهوَ تَعبيرٌ في البَقاءِ المستَمِر، فكانَ مِن عادةِ العَربِ إذا وصفَتِ الشَّيءَ بالدَّوامِ أبَدًا قالت: هذا دائمٌ مادامتِ السَّماواتُ والأرض، وهذا باقٍ ما اختَلفَ اللَّيلُ والنَّهار. فخاطَبَهمُ اللهُ بما يَتعارَفونَهُ بينَهم.

وقالَ بعضُهم: المقصودُ سَماواتُ الآخِرةِ وأرضُها.

إلاّ ما شاءَ الله. واللهُ يَفعَلُ ما يُريدُ بالشقِيّ والسَّعيد.

والاستثناءُ في المشيئةِ عائدٌ على العُصاةِ مِن أهلِ التَّوحيد، ممَّن يُخرِجُهمُ اللهُ منَ النَّارِ بشَفاعَةِ الشَّافِعين، ثمَّ تأتي رحمَةُ اللهِ فتُخرِجُ مِنَ النَّارِ مَن لم يَعمَلْ خَيرًا قَطُّ وقالَ مَرَّةً منَ الدَّهرِ: لا إلهَ إلاّ الله. ولا يَبقَى بعدَ ذلكَ في النَّارِ إلاّ مَن وجَبَ عليهِ الخُلودُ فيها ولا مَحيدَ لهُ عنها. هذا ما عليهِ كثيرٌ منَ العُلماء، قَديمًا وحَديثًا.

{وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ}:

وأمّا السُّعَداءُ مِن أهلِ الإيمانِ وأتْباعِ الرسُل، فمَأواهمُ الجنَّة، مادامتِ السَّماواتُ والأرض، في دَلالَةٍ على الدَّوامِ كما مَرَّ في الآيةِ السَّابِقة، يَعني خالِدينَ فيها أبدًا. إلاّ ما شاءَ الله.

ومعنَى الاستِثناءِ هاهُنا أنَّ دوامَهم فيما هُم فيهِ منَ النَّعيمِ ليسَ أمرًا واجِبًا بذاتِه، بلْ هوَ مَوكولٌ إلى مَشيئتهِ تعالَى، فلَهُ المِنَّةُ عَليهم... قالَهُ ابنُ كثير.

ولا شَكَّ في خُلودِ أهلِ الجنَّة، ولهذا طَيَّبَ اللهُ القُلوبَ وثبَّتَ المقصودَ بقَولهِ في آخِرِ الآية: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} أي: إحسَانًا ونَعيمًا لا يَنقَطِعُ عنْ أهلِ الجنَّةِ أبَدًا.

السعة والضيق

قالَ اللهُ تعالى:

{لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً} [سورة الطلاق: ٧].

أي: ليُنفقِ الأبُ أو الوليُّ الموسِرُ على قَدْرِ غِناه، ومَن كانَ في ضِيقٍ مِنَ المعيشَةِ فليُنفِقْ مِن مالِهِ بالقَدْرِ الذي يَستَطيع، لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفسًا مِنَ النَّفقَةِ إلاّ ما أعطاها مِنَ الرِّزق، سيَجعَلُ اللهُ بعدَ ضِيقٍ سَعَة، وبعدَ فَقرٍ غِنًى.

السفر والإقامة

قالَ الله جلَّ جلاله:

{وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ} [سورة النحل: ٨٠].

أي: جعلَ اللهُ لكم منَ البُيوتِ التي تَبنُونَها وتأوونَ إليها سَكنًا وطُمأنينَةً تأمَنونَ فيها وتَرتاحُون. وجعلَ لكم من جُلودِ الأنعامِ بيوتًا كذلك، حيثُ يَخِفُّ عَليكم حَملُها في أسفارِكم، فتَنصِبونَها في الأرضِ وتَرفَعونَها كالأخبيَةِ وتأوونَ إليها أو تَستَظِلُّونَ بها، كما تستَخدِمونَها في مَواطنِ إقامَتِكم، كالقِبابِ والأخبيَةِ والخِيامِ والفَساطِيط. وكانتْ تُعمَلُ منَ الجُلودِ والشَّعَر. وتَستَفيدونَ من أصوافِ الضَّأن، وأوْبارِ الإبِل، وأشعارِ المعْز، فتتَّخِذونَ منها المالَ والمتاعَ والثِّيابَ والفُرُشَ والأَكسية... وتتَمَتَّعونَ بها إلى أجَلٍ محدودٍ لكم.

السماء والأرض

قالَ الله سبحانهُ في خلقِ السماواتِ والأرض:

{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا} [سورة الأنبياء: ٣٠].

تفسيرها: ألا يَتدَبَّرُ هؤلاءِ الكافِرونَ في آياتِ اللهِ الكونيَّة، ويتمَعَّنونَ في خَلقِ السَّماواتِ العَظيمَةِ المنيعَة، وفي الأرضِ وما فيها ومَن عَليها، وقد كانتا أوَّلاً مُلتَحِمتَينِ مُلتَزِقتَينِ، فشَقَقناهُما وفَصَلنا بَعضَهما عن بَعض؟

*** *** ***

وهناك سبعُ أرَضين، كعددِ السماواتِ السبع:
{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [سورة الطلاق: ١٢].
أي: هوَ اللهُ القادِرُ العَظيم، الذي خلقَ سَبعَ سَماوات، ومِنَ الأرْضِ مِثلَهنَّ في العَدَد.

*** *** ***

وجعلَ الله الأرضَ مستقرًّا، والسماءَ كالسقفِ لنا:
{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [سورة غافر: ٦٤]
أي: هوَ اللهُ الذي جعلَ لكمُ الأرضَ مُستَقَرًّا مُمَهَّدًا لتَتمَكَّنوا مِنَ العَيشِ عَليها والتصَرُّفِ فيها، وجعَلَ السَّماءَ كالسَّقفِ والقُبَّةِ فَوقَكم.

*** *** ***

وفي كيفيتهما:
{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} [سورة لقمان: ١٠]:
الذي خلقَ السَّماواتِ السَّبعَ العاليَةَ الواسِعَةَ بغَيرِ أعمِدَةٍ وركائزَ ترَونَها.

يَذكرُ العُلماءُ في هذا العَصرِ أنَّهُ إشارَةٌ إلى قوَّةِ الجَذْبِ التي لا تُرَى، فيما بينَ المجَرَّاتِ والكواكبِ والكُتَلِ التي في السَّماء.

وألقَى في الأرضِ جِبالاً ضَخمَةً مُرتَفِعَةً لتَثبُتَ بها ولا تَضطَرِبَ بكم، ونشَرَ فيها مِن كُلِّ نوعٍ أنواعِ الحيَوانات، وأنزَلنا مِنَ السَّحابِ مطَرًا، فأنبَتنا بسبَبِهِ مِن كُلِّ صِنفٍ مِن أصنافِ الشَّجَرِ والنَّباتِ ما هوَ حسَنٌ مَنظَرُه، ومُفيدٌ نَوعُه.

*** *** ***

وقد خلقَهما بالحقّ:

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ} [سورة الأنعام: ٧٣].

أي: هو الذي خلقَ السَّماءَ والأرضَ وأبدعَ صُنعَهما على غيرِ مثالٍ سَبق، بالحقِّ والعَدل، لا عن عَبَثٍ وبُطلان.

*** *** ***

فخلقُهما لم يكنْ عن عبثٍ وبطلان. قالَ سبحانه:

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} [سورة الأنبياء: ١٦].

أي: ما خلَقنا السَّماءَ وما فيها، والأرضَ ومَن عليها، وما بينَهما، لَهوًا وعبَثًا، بدونِ حِكمَةٍ وفائدَة.

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [سورة ص: ٢٧].

أي: ما خَلَقنا هذهِ السَّماواتِ العَظيمة، والأرضَ وما عَليها عبَثًا ولَعِبًا، فذلكَ عَقيدَةُ الكافِرينَ الذينَ يُنكِرونَ الحِسابَ والجَزاء، فالوَيلُ والهَلاكُ لهم مِنَ النَّارِ المعَدَّةِ لهم.

*** *** ***

وخلقُهما أعظمُ من خلقِ الإنسان:

{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة غافر: ٥٧].

أي: إنَّ خَلقَ السَّماواتِ والأرضِ العَظيمَتين، وما بَثَّ اللهُ في السَّماءِ الدُّنيا وَحدَها مِن مَلايينِ النُّجومِ والكواكبِ المتَناثِرَة، معَ تَوازُنٍ وتَناسُقٍ ونِظامٍ دَقيق، وما في الأرضِ مِن ماءٍ ونَباتٍ وشَجَر، وبِحارٍ وقِفار، ومَعادِنَ وكنُوز، وغَيرِها... كُلُّ هذا أكبَرُ وأعظَمُ مِن خَلقِ الإنسَان، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُفكِّرونَ فيه، ولا يَتصوَّرونَ عَظمَةَ هذا الكونِ الكبيرِ ونِسبتَهم إليه، ولا يَستَدِلُّونَ بهِ على قُدرَتِهِ تعالَى على إعادَةِ إحيائهم بَعدَ الموت.

*** *** ***

وأقسمَ بهما فقال:

{وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا} [سورة الشمس: ٥].

أي: والسَّماءِ وبِنائها المتماسِكِ الذي لا ترَى فيهِ خلَلاً، وما فيها مِنَ النُّجومِ والأفلاكِ السَّابِحَةِ في مَداراتِها.

{وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا} [سورة الشمس: ٦].

أي: والأرضِ وما بسطَها، وجعلَها مُمَهَّدَةً للحيَاة.

*** *** ***

وقالَ عزَّ مِن قائل:

{مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً} [سورة الكهف: ٥١].

أي: إنَّ هؤلاءِ الشَّياطينَ الذينَ تُطيعُونَهم عَبيدٌ خُبَثاء، وأعداءٌ لكم، لا يُطاعونَ ولا هم يُكرَمون، فما أحضَرتُهم خَلقَ السَّماواتِ والأرض، وقد خَلَقتُهما قَبلَهم. وما أشهَدتُ بَعضَهم خَلقَ بَعض، ولا استَعَنتُ بأحَدٍ منهم في الخَلقِ والتَّدبير، فما كنتُ مُتَّخِذًا مِنَ المضَلِّينَ الفَاسِقينَ أنصَارًا وأعوانًا في شَأنِ الخَلقِ حتَّى تُظَنَّ شَراكتُهم في الطَّاعَةِ والموالاة.

*** *** ***

ولله كلُّ ما في السماواتِ والأرض:

{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} [سورة طه: ٦].

أي: جَميعُ ما في السَّماواتِ والأرض، وما بَينَهما مِنَ الموجُودات، وما تحتَ الأرض، مُلكُه، وتحتَ تَصَرُّفِهِ ومَشيئتِهِ وحُكمِه، فهوَ خالِقُها ومالِكُها، يتَصَرَّفُ فيها بالإيجادِ والتَدبيرِ والإعدامِ كما يَشاء، لا يُشارِكُهُ في ذلكَ أحَد.

فبيدهِ وحدَهُ مفاتيحُهما:

{لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة الزمر: ٦٣].

أي: لهُ مَفاتِحُ خَزائنِ السَّماواتِ والأرْض، لا تأثيرَ لأحَدٍ غَيرِهِ في قِيادِها وتَحرُّكِها ونَواميسِها وما يَجري فيها، والذينَ جَحدوا بآياتِ اللهِ والأدلَّةِ التي تؤدِّي إلى مَعرِفَةِ الحقِّ مِن دِينِه، همُ الخاسِرونَ حقًّا.

*** *** ***

والله سبحانهُ يمسكُ السماءَ لئلا تقعَ على الأرض:

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة الحج: ٦٥].

أي: مِن لُطفِهِ وقُدرَتِهِ تَعالَى إمساكُ السَّماءِ لئلاّ تقَعَ على الأرض، إلاّ إذا شاءَ ذلك، بما وضَعَ فيها أيضًا مِن نواميس، وجعلَها قَويَّةً مُتماسِكة. واللهُ رَؤوفٌ بعِبادِه، رَحيمٌ بهم، فأمَّنَ لهمُ الأرْضَ التي يَعيشونَ عَليها حتَّى لا تَسقُطَ عَليها أجرامٌ سَماويَّةٌ فتُهلِكَهم، وسخَّرَ لهم ما فيها لأجلِ مَصالحِهم.

ويحفظُ السماواتِ والأرضَ حتى لا ينفرطَ نظامُهما:

{إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ} [سورة فاطر: ٤١]:

اللهُ سُبحانَهُ هوَ الذي يَحفَظُ السَّماواتِ والأرضَ حتَّى لا تَضطَرِبا ويَنفَرِطَ نِظامُهما فيَضمَحِلاّ، وإذا اختلَّ نِظامُهما وأشرَفَتا على الزَّوال، فلا يَقدِرُ على حِفظِهما وإبقائهمَا سِواه.

*** *** ***

ولا يمكنُ اختراقُهما من قبلِ الإنسِ والجنّ إلا بإذنٍ من الله:

{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} [سورة الرحمن: ٣٣].

أي: إذا قَدَرتُم على أنْ تَجوزُوا وتَخرُجوا مِن جَوانبِ السَّماواتِ والأرضِ وأطرَافِهما، فاخرُجوا منهما، ولكنَّكم لا تَستَطيعونَ ذلكَ إلاّ بعِلمٍ وقوَّةٍ مؤيَّدَةٍ مِن عندِ اللهِ وإذنٍ منه، فهوَ مالكُهما والمتصرِّفُ فيهما، وأينَما ذَهبتُم أو اختفَيتُم فأنتُم في مُلكِهِ وتحتَ حُكمِهِ وسَيطرَتِه.

*** *** ***

وقضاؤهُ سبحانهُ ينزلُ من أعلَى السماواتِ إلى أدنَى الأرَضين:

{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [سورة السجدة: ٥].

أي: هو الذي يُدَبِّرُ أمرَ الدُّنيا وشُؤونَها، ويَتنَزَّلُ أمرُهُ وقَضاؤهُ مِن أعلَى السَّماواتِ إلى أدنَى الأرَضِين، ثمَّ يَصعَدُ الأمرُ إليهِ بعدَ تَدبيرِه، في يَومٍ قَدْرُهُ مَسيرَةُ ألفِ سنَةٍ ممَّا تَعُدُّونَهُ في الدُّنيا.

*** *** ***

والله تعالى يَسمعُ ما يقالُ في السَّماواتِ والأرض:
{قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة الأنبياء: ٤]:
قالَ الرَّسولُ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما يُقالُ في السَّماواتِ والأرض، خُفيَةً كانَ أو جَهرًا، فهوَ سَميعٌ لأقوالِكم، عَليمٌ بأحوالِكم وأفعَالِكم.

*** *** ***

ويعلَمُ كلَّ ما في السماواتِ والأرض، من دقيقٍ وجليل، كما قالَ لقمانُ لابنه:
{يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [سورة لقمان: ١٦]:
يا بُنَيّ، إنَّ الخَصلَةَ مِنَ الإساءَةِ والإحسَان، مَهما كانت صَغيرَةً حَقيرَة، كزِنَةِ حبَّةِ خَرْدَل، فتَكُونُ في أخفَى مَكان، كجَوفِ صَخرَة، أو في أيِّ مَكانٍ مِنَ السَّماواتِ والأرض، يُحضِرُها الله، ويُحاسِبُ مَن عَمِلَ بقَدْرِها، إنَّ اللهَ لَطيفٌ بكيفيَّةِ استِخراجِها وإحضارِها، عالِمٌ بكُنهِها ومَكانِها.

*** *** ***

ويعلمُ ما يدخلُ في الأرضِ وما يعرجُ إلى السماء:
{يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ} [سورة سبأ: ٢].
أي: يَعلَمُ ما يَدخلُ في باطنِ الأرض، مِن قَطْرِ الماء، وبذورِ النَّباتِ والشَّجَر، والرِّمالِ والصُّخور، والموتَى مِن أصنافِ الحيَوان، وما يَخرُجُ منها، مِنَ النَّباتِ والمعادِنِ وغَيرِها، عَدَدِها وكَيفيَّتِها ووَقتِها

وأينَ تَصير، وما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ مِن ضِياءٍ ومطَرٍ وقُوتٍ ومَقاديرَ، وما يَصعَدُ فيها مِنَ الملائكَةِ والأعمالِ الصَّالِحَةِ وغَيرِها. وهوَ الرَّحيمُ بعِبادِهِ فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبَة، الغَفورُ لذُنوبِ التَّائبينَ منهم وإنْ أفرَطوا فيها.

*** *** ***

والدقيقُ والجليلُ مما في الأرضِ والسماءِ مدوَّنٌ في اللوحِ المحفوظ:
{عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [سورة سبأ: ٣].
اللهُ تعالَى عالِمٌ بما غابَ عنِ الإنسَانِ والملائكَةِ وجَميعِ العِباد، لا يَغيبُ عَن عِلمِهِ مِقدارُ ذَرَّةٍ كائنَةٍ في السَّماواتِ أو في الأرض، أو أصغَرُ منها أو أكبَر، وكُلُّ ذلكَ مُدَوَّنٌ في اللَّوحِ المحفوظ.

*** *** ***

ولا يَعلَمُ أحَدٌ ممَّن في السَّماواتِ والأرضِ الغَيبَ إلاّ الله:
{قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ} [سورة النمل: ٦٥].

وقالَ في الآيةِ (٧٥) من السورةِ نفسها:
{وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [سورة النمل: ٧٥].
أي: ما مِن شَيءٍ يَخفَى على النَّاس، في السَّماءِ كانَ أو في الأرض، صَغيرًا كانَ أو كَبيرًا، إلاّ وهوَ مدَوَّنٌ عندَ اللهِ في اللَّوحِ المحفُوظ، بَيِّنٌ لمنْ يَنظُرُ فيهِ مِنَ الملائكة.

*** *** ***

واللهُ تعالَى هو المعبود، في السماءِ وفي الأرض:

{وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} [سورة الزخرف: ٨٤].
أي: هوَ تَعالَى مَعبودٌ في السَّماء، ومَعبودٌ في الأرْض، وهوَ الإلهُ الحقّ، الحَكيمُ في تَدبيرِ شُؤونِ الخَلق، العَليمُ بأحوالِهم ومَصالحِهم.

*** *** ***

وكلُّ ما في السماءِ والأرضِ يسجدُ للهِ تعالى:
{وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} [النحل: ٤٩].
أي أنَّ كُلَّ ما في السَّماواتِ وما في الأرض، ممّا لهُ ظِلٌّ وما ليسَ لهُ ظِلّ، من مَخلوقاتٍ مُتحرِّكَةٍ تَدُبُّ على الأرض، تَسجدُ للهِ وتَنقادُ لأمرِه، وكذلكَ الملائكة، يَسجدونَ لهُ ولا يَتكبَّرونَ عن عِبادَتِه.

*** *** ***

واللهُ سبحانهُ معروفٌ بصفاتهِ الكاملةِ بين أهلِ السماواتِ والأرض:
{وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة الروم: ٢٧].
أي: ولهُ جَلَّ شَأنُهُ الحِكمَةُ التامَّة، والصِّفَةُ الكامِلَة، و{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [سورة الشورَى: ١١] كما عُرِفَ بذلكَ بينَ المعتَدِّ بهم مِن أهلِ السَّماواتِ والأرض، وهوَ العَزيزُ الذي غلبَ كُلَّ شَيءٍ وقهرَه، الحكيمُ في أقوالِهِ وأفعالِه.

*** *** ***

ويسبّحُ له مَن في السماواتِ والأرض:

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [سورة النور: ٤١]:

ألم تَعلَمْ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لهُ ويُنَزِّهُهُ كُلُّ مَن في السَّماواتِ والأرض، مِنَ الملائكة، والإنس، والجِنّ، والحيَوان، وحتَّى الجَماد، ولكنْ لا نفهَمُ تَسبيحَهم، والطَّيرُ تُسَبِّحُهُ وتَعبدُهُ وهيَ تَبسُطُ أجنِحتَها في الهَواء، وقد عَلِمَ كُلٌّ طريقَةَ عِبادَةِ رَبِّهِ وتَنزيهِه، بعدَ أنْ أرشدَهُ اللهُ إلى ذلك، واللهُ عَليمٌ بما يَفعَلونَه، لا يَخفَى عَليهِ شَيءٌ منه.

*** *** ***

وله الحمدُ سبحانه:

{وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ} [سورة الروم: ١٨].

أي: لهُ الفَضلُ والنِّعمَةُ ولهُ الثَّناءُ الحسَن، المحمودُ في السَّماواتِ والأرض، يَحمَدُهُ أهلُها ويُصَلُّونَ له، حينَ يَشتَدُّ اللَّيلُ بظَلامِه، وعِندَما يَتجلَّى النَّهارُ بضِيائه.

*** *** ***

وقضاءُ الله تعالى نافذٌ في الناسِ أينما كانوا:

{وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [سورة العنكبوت: ٢٢].

أي: وما أنتُم بمانِعينَ اللهَ مِن أنْ يُجرِيَ حُكمَهُ وقَضاءَهُ فيكم، أينَما كنتُم ومَهما تحصَّنتُم، في الأرضِ أو في السَّماء، فكُلُّ شَيءٍ مُلكُهُ، وحُكمُهُ وتَصَرُّفُهُ نافِذٌ في كُلِّ مَكان، ولا أحَدَ يَقدِرُ على مَنعِ عَذابَ اللهِ إذا قَدَّرَهُ عَليكم، ولا أنْ يَدفعَهُ عَنكم إذا نَزلَ بِكم.

وقالَ عزَّ شأنه:

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً} [سورة فاطر: ٤٤].

أي: لا يَفوتُهُ شَيءٌ ممَّا في السَّماواتِ والأرض، فكلُّ ما فيهما تحتَ مَشيئَتِهِ وتَصرُّفِه، وهوَ عَليمٌ بما فيهما، قادِرٌ على الانتِقامِ ممَّن عَصاه.

*** *** ***

وعرضَ الله تعالَى (الأمانةَ) على السمواتِ والأرضِ والجبالِ والإنسان...

{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} [سورة الأحزاب: ٧٢]

أي: إنَّا عرَضْنا الفرائضَ والتَّكاليفَ على السَّماواتِ والأرضِ والجِبال، وأوجَبْنا تلقِّيها بحُسنِ الطَّاعَةِ والانقياد، والمحافَظةَ عليها وأداءَها وعدَمَ الإخلالِ بها، فإنْ أحسنَتْ أُثيبَت، وإنْ عصَتْ وضيَّعَتْ عُوقِبَت، عرَضْناها عَليها عَرْضَ تَخييرٍ لا إجبَار، فأبَتْ أنْ تَحمِلَ هذهِ الأمانَة، خَوفًا مِن أنْ لا تَقومَ بحَقِّها. وعرَضَ اللهُ هذهِ الأمانةَ على الإنسَان، إنْ قامَ بحَقِّها أُثيب، وإنْ تركَها عُوقِب، فقَبِلَ حَملَها، وبيَّنَ استِعدادَهُ للالتِزامِ بها، والمحافظَةِ عَليها، وأدائها كما يَجِب، إنَّهُ كانَ بذلكَ مُفرِطًا في الظُّلمِ لنَفسِهِ والإضرارِ بها، مُبالِغًا في الجَهلِ بما قَبِلَه، مُعتَدًّا بنَفسِهِ عندَما وافَقَ على شُروطِ هذهِ الأمانَةِ الصَّعبَة.

*** *** ***

وسخَّرَ لنا ما في السَّماواتِ والأرض:

{أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} [سورة لقمان: ٢٠].

أي: ألَمْ تَنظُروا كيفَ ذَلَّلَ اللهُ لكم ما يَلزَمُكم ممَّا في السَّماواتِ والأرض، مِن اللَّيلِ والنَّهار، والرِّيحِ والمطَر، والشَّجَرِ والثَّمَر، والدَّوابِّ والطَّير، وجَميعِ ما في البَرِّ والبَحر، وأوسعَ عَليكم نِعمَهُ

الظَّاهِرَةَ والباطِنَة، الواضِحةَ والخَفيَّة، مِن إرسالِ الرُّسُل، وإنزالِ الكتُب، والسَّمعِ والبصَر، والعَقلِ والفَهم...

*** *** ***

وهو سبحانهُ الرازق، يرزقنا من السماءِ والأرض:
{قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [سورة سبأ: ٢٤].
أي: قُلْ للمشرِكينَ أيُّها الرسُول: مَنِ الذي يَرزُقُكم مِنَ السَّماءِ والأرْض، فيُنزِلُ لكمُ المطَرَ، ويُنبِتُ لكمُ الزَّرعَ، اللهُ أم أصنامُكم؟ قُل: هوَ الله – وكانوا يَعتَرِفونَ بذلكَ – ولا جَوابَ عندَهم سِواه.

*** *** ***

والله قادرٌ على أن يأتيَ بالعذابِ من الأرضِ والسماء:
{أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ} [سورة سبأ: ٩]:
أَلَا يَنظُرونَ إلى ما حَولَهم، مِن أمامِهم ومِن خَلفِهم، وأينَما سارُوا، كيفَ يَجِدونَ السَّماءَ وقد أحاطَتْ بهم، والأرضَ وقدِ انبَسَطَتْ مِن تَحتِهم، فإذا شِئنا زَلزَلنا الأرضَ مِن تَحتِ أقدامِهم، أو أسقَطنا عَليهم قِطَعًا مِنَ السَّماءِ كما فعَلنا بأقوَامٍ سابِقين؛ لكُفرِهم وتَكذيبِهم رسُلَ الله، وفي ذلكَ دَليلٌ على قُدرَةِ اللهِ على البَعث، لكُلِّ عَبدٍ مُتفَكِّرٍ راجِعٍ إلى رَبِّه، تائبٍ إليه.

*** *** ***

وفي طوفانِ نوحٍ عليه السلام:

{فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} [سورة القمر: ١٢ – ١٣].

أي: أمَرنا السَّماءَ بأنْ يَتدَفَّقَ منها المطَرُ ويَنصَبَّ انصِبابًا شَديدًا. وفجَّرنا يَنابيعَ الأرْضِ كُلَّها، فالتقَى ماءُ السَّماءِ وماءُ الأرْض، على أمرٍ قدَّرَهُ الله.

*** *** ***

واللهُ قادرٌ على أن ينتقمَ من أعداءِ دينهِ في أيّ وقت، فلهُ جنودٌ كثُر، في السماواتِ وفي الأرض: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً} [سورة الفتح: ٤].

أي: لو أرادَ اللهُ لانتقَمَ مِنَ المشرِكينَ يَومَ الحديبية، وهوَ يَسيرٌ عَليهِ سُبحانَه، فلهُ جُنودٌ لا يُحصَونَ في السَّماواتِ والأرْض، ولكنْ أرادَ لكمُ الصُّلحَ، وهوَ العَليمُ بالأمُور، الحَكيمُ لِما يَشرَعُ ويُقَدِّر.

*** *** ***

وقالَ تعالَى في المشركينَ وأصنامِهم:

{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ} [سورة النحل: ٧٣].

أي أن المشركينَ يَعبدونَ الأصنامَ التي لا تُجيبُ لهم نِداء، ولا تَجلُبُ لهم رِزقًا، لا منَ السَّماءِ ولا منَ الأرض، لا مطَرًا ولا نَباتًا، ولا أيَّ شَيءٍ آخَر، قَليلاً كانَ أو كثيرًا، فهي لا تَملِكُ شَيئاً ولا تُمَيِّزُه، لأنَّها لا تَقدِرُ على ذلكَ أصلاً، فهي أحجَارٌ صمَّاءُ لا تَعي ولا تَسمَع.

وفي تفصيلٍ وتأكيدٍ أكثر:

{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ} [سورة سبأ: ٢٢]:

قُلْ أيُّها الرسُولُ للمشرِكين: ادْعُوا الأصنامَ التي زعَمتُم أنَّها آلِهَة، ليَجلُبوا لكم نَفعًا، كإنزَالِ مطَرٍ أو إنبَاتِ زَرع، أو يَدفَعوا عنكم ضُرًّا، كإبعادِ قَحطٍ أو شِفاءٍ مِن مرَض، لعلَّهم يَستَجيبونَ لكم، إنْ صَحَّ زَعمُكم، لكنَّ الحقَّ أنَّهم لا يَملِكونَ أمرًا مِنَ الأمُور، لا في السَّماءِ ولا في الأرض، لا استِقلالاً ولا شَراكَة، ولا يَعتَمِدُ اللهُ عَليهم في تَصريفِ شَأنٍ مِن شُؤونِ الكَون، ولا على أحَدٍ مِن عَبيدِه.

*** *** ***

والسماءُ لا تبكي على المجرمين، ولا الأرض:

{فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ} [سورة الدخان: ٢٩].

أي: فلم يُكتَرَثْ بهَلاكِ فِرعَونَ وقَومِه، فما عَمِلوا صالِحًا لتَبكيَ عَليهمُ السَّماء، وما تَرَكوا أثَرًا حسنًا لتَحزَنَ عَليهمُ الأرضُ وتُخَلِّدَ ذِكرَهم(٢)، ولم يُمهَلوا إلى وَقتٍ آخرَ ليَتوبُوا وقد جاءَ وَقتُ هَلاكِهم.

*** *** ***

(٢) كانتِ العربُ تقولُ عند موتِ السيِّدِ منهم: بكتْ له السماءُ والأرض، أي: عمَّتْ مصيبته. وقالَ الحسن: في الكلامِ مضافٌ محذوف، أي: ما بكى عليهم أهلُ السماءِ والأرضِ من الملائكةِ والناس. (فتح القدير، باختصار).

كان من كلامِ العربِ إذا هلكَ عظيمٌ أن يهوِّلوا أمرَ موته، بنحو: بَكتْ عليه السماء، وبكتهُ الريح، وتزلزلتْ الجبال... والكلامُ مسوقٌ مساقَ التحقيرِ لهم. (التحرير والتنوير، باختصار).

مجازٌ مرسلٌ عن عدمِ الاكتراثِ بهلاكهم والاعتدادِ بوجودهم؛ لأن سببَ البكاءِ على شيءٍ هو المبالاةُ بوجوده، يعني أنه استعارةٌ تمثيليةٌ بعد الاستعارةِ المكنيةِ في السماءِ والأرض، بأن شبّهتا بمن يصحُّ منه الاكتراث، على سبيلِ الكناية، وأُسنِدَ البكاءُ إليهما على سبيلِ التخييل. كانت العربُ إذا ماتَ فيهم من له خطرٌ وقدرٌ عظيمٌ يقولون: بكتْ عليه السماءُ والأرض، يعني أن المصيبةَ بموتهِ عمَّتِ الخلقَ فبكى له الكلّ، حتى الأرضُ والسماء. فإذا قالوا: ما بكتْ عليه السماءُ والأرض، يعنون به: ما ظهرَ بعدَهُ ما يَظهرُ بعد موتِ ذوي الأقدارِ والشرف، ففيه تهكمٌ بالكفار، وبحالهم المنافيةِ لحالِ من يَعظمُ فقدهُ فيُقالُ له بكتْ عليه السماءُ والأرض. (روح البيان، وحاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي).

وحالُ السَّماواتِ والأرضِ في النفخةِ الأولى:

{وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ} [سورة النمل: ٨٧].

أي: يَومَ يَنفُخُ إسْرافيلُ في الصُّورِ – وهوَ قَرْنٌ – في آخِرِ عمُرِ الدُّنيا، يَعتَري الفزَعُ والرُّعبُ كلَّ مَن في السَّماواتِ والأرض، إلاّ مَن شاءَ اللهُ ألاّ يَفزَع، كالشُّهَداء، فهم أحياءٌ عندَ رَبِّهم، لا يَصِلُ إليهمُ الفزَع. وهذهِ هيَ النَّفخَةُ الأولَى، والثانيَةُ تَكونُ نَفخَةَ الصَّعْق، وهوَ الموت، ثمَّ نَفخَةَ النُّشورِ مِنَ القُبور. وهذا قَولُ ابنِ كثيرٍ وآخَرين.

وكُلُّ المبعوثينَ عندَ النفخَةِ جَاؤوا ليَقِفوا بينَ يَدي اللهِ للحِسابِ صاغِرينَ مُنقادِين.

*** *** ***

وحجمُ الجنةِ بعرضِ السماواتِ والأرض:

{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} [سورة الحديد: ٢١].

أي: تَنافَسوا في عمَلِ الخَيرات، وسارِعوا إلى ما يُقرِّبُكم إلى اللهِ ويَغفِرُ بهِ ذُنوبَكم، وإلى جنَّةٍ عَظيمَةٍ واسِعَة، عَرضُها كعَرضِ السَّماواتِ السَّبعِ والأرْض، هُيِّئتْ للمؤمِنينَ باللهِ ورسُلِه...

السماوات والأرض = السماء والأرض

السِّمَن والهُزال

في الحلمِ الذي رآهُ الملك، في قصةِ يوسف عليه السلام:

{وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّيَ أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ} [سورة يوسف: ٤٣].

تفسيرها: قالَ مَلِكُ مِصر: إنّي رأيتُ في المنامِ سَبعَ بقَراتٍ سِمان، مُمتلِئاتٍ لَحمًا وشَحمًا، يأكلُهُنَّ سَبعُ بقَراتٍ مَهزولات. ورأيتُ سَبعَ سُنبُلاتٍ خُضْر، وسَبعًا أُخَرَ يابِسات. قَصَّ رؤياهُ هذهِ على حاشِيَتِهِ وعلى الكَهَنَةِ والسَّحَرَة، قائلاً لهم: يا أهلَ الرَّأي والمشورة، عَبِّروا لي هذهِ الرؤيا، وبيِّنوا لي حُكمَها، إذا كُنتُمْ عارِفينَ بتَعبيرِ الرُّؤى.

(وتأويله في الآيةِ ٤٧ من السورة)

الشتاء والصيف

قالَ اللهُ تعالَى في بيانِ فضلِهِ على قريش:

{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ} [سورة قريش: ٢].

أي: لأجلِ التَّسهيلِ على قُرَيشٍ وتَدبيرِ مَصالحِهم، والتَّيسيرِ لِما كانوا يألَفونَهُ ويَعتادُونَه، أُلْفَتِهم في رِحلتَينِ تِجاريَّتَينِ آمِنتَينِ لهم: رِحلَةِ الشِّتاءِ إلى اليَمَن، ورِحلَةِ الصَّيفِ إلى الشَّام، أنعَمنا عَليهم بهذا الائتِلاف، والسَّيرِ آمِنينَ في الرِّحلَتَين؛ لكونِهم جيرانَ الحرَم.

الشروق والغروب
(الشرق والغرب)
(المشرق والمغرب)

قالَ الله تعالَى في مثَلِ نوره:

{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ} [سورة النور: ٣٥].

تفسيرها: اللهُ سُبحانَهُ نُورُ السَّماواتِ والأرض، مثَلُ نُورِهِ كمَثَلِ كُوَّةٍ في حائط، فيها سِراجٌ يَجمَعُ ضَوءَهُ لئلاّ يتفَرَّق، السِّراجُ في قِنديلٍ زُجاجيٍّ صَاف، القِنديلُ الزُّجاجيُّ مُضيءٌ مُتَلألئٌ كأنَّهُ كوكَبٌ مُشرِقٌ كالدُّرِّ، يَستَمِدُّ هذا المِصباحُ وَقودَهُ من زَيتِ زَيتونِ شَجرَةٍ كثيرَةِ المنافِع، وتَكونُ

في مَكانٍ مُستَوٍ بارِز، فلا يَمنَعُ عنها الشمسَ شَيء، مِن حينِ طُلوعِها حتَّى تَغرُب، وهذا أحسَنُ لزَيتِها وألطَف، فيَكادُ لصَفائهِ ونقائهِ أنْ يُشرِقَ بنَفسِه، مِن غَيرِ أنْ يَمَسَّهُ نارٌ، فإذا مَسَّهُ أضاءَ كثيرًا.

*** *** ***

وفي قصةِ أهلِ الكهف:

{وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً} [سورة الكهف: ١٧].

أي: إذا طلعَتِ الشَّمسُ دخَلَتْ كهفَهم وهيَ تَميلُ إلى الجانبِ الأيمَن، فيَكونُ بابُهُ نحوَ الشِّمال، وإذا غرَبَتْ تَترُكُهمْ وتَعدِلُ عَنهم إلى الجانبِ الأيسَر، فتَدخلُ من شِمالِ بابِه، وهم في مُتَّسَعٍ منهُ داخِلَه. وهذا من حِكمَةِ اللهِ وحُسنِ تَدبيرِه، فالشَّمسُ ضَروريَّةٌ للإنسَان، ولتَبقَى أبدانُهم سالِمَة، وإلاّ أفسَدَتْها الرطوبَةُ المستَمِرَّة.

*** *** ***

والله ربُّ المشرقِ والمغرب، وربُّ المشرقَينِ والمغربَين:

{رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} [سورة الرحمن: ١٧]:

رَبُّ المشرِقَينِ: مَشرِقِ الصَّيفِ ومَشرِقِ الشِّتاء، ورَبُّ المغرِبَينِ: مَغرِبِ الصَّيفِ ومَغرِبِ الشِّتاء، حيثُ اختِلافُ مواضعِ طُلوعِ الشَّمسِ فيهما.

*** *** ***

وربُّ المشارقِ والمغارب:

{فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} [سورة المعارج: ٤٠].
أي: فأُقسِمُ باللهِ رَبِّ المشارِقِ والمغارِب، حيثُ تُشرِقُ الشَّمسُ وتَغرُبُ في كُلِّ لحظَةٍ باستِمرارِ دَوَرانِ الأرْضِ حَولَ مِحوَرِها.

*** *** ***

وقالَ الله تعالى في التسبيحِ قبلَ الشروقِ وقبلَ الغروب:
{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى} [سورة طه: ١٣٠].
أي: الزَمْ ذِكرَ اللهِ وعِبادتَه، ونَزِّهْهُ وقَدِّسْهُ وأنتَ حامِدٌ له، في الفَجرِ والعَصر، ومِن ساعاتِ اللَّيل، وكذلكَ مِنَ النَّهار، لتَرضَى وتَطمَئنَّ بما يُثيبُكَ اللهُ عَليهِ في الأُولَى والأُخرَى.
ذكرَ القُرطبيُّ أنَ أكثرَ المتأوِّلينَ قالوا إنَّه إشارَةٌ إلى الصَّلواتِ الخَمس.

الشروق والغروب = الشرق والغرب

الشك واليقين
(الظن واليقين)

الظنُّ لا يُغني عن الحقِّ شيئًا:
{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى . وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً} [سورة النجم: ٢٧ – ٢٨].
أي: إنَّ المشرِكينَ الذينَ لا يؤمِنونَ بالمعادِ والجَزاء، يَقولونَ إنَّ الملائكةَ إناث، وأنَّها بَناتُ الله، تَعالَى اللهُ عن ذلك. وهم ليسوا مُستَيقِنينَ مِن هذا الكَلام، فهل شَهِدوا خَلقَهم حتَّى يَقولوا ذلك؟ ما يتَّبِعونَ في مَقالِهم هذا إلاّ ظنًّا ووَهمًا باطِلاً، ولا يَقومُ الظنُّ مَقامَ العِلم، ولا يُجدي عنِ الحقِّ شَيئًا.

*** *** ***

الكافرون شاكّون في اليومِ الآخر، جاحدون به:

{وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ} [سورة الجاثية: ٣٢].

أي: إذا قالَ المؤمنون للكافرين: إنَّ ما وعدَ اللهُ بهِ حقٌّ وصِدق، ويَومَ القِيامَةِ آتٍ لا شَكَّ فيه، جحَدتُم ذلكَ وقُلتُم: نحنُ لا نَعرِفُ ما هوَ يَومُ القِيامَة، ونحنُ شاكُّونَ فيه، ولا نَتيَقَّنُ إمكانَه.

الشكر والكفران

الإنسانُ بينَ شكرٍ وجحود:

{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} [سورة الإنسان: ٣].

أي: إنَّا بيَّنَّا لهُ طَريقَ الحقِّ والباطِل، وعرَّفناهُ طَريقَ الخَيرِ والشرّ، فمنهم شاكِرٌ مُهتَدٍ للحقِّ مُسلِم، ومنهم جاحِدٌ مُعرِضٌ عنِ الطَّاعَةِ قد ضلَّ عنِ الهُدَى.

*** *** ***

من شكرَ الله عادَ نفعهُ عليه، ومن أبَى فإنَّ الله غنيٌّ عنه:

{وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [سورة لقمان: ١٢].

أي: مَن يَشكُرْ للهِ يَعُدْ نَفعُهُ عَليه، فإنَّهُ يَستَجلِبُ لهُ المزيدَ مِنَ الخَيرِ في الدُّنيا، ويَزيدُ مِن أجرِهِ في الآخِرَة، ومَن جحَدَ نِعمةَ اللهَ فلن يَضُرَّهُ بشَيء، فهوَ سُبحانَهُ محمودٌ بلِسانِ الحَال، وهوَ غَنيٌّ عن حَمدِ الحامِدين، وشُكرِ الشَّاكرين، وكُفرانُ النِّعمَةِ يَكونُ وَبالاً على صَاحبِه، فيَجلُبُ لهُ النِّقمَةَ والهَلاك، والسُّخطَ والعَذاب.

*** *** ***

والله يقبلُ من عبدهِ إذا شكره، ويثيبهُ عليه:

{إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [سورة الزمر: ٧].

أي: إنْ تَكفُروا باللهِ وبنِعَمِهِ فإنَّهُ غَنيٌّ عن إيمانِكم وشُكرِكم، فلا يَضرُّهُ ذلك، ولا يُحِبُّ الكُفرَ ولا يأمرُ به، لِما فيهِ مِنَ الضَّرَرِ على العِباد. وإنْ تُؤمِنوا بهِ وتَشكُروا فَضلَهُ عَليكم، فإنَّهُ يُحِبُّهُ منكم ويُثيبُكم عَليه.

*** *** ***

وطلبَ سليمانُ عليه السلامُ عرشَ ملكةِ سبأ قبلَ أن تحضرَ عنده، فقالَ واحِدٌ مِن بَني إسرائيلَ لهُ عِلمٌ مِنَ الكِتاب: أنا آتيكَ بسَريرِها قَبلَ أن يَنضَمَّ جَفنُ عَينِكَ بعدَ فَتحِه! فقالَ عليه السلامُ في خَضوعٍ وخُشوع:

{هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [سورة النمل: ٤٠].

أي: إحضارُ السَّريرِ في هذهِ المدَّةِ المتناهيَةِ في القِصَر، مِن فَضلِ اللهِ ونِعمَتِهِ عَليّ، وليَختَبِرَني: أأشكُرُ فضلَهُ على ذلكَ وأعتَرِفُ بأنَّهُ مِن مِنَّتِهِ وحُسنِ تَدبيرِهِ ولُطفِه، أمْ لا أشكرُهُ عَليه؟

ومَن شكَرَ اللهَ على نِعَمِهِ فإنَّما يَنفَعُ نفسَهُ بذلك، لأنَّهُ يُعَرِّفُها الحَقّ، ويَستَجلِبُ لها المزيدَ مِنَ الخَيرِ والنَّفع، ومَن لم يَشكُرْ، فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عن شُكرِه، وعن عبادَةِ النَّاسِ وشُكرِهم أجمَعين. وهوَ سُبحانَهُ كَريم، فيُنعِمُ على مَن لم يَشكُرْهُ أيضًا، ولا يُعَجِّلُ في عُقوبَتِهم.

الصباح والمساء

(الغداة والعشيّ)

ينظر أيضًا: الليل والنهار

أقسمَ الله بالليلِ وبالصَّباح:

{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} [سورة التكوير: ١٧ – ١٨].
أي: أُقسِمُ باللَّيلِ إذا أقبَلَ بظَلامِه، وبالصُّبحِ إذا طلعَ وأضاءَ بنُورِه..

*** *** ***

وقالَ سبحانهُ في فضلِ أهلِ الذكر:
{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [سورة الكهف: ٢٨].
أي: احبِسْ نفسَكَ أيُّها النبيُّ معَ المؤمِنينَ الذينَ يَعبُدونَ ربَّهم، ويَدعونَهُ ويَذكُرونَهُ صَباحَ مَساء، لا تَمَلَّ مُجالسَتَهم، ولا تَستَعجِلِ الخُروجَ من عندِهم، فإنَّهم يُريدونَ بذلكَ وجهَ الله، ويَبتَغونَ رِضَاه.

*** *** ***

وبيوتُ الله يُذكَرُ فيها اسمهُ سبحانهُ صباحَ مساء:
{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} [سورة النور: ٣٦ – ٣٧]:
المساجِدُ أحَبُّ البِقاعِ إلى اللهِ في الأرض، أمرَ اللهُ أنْ تُطَهَّرَ مِنَ الدَّنَسِ والقَذَرِ والكلامِ اللَّغْوِ وكُلِّ ما لا يَليقُ بها، يَذكرُ فيها ويَتلو كِتابَهُ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، رِجالٌ مُؤمِنونَ مُخلِصون، هم عُمَّارُ بيوتِه، فلا تَشغَلُهمُ التِّجارَةُ بأرباحِها، ولا بَيعٌ ولا شِراءٌ عنِ التَّسبِيح، والتَّحمِيد، وطاعَةِ رَبِّهم ومحَبَّتِه، وعنِ الصَّلاةِ في مَواقيتِها، وإعطاءِ حُقوقِ الفُقَراءِ مِن أموالِهم، فالطَّاعَةُ مَقصِدُهم أينَما كانوا، يَخافونَ يَومَ الحِسابِ والجزاءَ، حيثُ تَضْطَرِبُ القُلوبُ والأبصَار، وتتَغيَّرُ مِنَ الفزَعِ ومِن شِدَّةِ هَولِ ذلكَ اليَومِ وأحوالِه.

*** *** ***

سبحانَ الله، في الصباحِ، وفي المساء، وفي كلِّ وقت:
{فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} [سورة الروم: ١٧].
أي: تقَدَّسَ اللهُ وتنَزَّهَ عمَّا يَصِفُهُ بهِ المشرِكونَ مِن نَقصٍ وعَيب، فسَبِّحوهُ أيُّها المؤمِنونَ ونَزِّهوهُ عنْ كُلِّ ما لا يَليقُ بشأنِه، عندَ المسَاءِ واللَّيلُ يُقْبِل، وعندَ الصَّباحِ والنَّهارُ يُسفِر.

وقالَ اللهُ تعالَى لنبيِّهِ محمدٍ صلى الله عليه وسلَّم:
{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} [سورة غافر: ٥٥].
أي: ونَزِّهِ اللهَ مِنَ النَّقصِ والشَّريكِ بذِكْرِه، واثنِ عَليهِ واشكُرْ لهُ فَضلَهُ عَليكَ وعلى المؤمِنين، في الصَّباحِ والمساء.

*** *** ***

وقالَ الله تعالى مذكِّرًا عبادَهُ بما سخَّرَهُ لهم من الأنعام:
{وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ} [سورة النحل: ٦].
أي: وعلى هذهِ الحيواناتِ مُسحَةُ جَمالٍ وزِينَةٍ تُبهِجُ نفوسَكم وتُريحُ أنظارَكم، حينَ تَردُّونَها عَشِيًّا منَ المرعَى إلى مبَارِكِها لتَستَريح، وحينَ تُرسِلونَها بالغَداةِ إلى المرعَى لتَسرَح.

*** *** ***

وقالَ في تسبيحِ الجبالِ مع نبيِّهِ داود:
{إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ} [سورة ص: ١٨]:
إنَّا سخَّرنا معَهُ الجِبالَ الشَّامِخات، فإذا سبَّحَ سبَّحَتْ ورجَّعَتْ معَه، في آخِرِ النَّهارِ وعندَ شُروقِ الشَّمس.

*** *** ***

وعندما بُشِّرَ زكريَّا بيحيَى خرجَ على قَومِهِ مِن مِحرابِه، وأشارَ إليهم أنْ صَلُّوا في الغَداةِ والعِشاء، شُكرًا للهِ على نِعمَتِه:
{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً} [سورة مريم: ١١].

*** *** ***

وطعامُ أهلِ الجنةِ يكونُ في مثلِ أوقاتِ الصباحِ والمساء:
{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً} [سورة مريم: ٦٢].
أي: لهم ما يَشتَهونَ مِن الأرزاقِ في مِثلِ أوقاتِ الصَّباحِ والمساء، أو أنَّ المقصودَ الدَّوامُ.

*** *** ***

وقالَ المشركون في القرآنِ زورًا وبهتانًا:
{وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [سورة الفرقان: ٥]:
قالَ المشرِكون: إنَّ ما في هذا القُرآنِ حِكاياتٌ وقِصَصٌ قَديمَة، وسِيَرٌ شَعبيَّةٌ سَطَّرَها الأوَّلون، استَنسَخها محمَّدٌ ممّا يُقالُ منها صَباحًا ومَساءً. وهم يَعلَمونَ أنَّهُ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ أُمِّيًّا، لا يَقرأ ولا يَكتُب.

*** *** ***

وآثارُ قومِ لوطٍ تُرى صباحًا ومساء، والخطابُ في الآيةِ لقريش:
{وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ} [سورة الصافات: ١٣٧]:

وإنَّكم لتَمرُّونَ على آثارِهم ومَنازلِهم وترَونَها صَباحًا في طَريقِ تِجارَتِكم إلى الشَّام. وكانوا في مِنطَقَةِ البَحرِ الميِّت، التي كانتْ تُسمَّى بُحَيرَةَ لُوط، وقاعِدَةُ قَومِهِ مَدينَةُ سَدُوم، ذُكِرَ أنَّها الآنَ غارِقَةٌ تحتَ مياهِ البَحرِ المذكور، وأنَّها تُوجَدُ على عُمُقِ سِتَّةِ أمتارٍ تحتَ سَطحِ المياه.

{وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [سورة الصافات: ١٣٨]:

وكذلكَ ترَونَها في المساءِ عندَ مُرورِكم بها، فلا تَغيبُ عَنكم، أفلَا تتَفَكَّرونَ وتتَّعِظون، وتَعتَبِرونَ فتؤمِنون؟

قالَ في "روح المعاني": {وَبِاللَّيْلِ} قيل: أي ومساء، بأنْ يُرادَ بالليلِ أوله؛ لأنهُ زمانُ السَّير، ولوقوعهِ مقابلَ الصباح، وقيل: أي نهاراً وليلاً، وهو تأويل...

الصدق والكذب

قالَ المشركون إن محمدًا اختلقَ القرآن من عنده!

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [سورة السجدة: ٣]:

يَقولُ المشرِكونَ إنَّ محمَّدًا اختلَقَ القُرآنَ مِن تِلقاءِ نَفسِه. بل هوَ القَولُ الحَقُّ والكلامُ الصِّدْقُ المنْزَلُ مِن عندِ رَبِّك، لتَدعوَ بهِ قَومًا وتُنذِرَهم، ما أتاهُم رَسولٌ مِن قَبلِ زَمانِكَ منذُ إسماعيلَ عَليهِ السَّلام – أو أنَّ المقصودَ أهلُ الفَترَة، بينَ عيسَى ومحمَّدٍ عليهما الصَّلاةُ والسَّلام – لعلَّهم يتَّعِظونَ بإنذارِك، ويَتَّبِعونَ الحقَّ بدَعوَتِك.

*** *** ***

ويذكَّرُ الكافرُ يومَ القيامةِ بما كانَ عليه في الدنيا:

{فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى . وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [سورة القيامة: ٣١ – ٣٢].

أي: فلا صدَّقَ بما جاءَ بهِ الرسُولُ بهِ مِن ربِّه، ولا أدَّى الصَّلاةَ المفروضَةَ عليه، بلْ جَحدَ وكفَر، وتَولَّى عنِ الطَّاعَةِ وخالَف.

*** *** ***

عاقبةُ من كذَّبَ بالصدق:

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ} [سورة الزمر: ٣٢].

أي: ليسَ هُناكَ أظلَمُ ممَّن كذَبَ على اللهِ فجعلَ لهُ الشَّريكَ والولَد، وكذَّبَ بما جاءَ بهِ الرَّسُولُ مِنَ الحقِّ والصَّواب. أليسَ لهؤلاءِ المشرِكينَ المكذِّبينَ نارُ جهنَّمَ يَكونُ لهم مُستَقَرًّا إلى الأبَد؟

*** *** ***

الابتلاءُ لبيانِ الصادقِ من الكاذبِ في إيمانه:

{أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [سورة العنكبوت: ٢ – ٣].

أي: أظَنَّ النَّاسُ أنَّهم سيُترَكونَ أنْ يَقولوا آمَنَّا دونَ أنْ يُبتَلوا في أنفُسِهم وأموالِهم، ليَتبيَّنَ الصَّادِقُ في إيمانِهِ مِنَ الكاذِب، والمخلِصُ مِنَ المنافِق؟

ولقدِ اختبَرنا المؤمِنينَ مِن قَبلِهم، فليُميِّزَنَّ اللهُ الذينَ صدَقوا في قَولِهم آمَنَّا، والكاذِبينَ منهم في ذلك، بأوامِرِنا ونَواهينا لهم، فيتبَيَّنُ المطيعُ والعاصِي منهم.

*** *** ***

طلبَ موسى عليه السلامُ من ربِّهِ أن يعضدَهُ بأخيهِ هارون..

{وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّيَ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ} [سورة القصص: ٣٤]:

وأخي هارونُ هوَ أكثَرُ فَصاحَةً منِّي، فاجعَلْهُ نَبيًّا مِثلِي، وأرسِلْهُ مَعي إلى فِرعَونَ ليَكونَ مُعينًا لي، يُبيِّنُ لهم ما أقول، ويُجادِلُهم بكَلامي، فإنِّيَ أخافُ أنْ يُكَذِّبوني فيما أقُول، ولا يُفصِحُ لِساني كثيرًا عندَ مُحاجَتِهم. وكانت في لسانِهِ حُبْسَة، عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام.

*** *** ***

وفي حديثِ مؤمنِ آلِ فرعون:

{وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} [سورة غافر: ٢٨]:

وقالَ لهم رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِن قَومِ فِرعَون، قد كتمَ إيمانَه: كيفَ تَقتُلونَ رَجُلاً لا ذَنْبَ لهُ إلاّ أنَّهُ يَقولُ رَبِّيَ الله، ولم يَقصِدْكم بإيذَاء، وقد أيَّدَ قَولَهُ بالدَّليلِ والبُرهان، فإذا كانَ كاذِبًا في قَولِهِ فإنَّ وَبالَ ذلكَ يَعودُ عَليه، ولنْ يَضُرَّكم بشَيء، وإذا كانَ صادِقًا فإنَّ أقلَّ ما في صِدقِهِ أنْ يُصيبَكم بَعضُ ما توَعَّدَكم به، ولو كانَ مُسرِفًا في القَتلِ والفَساد، وكاذِبًا في ادِّعاءِ النبوَّة، لَما هَداهُ اللهُ إلى البَيِّنات، ولَما أيَّدَهُ بالمعجِزات؟ وفي ذلكَ تَعريضٌ بفِرعَونَ وفَسادِه.

*** *** ***

وفي قصةِ الهدهدِ الذي جاءَ بخبرِ ملكةِ سبأ، قالَ له نبيُّ الله سليمانُ عليه السلام:

{سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [سورة النمل: ٢٧]:

أي: سنتَحرَّى ونتثَبَّتُ ممّا ذَكرتَه، أصدَقْتَ فيما أخبَرتَ به، أمْ أنَّكَ كاذِبٌ فيه؟

*** *** ***

حول الملاعنةِ بين الزوجين:

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة النور: ٦].

تفسيرها: الذينَ يَقذِفونَ زَوجاتِهم بالزِّنا، ولا يَجِدونَ مَن يَشهَدُ على ذلكَ سِوَى أنفُسِهم، يُقضَى عَليهم بالملاعنَة، فيُحضِرُ أحَدُهُم زَوجتَهُ عندَ القاضي، ويَشهَدُ أربعَ شَهاداتٍ – مُقابِلَ أربَعَةِ شُهودٍ – يَقولُ فيها إنَّهُ مِنَ الصَّادِقينَ فيما رَماها بهِ مِنَ الزِّنا،

{وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [سورة النور: ٧].

أي: في الشَّهادَةِ الخامسَةِ يَقولُ إنَّ لَعنةَ اللهِ عَليهِ إنْ كانَ كاذِبًا فيما رَماها بهِ مِنَ الزِّنا.

الصغير والكبير

(الهيّن والعظيم)

كلُّ أعمالِ الإنسانِ تُحصَى، صغيرها وكبيرها:

{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} [سورة الكهف: ٤٩].

أي: وُضِعَتْ صَحائفُ الأعمَالِ في أيدي أصحَابِها، وفيها كُلُّ ما قالُوهُ وعَمِلوهُ في الدُّنيا، كبيرًا كانَ أو صَغيرًا، وترَى الكفَرَةَ المجرِمينَ خائفينَ مَذعورِينَ ممّا في كِتابِهم منَ الجرائمِ والمنكَراتِ والذُّنوبِ العِظام، وهم يَقولونَ مُتعَجِّبينَ ومُتَحَسِّرين: يا وَيلَنا وهَلاكَنا، ما شَأنُ هذا الكِتابِ لا يَترُكُ ذَنبًا صَغيرًا ولا كَبيرًا إلاّ وسجَّلَه؟! ووَجدوا كُلَّ ما عَمِلوهُ في الدُّنيا مَسطورًا مُثبَتًا أمامَهم، مِن خَيرٍ وشَرّ، ولا يَظلِمُ رَبُّكَ أحَدًا مِنَ النَّاس، فلا يُقَدِّرُ عُقوبَةَ المجرِمِ إلاّ بمقدارِ ما يَستَحِقُّه، وقد يَعفو ويَصفَح، ولا يَنقُصُ من ثَوابِ المحسِن، بل يُضاعِفُ لهُ الأجر، وهوَ الحكَمُ العَدْل، والمحسِنُ الكَريم.

فكلُّ أعمالِ بني آدمَ مسطورةٌ ومحفوظة:

{وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ} [سورة القمر: ٥٣].

أي: وكُلُّ عمَلٍ صَغيرٍ وكبيرٍ مَسطورٌ بتَفاصيلِهِ ومُثبَتٌ في اللَّوحِ المحفُوظ.

*** *** ***

وفي التحذيرِ من الشائعاتِ دونَ تثبت، كإشاعةِ الإفكِ على أمِّنا عائشةَ رضي الله عنها، يقولُ ربُّنا سبحانَهُ وتعالَى:

{إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ} [سورة النور: ١٥].

تفسيرها: إذْ تتَلقَّفونَ هذا الخبَرَ السَّيِّءَ ويَرويهِ بَعضُكم عن بَعض، وتَقولونَ قَولاً لا عِلمَ لكم به، ولا تثَبُّتَ لكم فيه، وتحسَبونَ هذا القَولَ يَسيرًا في حَقِّ أُمِّ المؤمِنين، زَوجِ رَسولِ اللهِ الكَريم، والحالُ أنَّهُ قَذْفٌ وشائعَةٌ خَطيرَة، يترَتَّبُ عليهِ وِزرٌ كبير، وعَذابٌ عَظيمٌ يَومَ القيامَة، بقَدْرِ شناعتِهِ وآثارِهِ السيِّئة.

الصمم والسماع
(الأصمّ والسميع)

قالَ الله تعالى:

{وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ} [سورة يونس: ٤٢].

أي: مِنْ هؤلاءِ المشرِكينَ مَن يَستَمِعُ إلى كلامِكَ الحسَن، وإلى القُرآنِ الكريم، ولكنَّهم لا يَتدبَّرونَه، بل لا يُصغُونَ إليهِ حتَّى يَستَفيدوا منه، فكأنَّهم لم يَسمَعوه، وعَطَّلوا بذلكَ حاسَّةَ السَّمعِ عندَهم، وأنتَ لا تَقدِرُ على إسماعِ الأصمّ، ولو ضمَّ إلى سمعِهِ عقلَهُ الذي لا يَعقِلُ به، فقد أُصيبَ في عَقلِه، وفي جَميعِ حَواسِّه.

الضحك والبكاء

قالَ الله تعالى:

{وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى} [سورة النجم: ٤٣].

أي أنَّهُ تَعالَى أوجدَ في عِبادِهِ الضَّحِكَ والبُكاء، والسُّرورَ والحُزن، وأسبَابَهما، وهُما مُختَلِفان.

وقالَ سبحانهُ في السورةِ نفسها (٥٩ – ٦١):

{أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنتُمْ سَامِدُونَ}.

أي: أفمِنْ هذا القُرآنِ تَعجَبونَ أيها المشركون أنْ يَكونَ وَحيًا مِنَ اللهِ؟ وتَستَهزِؤونَ بهِ وأنتُم تَضحَكون، ولا تَبكونَ خَوفًا ممَّا فيهِ مِنَ الوَعيد؟ وأنتُمْ لاهونَ غافِلون، مُعرِضونَ عنهُ مُستَكبِرون؟

الطاعة والمعصية

نداءٌ للأعرابِ بالطاعة، وتحذيرٌ لهم من العصيان:

{قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً} [سورة الفتح: ١٦]:

قُلْ للمُتخَلِّفينَ عنِ الجِهادِ مِنَ الأعرَاب: ستُدعَونَ في وَقتٍ لاحقٍ إلى مُحارَبَةِ قَومٍ أقوياءَ شَديدي البَأس، تُقاتِلونَهم إلى أنْ يُسلِموا، فإنْ تَستَجيبوا لدَاعي الجِهادِ وتُقاتِلوا، يُعطِكمُ اللهُ أجرًا حسَنًا مَرضيًّا، في الدُّنيا وفي الآخِرَة، وهوَ المغنَم، ثمَّ الجنَّة. وإذا أعرَضتُم وتعلَّقتُم بأعذارٍ كاذِبَةٍ كما كانَ في زمَنِ الحُدَيبيَة، فسيُعاقِبُكمُ اللهُ عُقوبَةً شَديدَة، لتَضاعُفِ جُرمِكم.

*** *** ***

وبيانٌ عامٌّ للمطيعِ والرافضِ في موضوعِ الجهاد:

{وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً} [سورة الفتح: ١٧].

أي: مَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَهُ فيما أُمِرَ بهِ ونُهيَ عنه، يُدْخِلْهُ اللهُ جَنَّاتٍ عاليَات، تَجري مِن تَحتِ أشجارِها الأنهار، ومَن يُعرِضْ عنِ الطَّاعَة، ويَتخلَّفْ عنِ الجِهاد، يُعَذِّبْهُ في الدُّنيا بالمذلَّةِ والصَّغار، وفي الآخِرَةِ بالعُقوبَةِ والنَّار.

الطيّب والخبيث

لا يستوي الخبثُ والطيب:

{قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة المائدة :١٠٠].

أي: لا يَتعادَلُ الحَلالُ والحَرام، ولا يَستوي الحسَنُ والرديء، ولا الصَّالحُ والطَّالح، ولو سَرَّكَ كثرةُ الخَبيثِ منه، فالقَليلُ منَ الحلالِ النافِع، خَيرٌ منَ الكثيرِ الحرامِ الضارّ. وفي الحديثِ الصحيح: " ما قَلَّ وكفَى، خيرٌ ممّا كثرَ وألهَى". فاتَّقوا اللهَ وآثِروا الطيّبَ على الخَبيثِ وإنْ قَلّ، فالمحمُودُ القَليلُ خَيرٌ منَ المذمومِ الكثير، فأقبِلوا على ما أحلَّ اللهُ لكمْ مِنَ الطيّباتِ يا أصحابَ العُقولِ الراجِحةِ والأفهامِ المستَنيرةِ واقنَعوا بها، لتَنالوا السَّعادةَ في الدُّنيا والفوزَ في الآخِرَة.

*** *** ***

مَن الطيّبُ من الناس، ومن الخبيث؟

قالَ ربُّنا سبحانهُ وتعالى:

{مَا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ} [سورة آل عمران: ١٧٩].

أي: ما كانَ اللهُ لِيَدعَ المؤمِنينَ هكذا بدونِ تَمحيصٍ وابتِلاءٍ وقدِ التبسَ بهمُ المنافِقون، فكانَ لا بدَّ منَ المِحنةِ حتَّى يَظهرَ الوليُّ منَ العَدوّ، ويَبِيْنَ المؤمِنُ الصَّابرُ منَ المنافقِ الفاجِر، وذلك يَومَ أُحُد، وكانَ كذلك، حيثُ تَبيَّنَ المخلِصونَ المجاهِدونَ الذينَ ثَبتُوا معَ رسولِ الله، وظَهرتْ مخالفةُ المنافِقينَ وخيانتُهم للهِ ورسولِه.

وأنتم لا اطِّلاعَ لكم على الغَيب، ولا ما تَكُنُّهُ قُلوبُ المنافِقينَ من كفرٍ ونِفاق، ولولا هذهِ الأسبابُ التي أجرَاها اللهُ لكم، لَما عرفتُم خبرَهم وشِدَّةَ عَداوتِهم لكم. ويَختارُ اللهُ مِنْ رُسُلِهِ من يَشاء، كمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، ليَتبيَّنَ مَن يَتَّبعُهُ ومَن لا يَتَّبعُه، ومَن يُعاديهِ مِن غيرِه،

فيَتميَّزُ الخَبيثُ مِنَ الطيّب، ويُخبرُهُ اللهُ بما صَدرَ عنِ المنافِقينَ مِن أقوالٍ وأفعَال، فيَفضَحُهم، ويخلِّصُكم مِن شرّهم وإيذائهم.

فالمؤمنُ طيّب، والكافرُ خبيث:

{لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة الأنفال: ٣٧].

أي: ليُمَيِّزَ اللهُ بالجِهادِ والإنفاقِ الكافِرينَ منَ المؤمنين، والمفسِدينَ منَ المصلِحين، ويَضمَّ الخبيثَ الفاسِدَ بعضَهُ إلى بَعض، ثمَّ يجعلَهُ مُتراكِباً مُتراكِماً، فيُلقيهِ في جَهنَّم. فهؤلاءِ الذينَ خَسِرَتْ تِجارتُهُمْ في الدُّنيا والآخِرَة، حيثُ اشترَوا بأموالِهم عذابَ الآخِرَة، فخَسِروا أموالَهم وأنفسَهم.

*** *** ***

والطيبونَ للطيباتِ والخبيثونَ للخبيثات:

{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [سورة النور: ٢٦]

أي: الخَبيثاتُ السَّيِّئاتُ مِنَ النِّساءِ مُناسِباتٌ ولائقاتٌ بالخَبيثينَ السَّيِّئينَ مِنَ الرِّجال، والخَبيثونَ منهم لائقونَ بالخَبيثاتِ منهنّ ومُوافِقونَ لَهُنّ، والطيّباتُ العَفيفاتُ مِنَ النِّساءِ مُختَصَّاتٌ بالطيّبينَ مِنَ الرِّجال، والطيّبونَ منهم مُختَصُّونَ بالطيّباتِ منهنّ، وهم بَعيدونَ عمّا يَقولُهُ أهلُ الزُّورِ والبُهتان، لهم مَغفِرَةٌ عَظيمَةٌ عندَ رَبِّهم، بسبَبِ صَبرِهم على ما قيلَ فيهم، وجنَّةُ عَدْنٍ يُقيمونَ فيها.

والإشارَةُ فيها إلى عائشَةَ رَضيَ اللهُ عنها. قالوا: وحَيثُ إنَّ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أطيَبُ الطيّبين، فإنَّ الصِّدّيقَةَ رَضيَ اللهُ عنها أطيَبُ الطيّباتِ بالضَّرورَة.

*** *** ***

والأرضُ قد تكونُ طيبة، وقد تكونُ خبيثة!

{وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} [سورة الأعراف: ٥٨].

أي: الأرضُ الكريمةُ الطيّبةُ يَخرجُ نباتُها حَسَناً غزيرَ النَّفع، بمشيئةِ اللهِ وتَيسيره، والأرضُ الخبيثة، كالسِّباخِ ونحوِها، لا يَخْرُجُ نباتُها إلاّ قَليلاً وما لا خيرَ فيه. كذلك نبيّنُ الآياتِ الباهِرَةَ التي تدلُّ على قُدرةِ الله، ونكرّرُها، لمنْ يفكّرُ فيها، ويَعتبرُ منها، فيَشكرُ اللهَ على نِعَمِه.

*** *** ***

وشجرةٌ طيبةٌ وأخرى خبيثة:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء} [سورة إبراهيم: ٢٤].

تفسيرها: ألا تَنظرُ أيُّها النبيُّ كيفَ وضعَ اللهُ مثَلاً في مَكانهِ المناسِب، كَلِمَةً طَيِّبَة، نافِعةً مُفيدَة، كشَجَرةٍ طَيِّبَة، مُبارَكةٍ نافِعَة، جَذْرُها ضارِبٌ في الأرض، فهيَ قويَّةٌ ثابِتَةٌ لا تُزَعزِعُها الرِّياح، وفَرْعُها سَامِقٌ يَعلو في السَّماء، فهيَ مُثمِرةٌ مُفيدَة، تَستَمِدُّ غِذاءَها وقوَّتَها مِن عُروقِها القويَّةِ الغائرَةِ في الأعمَاق.

{تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [سورة إبراهيم: ٢٥]:

تُعطي ثمَرَها الكثيرَ الطيّبَ في كُلِّ حينٍ وقَّتَهُ اللهُ لإثمارِها، بإرادَةِ خالقِها.

وهذهِ الأمثالُ التي يَضرِبُها اللهُ للنَّاسِ مِن واقِعِ حَياتِهم، فيها زيادَةُ فَهمٍ لهم، ليُشاهِدوا ذلكَ ويُقارِنوا، ويَتذَكَّروا ويَفهَموا، ويَتفكَّروا ويَعتَبِروا.

والمؤمِنُ كمَثَلِ الشجَرةِ الطيّبَة، يَنطِقُ بأجَلِّ وأرفَعِ كَلمَةٍ في الوُجود، وهيَ لا إلهَ إلاّ الله، وهذهِ الكلمةُ تؤتي ثَمراتِها الطيّبَةَ إذا أخلصَ بها قائلُها، فيُتبِعُها بالأعمَالِ الصَّالِحة، ويَدعو ويُجاهِدُ ويَنشرُ الخير...

والشجَرةُ الطيّبَةُ كالنَّخلة، في قَولِ الأكثَرين.

{وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} [سورة إبراهيم: ٢٦]:

ومَثَلُ كَلِمَةٍ خَبيثَة، وهيَ الكفرُ بالله، والجَهلُ به، أو الباطلُ عُمومًا، ممّا لا يَرضاهُ الله، كشَجَرةٍ خَبيثَة: رائحةً، أو طَعمًا، أو صورَةً، أو كُلَّ ذلك، تَراها ظاهِرةً على الأرض، وقد تَنتَفِشُ وتتَعالَى، ولكنَّ جُذورَها خَفيفَةٌ وغَيرُ عَميقَة، فإذا استؤصِلَتْ بَدَتْ وكأنَّها انتُشِلَتْ مِن فَوقِ الأرض، فلا أصلَ لها ولا عِرق، وكذلكَ الكُفرُ والشِّرك، لا حُجَّةَ فيهما، ولا ثَبات، ولا قوَّة، بل فيهما انحِرافٌ وأباطيلُ وأضرارٌ لا تَخفَى.

*** *** ***

وما المالُ الطيّب، وما الخبيثُ منه؟

{وَآتُوا اليَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا} [سورة النساء: ٢].

أي: أعطُوا اليَتامَى أموالَهم، ولا تَظلِموهم فتُبَدِّلوا الدنيءَ الحقيرَ من أموالِكمْ بالطيّبِ الغالي من أموالِهم، وتَقولوا هذا بذاكَ ما دامَ مِن جنسٍ واحِد! ولا تَخلِطوا أموالَهم بأموالِكم وتأكلوها جَميعاً، فهو إثمٌ كبيرٌ، فاجتَنِبوه.

الظاهر والباطن
(الواضح والخفيّ)

الله تعالى:

{هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [سورة الحديد: ٣].

أي: هوَ الظَّاهِرُ في وجودِهِ بالدَّلائلِ القَطعيَّة، فليسَ فوقَ ظُهورِهِ شَيء، لدلالَةِ الآياتِ الباهِرَةِ عليه. وهوَ الباطِنُ فليسَ دونَهُ شَيء، فلا أحدَ يُدرِكُ كُنهَهُ سُبحانَه، لا عَقلاً ولا حِسًّا. وقد أحاطَ عِلمُهُ بكُلِّ شَيء، فلا يَخفَى عَليهِ صَغيرٌ ولا كَبير، ولا ظاهِرٌ ولا باطِن.

*** *** ***

وفي اليومِ الآخِرِ يُضرَبُ حاجزٌ بين المؤمنينَ والمنافقين:

{يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [سورة الحديد: ١٣].

أي: في ذلكَ اليَومِ العَصيب، يَقولُ المنافِقونَ والمنافِقاتُ للمؤمِنين: انتَظِرونا نَستَضِئْ مِن نورِكم لنَلحقَ بكم. فيُقالُ لهم: ارجِعوا مِن حيثُ جئتُم، مِنَ المكانِ الذي قُسِمَ فيهِ النُّور، فاطلبوهُ لأنفُسِكم مِن هُناك. فلم يَجِدوا شَيئًا، فضُرِبَ بينَ الفَريقَينِ بحاجِزٍ لهُ باب، باطنُهُ الذي يَلي جانِبَ المؤمِنينَ فيهِ الجنَّةُ والنَّعيم، وظاهِرُهُ مِنَ الخارِجِ في جهَةِ المنافِقينَ العَذابُ والنَّار.

الظلمات والنور

الظلامُ والنورُ آيتانِ من آياتِ الله تعالى منَّ بهما على عباده، ففيهما منفعةٌ لهم، في ليلهم ونهارهم. قالَ الله تعالى في الآيةِ الأولى من سورةِ الأنعام:

{الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ}.

*** *** ***

أنزلَ اللهُ القرآنَ ليُخرجَ به الناسَ من ظلماتِ الشركِ والضلالِ إلى نورِ الإيمانِ والحقّ. قالَ الله تعالى في الآيةِ الأولى من سورةِ إبراهيم:

{الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}.

أي: هذا كِتابٌ أنزَلناهُ إليكَ أيُّها النبيُّ – وليسَ هوَ مِن عنِدك – لتُخرِجَ بهِ النَّاسَ مِن ظُلماتِ الضَّلالِ إلى نُورِ الإيمان، منَ العَقائدِ الباطِلةِ إلى عِبادَةِ اللهِ وحدَه، ومِنَ التبَعيَّةِ والتَّقليدِ الأعمَى إلى التفكُّرِ والتدبُّرِ واتِّباعِ الحقّ، بأمرِ ربِّهم وتَيسيرِهِ وتَوفيقِه، العَزيزِ الذي لا يُقهَرُ، المحمودِ فيما يَقولُ ويَفعَل.

*** *** ***

والله تعالَى وملائكتهُ يصلُّون على المؤمنينَ لإخراجِهم من الظلماتِ إلى النور:
{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [سورة الأحزاب: ٤٣].
أي: اللهُ يَذكرُكمْ ما ذَكرْتُموه، ويَرحَمُكمْ بذلك، ويُثني عَليكم عندَ مَلائكتِه، وهم يَدعونَ ويَستَغفِرونَ لكم كذلك، ليُخرِجَكم اللهُ مِن ظُلُماتِ الجَهلِ والمعاصِي إلى نُورِ العِلمِ والإيمانِ والطَّاعَة، وكانَ رَحيمًا بالمؤمِنينَ إذْ هَداهُم للحَقِّ في الحيَاةِ الدُّنيا، وأعدَّ لهم ما يَسُرُّهم في الآخِرَة.

*** *** ***

المؤمنونَ في نُور، يرونَ الحقَّ فيتَّبعونه، ويفرّقون بين الحقِّ والباطل، والكافرونَ في الظلماتِ يتردَّدون. قالَ الله تعالى:
{اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [سورة البقرة: ٢٥٧].
أي أنَّ اللهَ يؤيِّدُ عبادَهُ المؤمنينَ فيقوِّي عزائمَهمْ ويَهديهِمْ إلى الحقّ، ويُخرِجُهمْ منْ ظُلماتِ الكُفرِ والشكِّ إلى نورِ الحقِّ المبين، وإلى ضيائهِ وإشعاعهِ الصافي، الذي يَملأ القلبَ اطمئناناً ويَزيدُهُ ثَباتاً.

أمّا الكافرونَ الذينَ رَكنوا إلى الطاغوتِ ورَضُوا بالضَّلال، فإنَّ الشيطانَ يُزيّنُ لهمْ ما هم فيهِ منَ الغَيِّ والضَّلالِ حتَّى يَثْبُتوا عليه، بلْ يَزيدُهمْ غِوايةً واعوِجاجاً، وظَلاماً وهَوًى، وشُروداً وتِيهاً، وشَكًّا وقلَقاً.

وهؤلاءِ مَصيرُهمُ النار، ماكثونَ فيها أبدًا، فهوَ اللائقُ بأصحابِ الظُّلمات، الذين آثَروها على النورِ والحقِّ المبين، ولا يَستوي الحقُّ والباطِل، كما لا يَستوي أهلُهما، ولا يَستوي كذلكَ مصيرُهما.

*** *** ***

ولا يستوي النورُ والظلمة:

{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ} [سورة الرعد: ١٦].

تفسيرها: هل يَستوي الكُفرُ والشِّركُ والضَّلالُ وهوَ ظُلُمات، معَ الإيمانِ والتَّوحيدِ والحقِّ وهوَ النورُ المبِين؟

*** *** ***

وأعمالُ الذينَ كفَروا لا قيمَةَ لها ولا وَزنَ لآثارِها، ولو بدَتْ في شَكلِ أعمالٍ خَيريَّة، فهي:

{كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} [سورة النور: ٤٠].

أي أنَّ أعمالَهم هذهِ التي حَسِبوا أنَّها ستَنفَعُهم – وهيَ لا تَنفَعُهم، لأنَّها غَيرُ مَبنيَّةٍ على الإيمان – كظُلُمات، لخُلوِّها مِن نُورِ الحَقّ، في بَحرٍ عَميقٍ كَثيرِ الماء، يَعلوهُ مَوجٌ عَظيم، مِنْ فَوقِهِ مَوجٌ مُتراكِم، وأعلاهُ سَحابٌ مُظلِم، فهيَ ظُلُماتٌ مُتكاثِفَةٌ ومُتراكِمَةٌ بَعضُها على بَعض، إذا أخرجَ المرءُ يدَهُ لم يَكَدْ يَراها، وهيَ أقرَبُ شَيءٍ إليه، مِن شِدَّةِ الظَّلام.

ومَن لم يَجعَلِ اللهُ لهُ دِينًا وإيمانًا فلا دِينَ له، ومَن لم يَهدِهِ اللهُ فهوَ جاهِلٌ هالِك، لا قيمَةَ لأقوالِهِ وأعمالِهِ مَهما بَدَتْ طيّبَة، فالمهِمُّ طاعَةُ الله، ومُوافقَةُ دِينِه، والتصرُّفُ كما تُمليهِ أوامِرُه، لا كما يَرغَبُ الكافِرُ ويتصرَّفُ بهَواه.

الظن واليقين = الشك واليقين

العداوة والمودَّة
(العدوّ والصديق)

قالَ الله تعالى:

{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} [سورة المائدة: ٨٢].

تفسيرها: ستَجِدُ أشدَّ النَّاسَ عداءً للمؤمِنينَ اليهودَ والمشرِكين.

أمّا اليهود: فلعِنادهم وجُحودهم، وتضاعُفِ كُفرِهم، واتّباعِهمُ الهوَى، وكذبِهم وافترائهم، وتمرُّدِهم على الحقّ، حتَّى قَتلوا أنبياء، وهمُّوا بقتلِ رسولِنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّم غيرَ مرَّةٍ وسَحَروه، ووَضعوا في دِينهم توجيهاتٍ بإيذاءِ مَن يُخالِفُهم!

والمشرِكونَ يُماثلونَهم في صِفاتٍ عدَّة، وقد غلبَ عليهمُ التقليدُ فسَدُّوا منافذَ الفِكرِ والفِطرةِ في نفوسِهم، فلازَموا الكفر، وفتَنوا المؤمنينَ عن دينِهم، وحارَبوا الدِّينَ الحقَّ بكلِّ ما أُوتوا من قوَّة..

وستَجِدُ أقربَ الناسِ مَودَّةً للمؤمِنين – من بينِ مِلَلِ الكُفرِ – الذينَ زَعَموا أنَّهم نصارَى مِن أتباعِ المسيح، وذلكَ لرأفةٍ في قلوبِهم ورِقَّة، وفيهم علماءُ ورُهبانٌ وعُبّادٌ يتَّصفونَ بالعلمِ والعِبادةِ والتواضُع، وهؤلاءِ لا يَستكبرونَ عنِ الانقيادِ للحقِّ إذا عَرَفوهُ وفَهِموه. ولعلَّ التعبيرَ للكثيرِ مِن هؤلاء، أو أكثرِهم.

قالَ القاضي البيضاويّ: فيهِ دليلٌ على أنَّ التواضُعَ والإقبالَ على العِلمِ والعمَل، والإعراضَ عنِ الشَّهوات، مَحمودٌ وإنْ كانَ مِن كافِر.

قلت: وهناكَ فُرصةٌ طيّبةٌ لدعوةِ هذه الفئةِ إلى الإسلام، وأمَلٌ في إسلامِهم.

والآيَةُ مُرتَبِطَةٌ بما بَعدَها:

{وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [سورة المائدة: ٨٣].

أي: إذا سَمِعَ هؤلاءِ وأمثالُهم ما نزلَ على الرسُولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلمَ مِن آياتِ القُرآن، ترَى الدموعَ تَسيلُ مِن عُيونِهم، وذلكَ لما عَرَفوا مِنَ الحقِّ الذي عندَهم، منَ البِشارةِ ببعثةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، مثلَما حدثَ للنجاشيِّ وقسِّيسينَ مِن حَولِه، ولم يَكونوا مثلَ اليهودِ بُهْتاً مُعانِدينَ ومُكَذِّبينَ مُحَرِّفين، بلْ قالوا في تواضُعٍ وخُشوع، وأوبَةٍ وإيمان: اللهمَّ إنّا آمنّا بما أنزلت، فاكتُبنا معَ مَنْ يَشهدُ بصحَّةِ هذا، واجعَلنا عندَكَ معَ أمَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وممَّن يَشهَدونَ معهم بالحقّ.

{وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ} [سورة المائدة: ٨٤]:

قالوا: ولماذا لا نؤمِنُ باللهِ ولا نُنَزِّهُهُ عن الشِّركِ كما هوَ في دينِ الإسلام، ونؤمِنُ جَميعاً بما جاءَنا منَ الحقِّ والتوحيدِ الذي لا شائبةَ فيه، ونحنُ نَتمنَّى ونَرغَبُ أنْ يُدخِلَنا ربُّنا جنَّته، ويَشمَلَنا برحمتهِ معَ عبادهِ المؤمِنينَ الصَّالحين؟

*** *** ***

وفي قصةِ موسى عليه السلامُ قُبيلَ سفرِه إلى مَدين:

{وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ} [سورة القصص: ١٥].

تفسيرها: ودخَلَ موسَى مَدينَةً مِن مدُنِ مِصرَ في وَقتٍ غَيرِ مَعهودٍ لا يَتوَقَّعُهُ أهلُها، فوجدَ فيها رَجُلَينِ يَتضارَبان، أحَدُهما مِن طائفَتِهِ مِن بَني إسرائيل، والآخَرُ مِن أعدائهِ مِن قَومِ فِرعَون، فطلبَ الإسرائيليُّ المساعَدَةَ والنَّجدَةَ مِن موسَى على عَدوِّهِ القِبطيّ، فضَرَبَهُ موسَى بقَبضَةِ كَفِّهِ

فقَتَلَه، فلمَّا رأى موسَى أنَّهُ قُتِل، ولم يَكنْ مِن قَصدِهِ ذلك، قالَ نادِمًا: هذا مِن إغواءِ الشَّيطانِ وإثارَتِهِ لي، إنَّهُ بَيِّنُ الضَّلالَة، ظاهِرُ العَداوَةِ للإنسَان.

*** *** ***

والذين يؤمنونَ بالله لا يوادُّونَ أعداءَ الله:

{لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة المجادلة: ٢٢].

أي: لا تَجِدُ أحدًا مِنَ المؤمِنينَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ – بصِدقٍ وإخلاصٍ – يُوالُونَ ويُصادِقونَ أعداءَ اللهِ ورَسولِه، ولو كانَ هؤلاءِ الأعداءُ آباءَهم، أو أبناءَهم، أو إخوانَهم، أو قَبيلتَهم وعَشيرتَهم، أو أيًّا مِن أقارِبِهم، فالعَقيدَةُ أهَمُّ مِنَ النَّسَب، ومَن وَالاهم فهوَ معَهم يَومَ القيامَة.

والذينَ لا يُوادُّونَهم ولو كانوا أقرِباءَهم، فأولئكَ الذينَ أثبتَ اللهُ في قُلوبِهِمُ الإيمانَ وزيَّنَهُ لهم، فهم مُوقِنونَ مُخلِصون، وقَوَّاهم بروحٍ مِن عِندِه، ليَحصُلَ لهمُ الطُّمأنينَةُ والثَّباتُ على الإيمَانِ والعمَلِ الصَّالح، ويُدخِلُهمُ اللهُ جَنَّاتٍ عاليَاتٍ واسِعات، تَجري في خِلالِها أنهَارٌ مِن مَاءٍ زُلال، ومِن لبَن، وعسَل، وخَمرٍ لَذيذٍ لا يُسكِر، مُخلَّدينَ فيها أبدًا، رَضيَ اللهُ عَنهم بطاعَتِهم له، فأثابَهمُ النَّعيمَ المقيم، ورَضُوا عَنهُ بما آتاهُم مِنَ الجنَّةِ والرِّضوان، أولئكَ عِبادُ اللهِ مِن أهلِ كرامَتِه، ألَا إنَّ عِبادَ اللهِ المؤمِنينَ المطيعين، همُ السُّعَداءُ الفَائزون.

وفي موضوعهِ قصةُ حاطبِ بن أبي بلتعةَ كما وردتْ في الآيةِ الأولَى من سورةِ الممتحنة.

وفي الآيةِ السابعةِ من السورة:

{عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة الممتحنة: ٧].

أي: عسَى اللهُ أنْ يَجعلَ بينَكم وبينَ أقاربِكمُ المشرِكينَ مَحبَّةً بعدَ العَداوَةِ والبُغض، وأُلفَةً بعدَ الفُرقَةِ والبُعد، واللهُ قادِرٌ على تَغييرِ الأحوَالِ وتَسهيلِ أسبَابِ المَوَدَّة، واللهُ يَغفِرُ لمنْ تَاب، ويَرحَمُ مَن آمنَ وأطَاع.

وقد أنجزَ اللهُ وَعدَهُ الكريم، فأسلمَتْ قُرَيشٌ بعدَ فَتحِ مكَّة.

*** *** ***

وحالُ الأصدقاءِ في الآخرة:

{الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [سورة الزخرف: ٦٧].

أي: الأصدِقاءُ المحِبُّونَ في يَومِ القيامَةِ يَكونُ بَعضُهم أعداءً لبَعض، إلاّ المتحابّينَ في طاعَةِ الله، فإنَّها باقيَة، ومُثابٌ عَليها.

العدوّ والصديق = العداوة والمودَّة

العذب والمالح = الحلو والمرّ

العزُّ والذلّ

العزَّةُ للهِ ولرسولهِ وللمؤمنين:

{يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة المنافقون: ٨]:

يَقولُ كبيرُ المنافِقين: إذا رجَعنا إلى المدينَةِ مِن هذهِ الغَزوَة، فسيُخرِجُ منها الأعِزَّةُ – يَعني نَفسَهُ وأتْباعَهُ المنافِقينَ – الأذِلَّةَ، يَعني الرسُولَ صلى الله عليه وسلم وأصحابَهُ المؤمنين!

ولله الغَلبَةُ والقوَّةُ ولِمَن أعَزَّهُ اللهُ تَعالَى مِن رَسُولِهِ والمؤمنين، لا لغَيرِهم. والعِزَّةُ المستَمدَّةُ مِن عِزَّتِهِ تَعالَى لا تَهونُ ولا تَلين، ولا تَخرُجُ مِنَ القَلبِ إلاّ أنْ يَضعُفَ فيهِ الإيمَان، ولكنَّ المنافِقينَ لا يَعلَمونَ ذلك؛ لجَهلِهم، وضَلالِهم، وغُرورِهم.

*** *** ***

واللهُ تعالَى يعزُّ مَن يشاءُ ويُذلُّ مَن يشاء:

{وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة آل عمران:٢٦]

أي: تَجعلُ مَن تشاءُ مِن عبادِكَ عَزيزاً كريماً، وتَجعلُ مَن تشاءُ منهم ذَليلاً مَهيناً، بالقِسطِ والعَدل، فميزانُ الحقِّ بيدِك، وكلُّ شيءٍ عندَكَ بميزان، والخيرُ كلُّهُ بيدِكَ وفي مُلكِك، وأنتَ قادرٌ على كلِّ شَيء، فتُعطي مَن تشاء، وتَمنعُ مَنْ تشاء، وما شِئتَ كان، وما لم تَشَأ لم يَكن.

*** *** ***

قالتْ ملكةُ سبأ لقومِها بعدَ أن قرأتْ رسالةَ النبيِّ سليمانَ عليهِ السلام، التي يدعوها فيها وقومَها إلى الاستسلام:

{قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [سورة النمل: ٣٤]:

قالتِ الملِكَة: إنَّ الملوكَ إذا دخَلوا بلَدًا عُنوَةً أفسَدوهُ وخرَّبوه، وقصَدوا مَن فيهِ مِنَ الحُكَّامِ والأشرَافِ والجُنودِ فأهانوهُم غايَةِ الهَوان، إمَّا بالقَتلِ أو بالأسر، ليَستَقيمَ لهُمُ الأمر. وكما قالَتِ الملِكَة، فإنَّهم يَفعَلونَ ذلك.

العفة والفجور

(الحصانة والبغاء)

قالَ اللهُ تعالى:

{وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة النور: ٣٣].

أي: لا تُجبِروا إماءَكم على الزِّنا إذا أرَدْنَ الصَّوْنَ والعِفَّة، لتَطلبُوا بذلكَ المالَ مِن كَسبِهنَّ أو صَدَاقِهنَّ أو بَيعِ أولادِهِنّ. وليسَ المقصودُ أنَّ التي لا تُريدُ العَفافَ زَنَت، ولكنَّهُ بيانٌ لقُبحِ الأمرِ وشَناعَتِه، أو أنَّهُ خرجَ مَخرجَ الغالِب. وقد نزَلَتِ الآيَةُ في إماءٍ كُنَّ يُرِدْنَ العَفافَ وسَيِّدُهنَّ (كبيرُ المنافِقينَ) يُكرِهُهنَّ على الفُجورِ والزِّنا، فنزلتِ الآيَةُ لبيانِ حُكمٍ وتَوضيحِ حالَة.

فمَن أجبرَهُنَّ على ذلكَ فإنَّ إثمَهنَّ على مَن أجبرَهُنّ، واللهُ يَغفِرُ لهنَّ ما دُمْنَ مُكرَهات، ويَرحَمُهنَّ ولا يُعَذِّبُهنَّ على ذلك.

العقل والهوى

(التبصر والهوى)

ومن موازناتِ القرآنِ الكريمِ بين متبصِّرٍ متبيِّنٍ وصاحبِ هوًى منحرف:

{أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ} [سورة محمد: ١٤]:

أفمَن كانَ على بَصيرَةٍ مِنَ الحقّ، ويَقينٍ مِن كتابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبيِّه، كالمشرِكينَ الذينَ زيَّنَ الشَّيطانُ في نُفوسِهم عملَهمُ السيِّء، مِنَ الشِّركِ والمعاصي، واتَّبَعوا أفكارَهم المنحَرِفَة، وأهواءَهم الزَّائغَة؟ لا يَستَوون.

العلم والجهل

قالَ أهلُ الكتابِ في إبراهيمَ عليه السلامُ ما لا علمَ لهم به، فوقَعوا في جهلٍ وضلال، وردَّ عليهم سبحانهُ بقوله:

{يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [سورة آل عمران: ٦٥].

تفسيرها: يا أهلَ الكتاب، لِمَ يَدَّعي اليهودُ منكم أنَّ نبيَّ الله إبراهيمَ منهم، ولِمَ يَدَّعي النصارَى أنَّهُ منهم، كيفَ تدَّعونَ ذلكَ وقد كانَ زمنهُ قبلَ أنْ تَنزِلَ التوراةُ على موسَى، وقبلَ أنْ يَنزِلَ الإنجيلُ على عيسَى، ألاَ تَرونَ أنَّ هذهِ دعَوى مُخالِفةٌ للعَقل؟ ألاَ تفكّرونَ في ذلك؟

{هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [سورة آل عمران: ٦٦].

أي: لقد تجادَلتُم فيما بينَ أيديكم مِن كُتبٍ محرَّفةٍ تَعلَمونَ ما فيها، فما بالُكم تَتكلَّمونَ فيما لا علمَ لكم بهِ ولا تَعرِفونَه؟ واللهُ هوَ الذي يَعلَمُ بذلك، فهوَ ممّا مضَى من عِلمِ الغَيب، وأنتُم لا تَعلَمونَه.

{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة آل عمران: ٦٧].

والحقُّ أنَّ إبراهيمَ ما كانَ يَهوديًّا ولا نَصرانيًّا، ولكنَّهُ كانَ مُسلِماً، مائلاً عن كلِّ مِلَّةٍ إلى الإسلام، وما كانَ مُشرِكاً مثلَكم.

*** *** ***

لا يستوي العالمُ والجاهل. قالَ اللهُ تعالى:

{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} [سورة الزمر: ٩]:

أأنتَ أفضَلُ أيُّها المشرِكُ أمْ مَن هوَ قائمٌ بواجبِ الطَّاعَةِ والشُّكرِ في سَاعاتِ اللَّيل، ساجِدًا للهِ وقائمًا لهُ في الصَّلاة، يَخشَى عَذابَ الآخِرَة، ويَطمَعُ في رَحمَةِ رَبِّهِ وعَفوِه؟

قُلْ أيُّها الرَّسولُ الكَريم: هلْ يَستَوي العالِمُ والجاهِل؟ كذلكَ لا يَتساوَى المطيعُ الذي يَعلَمُ ما عندَ اللهِ مِن رَحمَةٍ وعَذاب، والعاصِي الجاهِلُ الذي يَكفرُ باللهِ ويَدعو إلى الضَّلال؟ إنَّما يَتذَكَّرُ هذا الفَرقَ ويَتَّعِظُ أهلُ العُقولِ السَّوِيَّة.

*** *** ***

المؤمنُ إذا حاورَ فمِن خلفيةٍ ثقافيةٍ دينيةٍ مستندةٍ إلى الوحي، فالثقةُ بالمصدرِ موجودة، لأن الحديثَ مستندٌ إلى الوحي، أو اجتهادٌ في فلكه، أما الكافرُ فلا يؤمنُ بهذا المصدر، ويكون رأيهُ طائشًا ومتذبذبًا عن جدالٍ وخصومةٍ أو استنادٍ إلى نظرياتٍ لم تثبت، وإذا كان عن علمٍ وتجربةٍ فلا يصطدمُ مع الوحي.

من ذلك: الحكمةُ في مخلوقاتِ الله:

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ} [سورة البقرة: ٢٦].

أي أن اللهَ لا يستَحيي أنْ يَضربَ مثلاً بشيءٍ ما، صَغُرَ أو كَبُر، مِن بعوضٍ فما فوقَها، فإنَّ في كلِّ شيءٍ خلقَهُ حِكمةً وعِظة.

فالذينَ آمنوا يَعلمونَ أنَّ ضربَ المثَلِ بالبعوضِ حَقٌّ، فيؤمنونَ بهِ وبالحِكمةِ منه، أمّا الكافِرونَ فيَزدادونَ به ضَلالة، ويَقولون: ما قيمةُ البَعوض، وما مَوقِعُهُ في الكونِ حتَّى يُضْرَبَ بهِ المثَلُ، وهوَ مِن أحقرِ المخلوقات؟!

والبعوضُ مخلوقٌ عَجيبٌ حقًّا، فهو مع صِغَره، لهُ عينانِ ضَخمتانِ تَتكوَّنانِ من آلافِ العدَساتِ السُّداسية، وفي رِجلهِ خمسةُ مفاصلَ رئيسيَّة، مع زوجٍ منَ المخالب، وعَضلاتٌ قوَّيةٌ تَلتصِقُ بجدارِ الصدر، ودبُّوسٌ للتوازنِ في جناحَيه! ولهُ جهازٌ يَمنعُ تَجلُّطَ الدم، وقد يَمتصُّ دماً أكثرَ من وزنهِ مرَّةً ونصفَ المرَّة! ولهُ أكثرُ من ثلاثةِ آلافِ نوع، وينقلُ أسوأ الأمراض، وماتَ الملايينُ من البشرِ بسببِ ذلك، وهو موجودٌ في كلِّ أنحاءِ العالم!

العلو والسفل = أعلى وأسفل

الغداة والعشيّ = الصباح والمساء

الغلبة والاندحار = النصر والهزيمة

الغيب والشهادة

ربُّنا سبحانهُ يعلمُ ما غابَ عنّا وما نشاهِده:

{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [سورة الرعد: ٩].

أي: هوَ سُبحانَهُ يَعلمُ ما غابَ عن حِسِّ البشَرِ ونَظَرِهم، ويَعلمُ ما يُشاهِدونَه، لا يَغيبُ عنهُ أمر، وهوَ الكبيرُ فكُلُّ شَيءٍ دونَه، وهوَ المستَعلي على كُلِّ شَيء، بذاتِه، وعِلمِه، وقُدرَتِه، وسَائرِ صِفاتِه.

الفراغ والشغل

قالَ اللهُ تعالى:

{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ} [سورة الشرح: ٧].

أي: فإذا فرَغتَ مِن شَواغِلِ الدُّنيَا وأمورِ النَّاس، فتوَجَّهْ إلى الله، واتعَبْ في عِبادَتِه، واجهَدْ في الدُّعاءِ والتضَرُّعِ إليه.

الفرح والحزن

كلُّ شيءٍ مكتوبٌ في اللوحِ المحفُوظ، ما كان من سرّاءَ أو ضرّاء، وما كان من فرحٍ أو ترح:

{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [سورة الحديد: ٢٣].

أي: أعلَمناكم بذلكَ حتَّى لا تَحزَنوا وتأسَفوا على شَيءٍ فاتَكم مِن نَعيمِ الدُّنيا، فإنَّهُ لو قُدِّرَ لكم أمرٌ لكان، وحتَّى لا تَفرَحوا وتَبطَروا بما أعطَيناكم منها، فإنَّما هوَ ممَّا قدَّرَهُ اللهُ لكم مِن رِزق، فاشكُروهُ على ذلك، ولا تَفخَروا ولا تأشَروا، فإنَّ اللهَ يبَغَضُ المتَكبِّرَ في نَفسِه، المفتَخِرَ على غَيرِهِ بمالِهِ وجاهِه.

ذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ رَضيَ اللهُ عَنهما قَولُه: ليسَ مِن أحدٍ إلاّ وهوَ يَحزَنُ ويَفرَح، ولكنَّ المؤمِنَ يَجعَلُ مُصيبتَهُ صَبرًا، وغَنيمتَهُ شُكرًا.

الفقر والغنى

اللهُ الغنيُّ ونحنُ الفقراءُ إليه:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [سورة فاطر: ١٥].

أي: أنتُم المحتاجُونَ إلى الله، واللهُ غَنيٌّ بذاتِه، لا يَحتاجُ إلى شَيءٍ مِن عِبادَتِكم أو مُساعدَتِكم، وهوَ المحمودُ في إحسانِهِ إليكم وإلى الخَلقِ أجمَعين.

*** *** ***

وقالَ اللهُ لرسولِهِ محمدٍ عليهِ الصلاةُ والسلام:

{وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى} [سورة الضحى: ٨].

أي: وكنتَ فَقيرًا، فأغناكَ اللهُ بالتِّجارَة.

*** *** ***

وفي الحديثِ عن اليهودِ وآثامِهم يقولُ ربُّنا سبحانهُ وتعالى:

{لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ} [سورة آل عمران: ١٨١].

أي: لقد سَمِعَ اللهُ قولَ اليَهودِ عندَما قالوا إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياء، وذلكَ لما طَلبَ سُبحانَهُ من عِبادِهِ أنْ يُنفِقوا مِن أموالِهم ليدَّخِرَها لهم ويَجزيَهم عليها خَيرَ الجزاءِ يومَ القيامة، فقالَ عزَّ مِن قائل: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [سورة البقرة:٢٤٥]، قالت يَهود: "يا محمَّد، افتَقرَ ربُّك، يسألُ عبادَهُ القَرْضَ"! في كُفرٍ وسُوءِ أدَبٍ معَ ربِّ الكَون!

يقولُ سُبحانَهُ مُهَدِّداً بما يَنتظرُهم: سنَكتُبُ قولَهم هذا ونُحاسِبُهم عليه، فلا هو مَنسِيٌّ ولا هوَ مُهمَل، إلى جانبِ آثامٍ عَظيمةٍ أخرَى لهم، كقتلِهم أنبياءَ الله. وهم يَتباهَونَ بهذهِ الجرائمِ المنكَرةِ التي تَقشَعِرُّ منها الأبدَان، وتَنبِذُها الفِطَرُ السَّليمة. وسنَجزِيهم على ذلكَ شرَّ الجزاء، عَذاباً كبيراً مُخيفاً لا يَعرِفُ قدْرَهُ وكيفيَّتَهُ إلا الله!

{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [سورة آل عمران: ١٨٢].

وهذا كلُّهُ بسببِ ما اقتَرفتْهُ أيديكم من أعمالٍ شَنيعةٍ أيُّها اليَهود، وهوَ جَزاءٌ حَقّ، لا ظُلمَ فيهِ ولا قَسوة، واللهُ لا يَظلِمُ عَبيدَه، فلا يوقِعُ بهمْ عَذاباً لا يَستَحِقُّونه، على الرَّغمِ من أنَّهم عَصَوا ربّاً، وهم عَبيد.

*** *** ***

وقد يكونُ غنى الفقيرِ بعد الزواج! قالَ الله تعالى:

{وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [سورة النور: ٣٢].

أي: زَوِّجُوا مَن لا زَوجَ لهُ منكم أيُّها الأولياءُ والأقرِباء، رِجالاً كانوا أو نِساء، والصّالحينَ مِن عَبيدِكم وجَواريكم أيُّها السَّادَة، وإذا كانوا فُقَراءَ فإنَّ اللهَ سيُغنيهِم بعدَ الزَّواج. حتَّى قالَ ابنُ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه: التَمِسوا الغِنى في النِّكاح.

واللهُ غَنيٌّ ذو فَضلٍ وسَعَة، عَليمٌ بعِبادِهِ وأحوالِهم، فيَبسُطُ الرزقَ لمن شاءَ منهم، ويُضَيِّقُ على مَن شاء، بحِكمَتِه.

*** *** ***

ويقولُ الله تعالى مذكِّرًا عبادَهُ ومنبِّهًا:

{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [سورة البقرة: ٢٦٨].

أي: إنَّما يُسوِّلُ لكمُ الشيطانُ لتُخرِجوا السيِّئَ من أموالِكم تخويفاً منَ الفَقر، حتَّى تُمسِكوا ما بأيديكم ولا تُنفقوا شَيئاً في مَرضاةِ الله، وهوَ معَ ذلكَ يأمرُكم بالمعاصي وارتكابِ المحَرَّمات، ويُغرِيكم على البُخلِ ومنعِ الصَّدقات. واللهُ يَعِدُكم في مقابلِ الإنفاقِ غُفراناً وتَكفيراً عن سيِّئاتِكم، وخَيراً وبَركة، وهوَ سبحانَهُ ذو قُدرةٍ واسعةٍ وفَضلٍ عَميم، يَعلمُ إنفاقَكم ولا يُضِيعُ أجرَكم.

فوق وتحت = أعلى وأسفل

قبل وبعد

الله سبحانهُ يعلمُ الغيبَ كلَّه:

{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ} [سورة الحج: ٧٦].

أي: يَعلَمُ ما قَبلَ أحوالِ الرُّسُل، وأحوالَهم وأحوالَ أقوامِهم وما يُبَلِّغونَه، وما يَكونُ الأمرُ بعدَهم. وإلى اللهِ تَصيرُ الأُمُورُ كُلُّها، فهوَ الذي بيدِهِ كُلُّ شَيء، ولهُ الحُكمُ الأخير.

*** *** ***

وقالَ سبحانهُ في غلبةِ الرومِ بعدَ أن غُلبوا:

{لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ} [سورة الروم: ٤].

أي: الحُكمُ والقضَاءُ للهِ وحدَه، قَبلَ الغلَبَةِ على الرُّومِ وبَعدَها.

القتل وما يضاده

يقولُ الله تعالى:

{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} [سورة المائدة: ٣٢].

أي: بسبَبِ مفَاسدِ هذهِ الجِنايةِ، مِن قتلِ ابنِ آدمَ أخاهُ ظُلماً وعُدواناً، قَضَينا على بَني إسرائيلَ في التَّوراة، أنَّ مَن قتلَ نَفساً بغَيرِ قِصاص، أو بغيرِ فَساد، فاستحلَّ قتلَها بغَيرِ سبَبٍ ولا جِنابة، ككفرٍ، أو زِناً، أو نَحوِ ذلك، فكأنَّما قتلَ الناسَ كلَّهم، وعليهِ وِزرُها!

وكانَ الحسدُ مَنشأَ هذهِ الجِناية، وهوَ غالِبٌ على بَني إسرائيلِ. ومعَ ما نزلَ عليهم مِن تَعظيمِ القَتل، فقد كانوا أشدَّ طُغياناً فيه، فقد أقدَموا على قتلِ الأنبياءِ والرسُل، ممّا يَدُلُّ على غايةِ قَساوةِ قلوبِهم، ونهايةِ بُعدِهم عن طاعةِ اللهِ تعالى، وبسبَبِ ذلكَ شُدِّدَ عليهم وعُظِّمَ مِن أمرِ القَتلِ عندَهم.

ومَن توَرَّعَ عن قتلِ النَّفس، أو تسبَّبَ في إبقائها واستنقاذِها مِن أسبابِ الهَلاك، فكأنَّما حازَ ثوابَ سلامةِ النَّاسِ كلِّهم!

ولقد جاءَتهُم رسلُنا بالحُجَجِ الواضِحَة، والبراهينِ الناطِقَة، تأكيداً لوجوبِ ما فرَضنا عليهم، ومعَ كلِّ ذلكَ فقد كانَ الكثيرُ منهم مُسرِفاً في القَتلِ، غيرَ مُبالٍ به، معَ ارتِكابِهم محرَّماتٍ أُخرَى، وإفسادِهم في الأرض.

*** *** ***

وفي قصة فرعونَ مع بني إسرائيل:

{وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} [سورة الأعراف: ١٤١].

أي: تذكَّروا كيفَ نجّاكمُ اللهُ من آلِ فِرعونَ بإهلاكِهم، وكانوا يُذيقونَكم أسوَأَ العَذابِ وأشَدَّه، فيَقتُلونَ مواليدَكمُ الذُّكور، ويُبقُونَ على بناتِكم للسُّخرةِ والخِدمة، وفي ذلكَ بلاءٌ لكم واختِبارٌ كبيرٌ من ربِّكم.

قدّام ووراء = أمام وخلف

القرب والبعد

(قريب وبعيد)

أمرَ الله تعالى رسولَهُ أن يقولَ للمشركين:

{وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ} [سورة الأنبياء: ١٠٩].

أي: لا أدري متَى يَكونُ نَصرُ اللهِ وغلَبَةُ المسلِمينَ عَليكم، أهوَ قَريبٌ زمانُهُ أم بَعيد؟.

*** *** ***

ويومُ القيامةِ قَريب، وإنْ رآهُ الكافرون بَعيدًا:

{إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً . وَنَرَاهُ قَرِيباً} [سورة المعارج: ٦ – ٧]

أي: إنَّهُمْ يَرَونَ العَذابَ الذي يَحِلُّ بهمْ بَعيدَ الوقوع، ونحنُ نَراهُ واقِعًا قَريبًا. وما هوَ آتٍ قَريب.

*** *** ***

ومن أحوالِ الكافرينَ يومَ القيامة:

{وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ} [سورة سبأ: ٥١].

أي: لو ترَى المكذِّبينَ يَومَ القيامَةِ وقد خافُوا وارتَعَدوا مِن رَهبَةِ الموقِفِ وهَولِ العَذاب، فلا مَهرَبَ لهم ممَّا يُريدُ اللهُ بهم، وأُخِذُوا مِنَ الموقِفِ بسُرعَةٍ إلى الجَحيم، مقَرّهمُ الأخِير.

{وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ} [سورة سبأ: ٥٢]:

وقالوا يَومَ القيامَة: آمَنَّا بالله، وبما أرسَلَ مِنَ الرسُل، وبما أنزلَ مِنَ الكتُب. ولكنْ مِن أينَ لهم تَناولُ هذا الإيمانِ وقد بَعُدوا عن مَكانِ قَبولِه، وهوَ الدُّنيا، وصارُوا إلى دارِ الجَزاءِ والحِساب؟

قريب وبعيد = القرب والبعد

القليل والكثير

الواحدُ والجمع، والقليلُ والكثير، يأتيان في موضوعاتٍ متنوعة، منها قولهُ تعالى:
{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} [سورة النساء: ١]:
أيُّها النَّاس، أطِيعُوا اللهَ واحذَروا مخالفةَ أمرِه، واتَّقوا عذابَه، هوَ الذي خَلقَكُم مِن نفسٍ واحِدة، هيَ آدم، وخَلَقَ منهُ زوجَهُ حَوّاء، خَلَقَها مِن ضِلْعٍ له، ونَشرَ منهما ذُكوراً وإناثاً كثيرين.

*** *** ***

واللهُ يعلَمُ ما يُسرُّهُ الناس، سواءٌ كانوا قلَّةً أم كثرة:
{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [سورة المجادلة: ٧].
أي: ألمْ تَعلَمْ أنَّ اللهَ قد أحاطَ علمُهُ بجَميعِ الموجوداتِ التي في السَّماواتِ والأرْض، ما يَكونُ مِن إسرارِ ثَلاثَةٍ إلاّ وهوَ رابِعُهم بالعِلمِ به، ولا يَتناجَى خَمسَةٌ إلاّ وهوَ سادِسُهم بعِلمِه، ولا نَجوَى أقلَّ مِن ذلكَ ولا أكثَر، كالستَّةِ وما فَوق، إلاَّ وهوَ يَسمَعُ سِرَّهم ويَعلَمُ ما يَجري بينَهم، في أيِّ مَكانٍ كانوا، ثمَّ يُخبِرُهم يَومَ الحِسابِ والجَزاءِ بما عَمِلوهُ في الحياةِ الدُّنيا، واللهُ عالِمٌ بكلِّ شَيء، لا يَخفَى عليهِ أمر.

القولُ والفعل

ومن مفارقاتِ القرآنِ قولهُ تعالَى معاتبًا بعضَ المسلمين:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} [سورة الصف: ٢]:

أيُّها المؤمِنون، لماذا تَقولونَ قَولاً، وتَعِدُونَ وَعدًا، ثمَّ لا تَفُونَ بهِ ولا تَلتَزِمون؟

*** *** ***

وقالَ سبحانهُ في وصفِ الشعراء:

{وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ} [سورة الشعراء: ٢٢٦].

أي: وهمْ يَكذِبونَ في شِعرِهم، فيَقولونَ فعَلنَا وفعَلنَا وهم لا يَفعَلون، ويَفتَخِرونَ بأحوالٍ ومَواقِفَ شجاعَةٍ ليسَتْ سِوَى وَهمٍ وخَيالٍ وانفِعال.

يليهِ قولهُ تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا..}.

القوة والضعف

قالَ اللهُ تعالَى في تطورِ خَلقِ الإنسان:

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [سورة الروم: ٥٤].

أي أنَّ اللهَ الذي خلقَكم مِن نُطفَةٍ ضَعيفَة، ثمَّ جعلَكم تَتنَقَّلونَ في أطوارِ الخَلقِ حالاً بعدَ حال، فجعَلَكم بعدَ ضَعفِ النُّطفَةِ والطُّفولَةِ شَبابًا ورِجالاً ذَوي قوَّةٍ وبَأس، ثمَّ جعلَكم مِن بَعدِ قوَّتِكم تَنحَدِرونَ إلى الضَّعفِ والشَّيبَة، فتَضعُفُ هِمَّتُكم، وتَقِلُّ حركَتُكم، وتَختَلُّ صِحَّتُكم، وتَعودونَ ضُعفاءَ كما كنتُم. واللهُ يَخلُقُ ما يَشاءُ كما يَشاء، وهوَ العَليمُ بتَدبيرِ خَلقِه، القَديرُ على ما يَشاء.

*** *** ***

وقالَ سبحانهُ في بني إسرائيلَ في عهدِ موسى عليه السلام، وقد أذلَّهم فرعونُ وآله:

{وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} [سورة القصص: ٥].

أي: نُريدُ أنْ نُنعِمَ على الذينَ كانوا يُستَضعَفونَ ويُذَلُّونَ مِن بَني إسرائيل، ونجعلَهم أئمَّةً وعُلَماءَ يُقتَدَى بهم، وخُلَفاءَ يَرِثونَ مُلْكَ فَرعَونَ وقَومِه.

{وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [سورة القصص: ٦]:

وأنْ نُثَبِّتَ أمرَهم في مِصرَ وغَيرِها، ونجعلَهمُ المتَصَرِّفينَ فيها، ونُرِيَ فِرعَونَ وهامانَ الطَّاغيَتينِ وجُنودَهما المجرِمين، ما كانوا يَخافونَهُ مِن أمرِ المستَضْعَفين، مِن ذَهابِ مُلكِهم على يَدِ واحِدٍ منهم.

*** *** ***

وقالَ اللهُ تعالى في ضلالِ الأتباعِ والمتبوعين:

{وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ} [سورة إبراهيم: ٢١].

أي: بعثَ اللهُ الخلائقَ مِن قُبورِهم، واجتَمَعوا جَميعًا في صَعيدٍ واحِد، وبرَزوا للهِ في مَكانٍ لا يُستَرُ فيهِ أحَد، فقالَ ضِعافُ الرَّأي منَ الأتْباعِ الذينَ أذَلُّوا أنفُسَهم، لقادَتِهم وكُبَرائهم، الذينَ كانوا يَخطِبونَ فيهم، ويَجتَمِعونَ بهم، ويُضِلُّونَهم بأفكارِهم ونظَريَّاتِهم: لقد كُنّا تابعينَ لكم، نُصَدِّقُكم فيما تَقولون، ونُكَذِّبُ ما تُكَذِّبون، فهل تنفَعونَنا في هذا الموقِف، وتَدفَعونَ عَنّا بعضًا منَ العَذابِ الذي جُوزينا به؟

فقالَ القادَةُ المستَكبِرون: لو سَلكنا طريقَ الهُدَى لهَدانا اللهُ ولدَعَوناكم إليه، ولكنّا اختَرنا طريقَ الضَّلالِ فأضَلَّنا الله – واللهُ لا يأمرُ بالضَّلالِ – فدعَوناكم إليه. ولا فائدَةَ منَ الشَّكوَى الآن، فسَواءٌ عَلينا إنْ خِفنا وقَلِقنا، أمْ ثَبَتْنا وصَبَرنا، فإنَّهُ لا يُجدي شَيئاً، فلا مَهرَبَ مِن عَذابِ الله، ولا نَجاةَ لنا مِن غَضَبِه.

*** *** ***

وفي حوارٍ أطول، وعبرةٍ أكبر، قالَ بعضُهم لبعض:

{وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} [سورة سبأ: ٣١]:

ولَو ترَى أيُّها النبيُّ هؤلاءِ الكافرينَ يَومَ القِيامَةِ وقد أُوقِفوا للحِسَاب، وهم يتخاصَمونَ ويتَجادَلون، يَقولُ الأتباعُ لقادَتِهم ومَسؤولِيهم: لو لم تُضِلُّونا بأفكارِكم، ولم تَحُولُوا بينَنا وبينَ مَعرِفَةِ الحقّ، لكُنَّا مؤمِنينَ باللهِ ورَسُولِه.

{قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ} [سورة سبأ: ٣٢]:

قالَ لهم زُعماؤهم ومُستَكبِروهم: أنحنُ مَنعناكم مِنَ الإيمانِ بعدَ أنْ أصرَرتُم على الدُّخولِ فيه؟ بلْ أنتُمُ اختَرتُمُ الكُفرَ بأنفُسِكم، وآثَرتُموهُ على الإيمَانِ عِنادًا وإجرَامًا منكم، ولهوًى ورَغبَةٍ في أنفُسِكم، ولم نَزِدْ على أنْ دعَوناكُم إلى أفكارِنا ونظَرِيَّاتِنا فاستَجَبتُم.

{وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة سبأ: ٣٣]:

قالَ الأتْباعُ المستَضعَفونَ لمسؤوليهم وقادَتِهم: بلْ هوَ مُحاوَلاتُكمُ المتَكَرِّرَةُ للتَّغريرِ بِنا وإضلالِنا، ودِعاياتُكمُ المهَوِّلَةُ لأفكارِكمُ المنحَرِفَة، وحيَلُكمُ المتَتالِيَةُ في اللَّيلِ والنَّهار، وأنتُم تَدْعُونَنا للكُفرِ باللهِ ودِينِه، وأنْ نَجعَلَ معَهُ شُرَكاء. وأضمَروا الحَسْرَةَ والنَّدامَةَ لـمّا رَأوا العَذابَ حاضِرًا يَنتَظِرُهم، وجعَلنا القُيودَ في أعناقِ الكافِرين، مِنَ المستَكبِرينَ والمستَضعَفين، ولم يُجْزَوا إلاّ ما كانوا يَعمَلونَ مِنَ السُّوءِ والشرّ.

الكفر ودرجاته

ومن مفارقاتِ القرآنِ وموازناتهِ بيانُ درجاتِ الكفر. قالَ اللهُ تعالى:

{الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة: ٩٧].

أي: كُفرُ الأعرابِ ونِفاقُهم أعظمُ وأشَدُّ مِن كُفرِ غيرِهم منَ الكفّارِ والمنافِقينَ في الحَضَر، لجَفائهم وغَلاظَتِهم، وتوَحُّشِهم وقَساوةِ قُلوبِهم، وهم أحرَى وأخلَقُ ألاّ يَعلموا أوامِرَ اللهِ ونَواهيَه، لعَدَمِ مُخالَطَتِهم أهلَ العِلمِ والحِكمة، وحِرمانِهم منِ استِماعِ الكتابِ والسنَّة. واللهُ عَليمٌ بأحوالِ الناس، حكيمٌ فيما قَسَمَ بينَهم منَ العِلمِ والجَهل، والهُدَى والضَّلال.

لهاث الكلب في الحالين

رجُلٌ مِن بَني إسرائيل، آتاهُ اللهُ عِلماً وفَضلاً، ولكنَّهُ كفرَ بنعمهِ وآياته، ومالَ إلى الدُّنيا ولَذَّاتها، فغرَّتْهُ وألهتْهُ عنِ الحقّ، فانقادَ إليها وسايرَ هواهُ شهوتَه،

{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة الأعراف: ١٧٦].

أي: ومَثَلُ ذلك الرجلِ كمَثَلِ الكلب، الذي إنْ زجرتَهُ ونهرتَهُ لَهَث، وإنْ لم تَزجُرْهُ بقيَ كذلكَ يَلْهَث! فهذهِ طبيعتُه، وكذلكَ الرجلُ الذي غَرِقَ في هواهُ وصُمَّ عن سَماعِ الحقّ، إنْ دعوتَهُ إليهِ أو لم تَدْعُهُ لم يَنتَفِعْ بموعظَتِك، أو ساءتْ حالهُ فكانَ مُضْطَرِبَ القَلب، دائمَ القَلق، كحالِ الكلبِ في لُهاثِه.

ومَثَلُ أهلِ مكَّة، الذينَ كانوا يَتمنَّونَ هادياً يَهديهم، فلمّا جاءَهمُ الصَّادقُ المصدوقُ صلى الله عليهِ وسلمَ كذَّبوه.

أو كمَثَلِ اليَهود، الذينَ كانوا يُبَشّرونَ بمبعَثِ رسُول، ويَذكرونَ صِفاتِه، والقُرآنَ الذي معه، فلمّا جاءَهُم بتلكَ الصِّفاتِ كفَروا به.

فاذكرْ هذهِ الأمثالَ والقَصَصَ ليَتفكَّرَ الناسُ ويَتدبَّروا ما فيها، ليَعتبروا ويَنزَجِروا عن الباطلِ الذي هم عليه.

الليل والنهار

(ينظر أيضًا: الصباح والمساء)

الله خالقُ الليلِ والنهار:

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة الأنبياء: ٣٣].

أي: هوَ الذي خلقَ اللَّيلَ بظَلامِهِ وسُكونِه، والنَّهارَ بضيائهِ وحركتِه، والشَّمسَ بوهَجِها وحرارَتِها ومَنفَعَتِها، والقمرَ بنورِهِ وسَيرِهِ وفائدَتِه...

*** *** ***

وأقسمَ بهما:

{وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا} [سورة الشمس: ٣].

أي: والنَّهارِ إذا أظهرَ الأرضَ وكشفَها بضِيائه.

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} [سورة الشمس: ٤].

أي: واللَّيلِ إذا غطَّى الأرض، فانتَشرَ بهِ الظَّلام.

*** *** ***

وأُضيفا إلى السماء:

{أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} [سورة النازعات: ٢٧ – ٢٩].

أي: وأظلمَ ليلَها، وأبرزَ نَهارَها وأنارَه.

قالَ البغَويُّ رَحِمَهُ الله: أضافَهما إلى السَّماءِ لأنَّ الظُّلمَةَ والنُّورَ كِلاهُما يَنزِلُ مِنَ السَّماء.

*** *** ***

اختلافُ الليلِ والنهارِ آيةٌ عظيمة:

{إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ} [سورة يونس: ٦].

٦أي: إنَّ في تَعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهار، بأنْ يَذهَبَ هذا ويَجيءَ ذاك، والعَكس، بحَسَبِ طُلوعِ الشَّمسِ وغُروبِها، وما خَلقَ اللهُ في السَّماواتِ والأرضِ منْ أنواعِ الحيَوانِ والنباتِ والجَماد، في إبداعٍ يُدهِشُ العُقول، وإحكامٍ يَشهَدُ بهِ المؤمِنُ والكافِر، كلُّ ذلكَ آياتٌ عَظيمةٌ وحُجَجٌ باهِرةٌ تَدُلُّ على وُجودِ اللهِ ووَحدانيَّتِهِ وكَمالِ قُدرتِهِ وبالِغِ حِكمتِه، هذا لمن عَقَلَ وتَدبَّر، واحترزَ منَ الحسَابِ والعِقاب.

وبتعبيرٍ آخر:

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً} [سورة الفرقان: ٦٢]

أي: هوَ الذي جعَلَ كُلاًّ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ يَخلُفُ الآخَر، فيَذهَبُ هذا ويَجيءُ ذاك، بشَكلٍ مُستَمرّ، وبانتِظامٍ ودِقَّة، لمن أرادَ أنْ يتفَكَّرَ في قُدرَةِ اللهِ وإبداعِه، فيَعتَبِرُ ويَزدادُ إيمانًا، أو يَشكُرَهُ على نِعَمِهِ وآلائه، وما سَخَّرَهُ لهُ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ وغَيرِهما.

*** *** ***

وقالَ ربُّنا تباركَ وتعالى:

{تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [سورة آل عمران: ٢٧].

تفسيرها: ومِن آياتِكَ العَظيمةِ في الطبيعةِ رَبَّنا، أنْ تجعلَ حركةَ الضياءِ والظُّلمةِ على ما يَراهُ الإنسانُ مِن إعجاز، فتَجعلُ الضياءَ في النهارِ وتقلِّلُ منهُ حتَّى يَدخُلَ في ظُلمةِ المساءِ الخفِيفَة،

ثمَّ يأتي الظلامُ فتَخِفُّ ظُلمتُهُ شَيئاً فشَيئاً ويَدخلُ في نورِ النهار، وتأخذُ منْ طولِ النهارِ لتَزيدَهُ في قِصَرِ الليلِ حتَّى يَعتدلا، ثمَّ العكس، حتَّى تَكتمِلَ دَورةُ الفصول.

وبتعبيرٍ آخر:
{يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} [سورة الزمر: ٥].
أي: يَلُفُّ اللَّيلَ على النَّهارِ فيَمضي ليَحِلَّ محلَّهُ اللَّيلُ، ويَلُفُّ النَّهارَ على اللَّيلِ ليَمضيَ ويَحِلَّ محلَّهُ النَّهارُ، وهكذا.

*** *** ***

ولا يسبقُ أحدُهما الآخر:
{لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة يس: ٤٠].
أي: لا يَسبِقُ اللَّيلُ النَّهارَ فيَأتي قَبلَ أوانِه، فإنَّ لكُلٍّ منهما وَقتًا مُحدَّدًا، وبِدايَةً ونِهايَة.

*** *** ***

ويقلِّبُ الليلَ والنهار:
{يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ} [سورة النور: ٤٤].
أي: يَتصَرَّفُ اللهُ في اللَّيلِ والنَّهار، فيأتي بأحَدِهما بعدَ الآخَر، ويَنقُصُ مِن هذا ويَزيدُ في الآخَر، ويُغَيِّرُ أحوالَهما بالحرارَةِ والبُرودَة، وغَيرِ ذلك، وفيهِ دَليلٌ على قُدرَةِ اللهِ وعظَمَتِه، لمن كانتْ لهُ بَصيرَةٌ يتدَبَّرُ بها.

*** *** ***

ويعلمُ مَقاديرَ ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهار، كما في آخرِ سورةِ المزَّمِّل:
{وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}.

*** *** ***

وبعدَ حركةٍ وسُكون، وعَملٍ ونَوم.. يكونُ هناك حِساب:
{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الأنعام: ٦٠].
أي: هوَ اللهُ الذي يَقبِضُ أرواحَكم إذا نِمتُم باللَّيل، ويَعلَمُ ما كسَبتم منَ الأعمالِ بالنَّهار، ثمَّ يوقِظُكم فيهِ بعدَ نومِكم باللَّيل، لتَقضُوا في الحياةِ أجلَكم المكتوبَ لكم باستِيفاءِ أعمارِكم بالكامِل، ثمَّ تموتونَ وتَقومونَ إلى اللهِ للحِساب، فيُخبِرُكم بأعمالِكم في تلكَ اللَّيالي والأيام، ويُجازيكم عليها، إنْ خَيراً أو شَرّاً.

*** *** ***

وقالَ سبحانهُ فيما سخَّرَهُ للناس:
{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} [سورة يونس: ٦٧].
أي: هوَ اللهُ الذي خلقَ لكمُ اللَّيلَ لتَستَريحوا فيهِ من تَعَبِ النَّهار، وتَهدَؤوا فيهِ وتَسكُنوا، وخَلقَ لكمُ النَّهارَ مُضِيئاً لتَسعَوا فيهِ وتَعمَلوا، ولا يَقدِرُ على هذا أحَدٌ غيرُ الله، وفي ذلكَ دَلائلُ على تَوحيده، وعلى قُدرتِهِ وعَظَمتِه، لمنْ يَسمعُ هذهِ الأدلَّةَ ويَتدبَّرُها، ويَتنبَّهُ إليها ولا يَغفُلُ عنها.

وقولهُ سبحانه:
{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً} [سورة الإسراء: ١٢].

أي: وجعَلنا اللَّيلَ والنَّهارَ آيَتَينِ كونيَّتَينِ عَظيمَتَين، وعَلامَتَينِ لا بُدَّ للإنسانِ منهُما، وقد مَحَونا الضَّوءَ مِنَ اللَّيلِ بإزاحَةِ حرَكَةِ الشّمسِ عَنهُ وجَعَلناهُ مُظلِمًا، ليَسكُنَ الإنسانُ ويَنام، ويَرتاحَ مِن تعَبِ النَّهار. وجعَلنا النَّهارَ مُضيئًا ليَطلُبَ فيهِ رِزقَه، ويُنجِزَ أعمالَه، ويَعلَمَ أوقاتَهُ وحِسابَه، والسَّاعاتِ والأيّامَ والشُّهورَ والسِّنين.

وكُلُّ شَيءٍ خلقَهُ اللهُ وسَخَّرَهُ لكمْ مُحكَمٌ ومُفَصَّلٌ بدِقَّةٍ وتَدبيرٍ تامّ، لا التِباسَ معَه، ولا تَقديمَ فيهِ ولا تأخِير.

وبتعبيرٍ آخر:

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً} [سورة النبأ: ١٠ – ١١].

أي: وجعَلنا اللَّيلَ كاللِّباس، يُغَطّي النَّاسَ ويَسترُ كُلَّ شَيءٍ بظَلامِهِ وسَوادِه؟ وجعَلنا النَّهارَ مُضيئًا ليتَكسَّبَ فيهِ النَّاسُ ويَقضُوا حَوائجَهم؟

*** *** ***

ومن يأتي بالليلِ والنهارِ غيرُ الله؟

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ} [سورة القصص: ٧١]:

قُلْ للمُشرِكينَ أيُّها الرَّسُول: أخبِروني، إذا أدامَ اللهُ عَليكمُ ظَلامَ اللَّيلِ إلى قيامِ السَّاعَة، مَن غَيرُهُ يَقدِرُ على أنْ يَأتيَ بنَهارٍ تُبصِرونَ فيهِ وتَعمَلون، ألا تَسمَعونَ وتُفَكِّرون، وتَفهَمونَ فتُؤمِنون؟

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [سورة القصص: ٧٢]:

وقُلْ لهم: أرأيتُم لو أدامَ اللهُ عَليكُم النَّهارَ بضِيائهِ وحَرِّهِ إلى قيَامِ السَّاعَة، مَن غَيرُ اللهِ يأتيكم بلَيلٍ تَستَريحونَ فيهِ مِن عمَلِ النَّهار، أفلا ترَونَ ما يُحيطُ بكم مِنَ الآياتِ الدالَّةِ على قُدرَةِ اللهِ ووَحدانيَّتِه؟

*** *** ***

والليلُ كاللباسِ للإنسان:

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً} [سورة الفرقان: ٤٧].

أي: هوَ الذي جعلَ اللَّيلَ كاللِّباسِ لمنفَعَتِكم، يَستُركم بظَلامِهِ كما يَستركم اللِّباس، وجعلَ النَّومَ راحَةً للأبدَان، بقَطْعِ الحرَكاتِ التي يُزاوِلُها المرءُ أثناءِ اليَقَظَة، وجعلَ النَّهارَ وقتًا يَنتَشِرُ فيهِ النَّاسُ لطلَبِ المعاشِ والمكسَب.

*** *** ***

العذابُ قد يأتي ليلًا أو نهارًا:

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ} [سورة يونس: ٥٠].

أي: حَذِّرِ المشركينَ نِقمةَ اللهِ ووَعيدَه، وقُلْ لهم: أرأيتُم إنْ أتاكم عَذابُ الله، لَيلاً وأنتُم نائمون، أو نَهاراً وأنتُم مُشتَغِلون، فما الذي تَستَعجِلونَهُ منَ العَذابِ وفيهِ هَلاكُكم، أيُّها المشرِكونَ المجرِمون؟

*** *** ***

ومن يحفظُ الناسَ من العذابِ غيرُ الله؟

{قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ} [سورة الأنبياء: ٤٢]:

قُلْ لهؤلاءِ المشرِكينَ المستَهزِئين: مَنِ الذي يَحفَظُكم باللَّيلِ والنَّهارِ مِن بأسِ اللهِ وغضَبِهِ أنْ يَنزِلَ بكم؟ وما الذي غرَّكم برَبِّكمُ الكَريمِ الحَليمِ أنْ يَسخَطَ عَليكم إذا تَمادَيتُم في كُفرِكم وعِنادِكم وتَكذيبِكم رَسولَه؟ بل هم عنِ القُرآنِ ومَواعظِهِ وآياتِ اللهِ ونُذُرِهِ غافِلون، غَيرُ مُبالِين ولا مُعتَبِرين.

*** *** ***

ويسبّحُ لله من في السماءِ والأرضِ من مخلوقات:
{يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} [سورة الأنبياء: ٢٠]
أي: يُقَدِّسونَ اللهَ ويُنَزِّهونَهُ باستِمرار، لَيلًا ونَهارًا، لا يَكِلُّونَ ولا يَضعُفون.

منهم ملائكةُ الله:
{فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} [سورة فصلت: ٣٨]:
وإنَّ عندَ رَبِّكَ مَلائكةً مُكرَمينَ يُقَدِّسُونَهُ ويُنَزِّهونَهُ ليلَ نَهار، ولا يَمَلُّونَ مِن ذلك.

*** *** ***

ودعا نوحٌ قومَهُ ليلًا ونهارًا:
{قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً} [سورة نوح: ٥]:
فدَعاهُم نُوحٌ عليهِ السَّلامُ مُدَّةً طَويلَة، ألفًا إلاّ خَمسينَ عامًا، وهم يَمتَنِعونَ عنِ الإيمَان، فقالَ مُناجيًا ربَّه، يَشكو إليهِ قَومَهُ المعانِدين: اللهمَّ إنِّي دعَوتُ قَومي في اللَّيلِ والنَّهار، ولم أتَوانَ في دَعوَتِهم إلى دينِكَ وطاعَتِك، امتِثالاً لأمرِك، وابتِغاءَ مَرضاتِك..

*** *** ***

وقالَ اللهُ تعالَى لرسولهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم:
{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً} [سورة المزّمّل: ٦].
أي: إنَّ العِبادَةَ في ساعَاتِ اللَّيلِ وأوقاتِهِ أثبَتُ لحُضورِ القَلب، وأكثَرُ مُوافقَةً بينَ القَلبِ واللِّسان، وأجمَعُ للخَاطرِ في التِّلاوةِ مِنَ النَّهار، لهَدْأةِ النَّاسِ وسُكونِ الأصوَات.
{إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً} [سورة المزّمّل: ٧].

أي: إنَّ لكَ في النَّهارِ وَقتًا للفَراغِ والاشتِغالِ بالحاجَاتِ وتَدبيرِ الأعمَال، فعَليكَ بالقِيامِ في اللَّيل.

المحكم والمتشابه

هناك آياتٌ واضحاتٌ لا يشتبهُ في معناها، وأخرُ تحتاجُ إلى توضيح. قالَ الله تعالى فيهما: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ} [سورة آل عمران: ٧].

تفسيرها: هو الذي أنزلَ عليكَ هذا القُرآنَ العَظيم، فيهِ آياتٌ مُحْكَماتٌ واضِحاتٌ يَعرِفُ مَعناها الناس، لا اشتباهَ في مَعناها ودَلالتِها، وفي بعضهِ الآخَرِ آياتٌ مُتشابِهاتٌ غيرُ واضِحات، فمنْ كانَ في قَلبهِ شَكٌّ وانحرافٌ وضَلال، فإنَّهم يَتركونَ الأصولَ الواضِحةَ المُحكَمةَ الدقيقَة، ويَجرُونَ وراءَ ما تَشابهَ مِنَ الآيات، وقَصدُهم مِن ذلك إحداثُ بَلبَلةٍ، وإثارةُ خِلاف، وإيهامُ أتباعِهم بأنَّهم على حقّ، وذلكَ بإنزالِ جُزءٍ ممّا تَدلُّ عليهِ هذهِ الآياتُ على معنىً أعمَّ، وتكبيرِهِ بما يُناسبُ ضلالَهم وعقيدتَهم الفاسِدة. والحالُ أنَّ تأويلَ الآياتِ المتشابهاتِ وتفسيرَها الحقيقيَّ مخصوصٌ باللهِ تعالى.

والذينَ وفَّقهمُ اللهُ مِن عبادِهِ الراسخينَ في العلم، المتثبّتينَ المتمكّنين، يقولون: آمنّا بالمتشابِهِ أنَّهُ هو والمُحكَمُ مِن عندِ ربّنا، لا مُخالفةَ بينهما، كلُّ واحدٍ منهما يُصَدِّقُ الآخَرَ ويَشهَدُ له، وأنَّ معناهُ الحقَّ هوَ على مرادِهِ تعالى.

ويجوزُ أنْ يكونَ في القُرآنِ تأويلٌ استأثرَ اللهُ بعلمهِ ولم يُطْلِعْ عليهِ أحداً مِن خلقه، كما استأثرَ بعلمِ الساعةِ وغيرِها. والخَلقُ مُتَعبّدونَ في المتشابِهِ بالإيمانِ به، وفي المحكَمِ بالإيمانِ بهِ والعمَل. أفادَهُ البغَويّ.

وما يَذكرُ هذا حقَّ التذكُّر، ولا يتَّعِظُ بما في القُرآن، ولا يَفهَمُ ويَتدبَّرُ معانيَ الآياتِ على وجهِها، إلاّ الألبّاءُ والأسوياءُ مِن ذَوي العقولِ الراجحةِ المستَقيمَة، الذينَ لا يَزيغُونَ ولا يتَّبعونَ الأهواء.

المرض والشفاء

قالَ خليلُ الرحمنِ إبراهيمُ عليه السلام:

{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [سورة الشعراء: ٨٠].

أي: إذا قدَّرَ اللهُ أنْ مَرِضتُ، فهوَ الذي يُبرِئُني مِنَ المرَض، لا أحَدَ غَيرُه، وما الأدويَةُ والعِلاجاتُ سِوَى أسبَاب، إنْ شاءَ جعلَ فيها الشِّفاء، وإنْ لم يَشَأ لا يَكونُ شِفاء.

المسلم والكافر = الإيمان والكفر

المشرق والمغرب = الشرق والغرب

المعروف والمنكر

الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ شعيرةٌ عظيمةٌ في دينِ الله، منذُ القدم. وقالَ لقمانُ لابنهِ يَنصحه:

{يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [سورة لقمان: ١٧]:

يا بُنَيّ، واظِبْ على إقامَةِ الصَّلاةِ في وَقتِها، وبحُدودِها وأركانِها، وَأْمُرْ بما هوَ خَيرٌ وحسَنٌ مِن الأمُور، وَانْهَ عمَّا هوَ فاحِشٌ وسَيِّئٌ، بحَسَبِ طاقَتِكَ وجُهدِك، إنِ استَطَعتَ باليَدِ فباليَد، وإلاّ فبِلِسانِك، فإنْ لم تَستَطِعْ فبِقَلبِك، واصبِرْ على ما أصَابكَ مِنَ الأذَى بسبَبِ أمرِكَ بالمعرُوفِ ونَهيكَ عنِ المنكَر، فإنَّ ما تَقومُ بهِ إصلاحٌ وفَضيلَةٌ عَظيمَةٌ تُوجِبُ منكَ التَّهيُّؤَ لذلكَ والصَّبرَ عَليه، والصَّبرُ مِن قوَّةِ العَزم، والهِمَّةِ العاليَة.

*** *** ***

وقالَ الله تعالى مخاطبًا المسلمينَ من أمةِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم:
{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ} [سورة آل عمران: ١١٠].
أي: كنتُم يا أمَّةَ الإسلامِ خيرَ الأممِ وأفضلَها وأنفعَها للناس، حيثُ تأمرونَ الناسَ بالخير، وتَنشُرونَ الحقَّ والعَدل، وتَحُثُّون على الفضائلِ والآدابِ الحَسَنة، وتَنهَونَهم عنِ المنكراتِ والفواحشِ والأخلاقِ المسترذَلة، وتؤمنونَ باللهِ الواحِدِ الأحَد، فتَعبدونَهُ ولا تُشرِكونَ بهِ شيئاً.
ذُكِرَ أنَّ قولَهُ تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ} خاصٌّ بعهدِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم، وعَمَّهُ آخَرون، فقالوا: الصَّحيحُ أنَّ هذهِ الآيةَ عامَّةٌ في جميعِ الأمَّة، كلُّ قرنٍ بحَسَبِه، وخَيرُ قُرونِهِمُ الذينَ بُعِثَ فيهم رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، وإنَّما حازَت هذهِ الأمَّةُ قَصَبَ السبْقِ إلى الخَيراتِ بنبيِّها محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فإنَّهُ أشرَفُ خَلقِ اللهِ وأكرمُ الرسُلِ على الله، وبَعثَهُ الله بشرعٍ كاملٍ عَظيمٍ لم يُعطهِ نبيًّا قبلَهُ ولا رسُولاً منَ الرسُل.
قلتُ: الذي يظهرُ أنَّ خيريَّةَ هذهِ الأمةِ مُرتبطةٌ بكونِها تأمرُ بالمعروف، وتَنهَى عنِ المنكَر، وتُؤمِنُ بالله، كما في الآيةِ نفسِها، فإذا لم تَفعلْ ذلكَ لم تَحُزْ هذهِ الفَضيلة. واللهُ أعلم.

*** *** ***

والمنافقون عكسُ المؤمنين، في توجيهِ المعروفِ والمنكر. قالَ الله تعالى:
{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة التوبة: ٦٧].
أي: المنافِقونَ والمنافِقاتُ مُتشابِهونَ في كلامِهم وسُلوكِهم، لأنَّهم على دِينٍ واحِد، يأمرونَ بالمعصِيَةِ وتَكذيبِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ويَنهَون عنِ الإيمانِ والطَّاعة، ويُمسِكون أيديَهم عنِ الصَّدقةِ والإنفاقِ فيما يُرضي الله، لقد نَسُوا ذِكرَ اللهِ وتَرَكوا طاعتَه، فعامَلَهمُ اللهُ مُعامَلةَ مَن نَسِيَهم، فحَرَمَهم مِن تَوفيقهِ وهِدايتِه، ومنعَ لُطفَهُ وفَضلَهُ عنهم. إنَّ المنافِقينَ خارِجونَ عنِ الطَّاعة، بَعيدونَ عنِ الحقّ.

ويُعرَفُ المنافقون بوجهةِ ضدِّهم في إدارةِ المعروفِ والمنكر:

{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة: ٧١].

أي: المؤمِنونَ والمؤمِناتُ يتَناصَرونَ ويتَعاونونَ على البِرِّ والتقوَى، ويَتعاضدونَ على ما فيهِ خيرُهم وخيرُ الناس.

فيأمرونَ بالإيمانِ والطاعةِ والإصلاح، ويَنهَونَ عنِ الشركِ والمعصِية وما يخالِفُ أحكامَ الشَّرع، ويؤدُّونَ الصَّلواتِ المطلوبةَ منهم، ويُعطُون الحقوقَ الواجبةَ المترتِّبةَ على أموالِهم، ويُطيعونَ اللهَ ورسُولَه، فيما أمرَ ونَهى، أولئكَ المتَّصِفونَ بتلكَ الصِّفات، سيَرحمُهم اللهُ ويَتولاّهم بلُطفه، إنَّ اللهَ عَزيزٌ لا يَمتَنِعُ عليهِ ما يُريده، ولا يُعجِزهُ شيءٌ عن إنجازِ وعدِهِ ووَعيدِه، حَكيم، يَضَعُ الأمورَ في مواضعِها كما يَنبغي، لا يَفوتهُ شَيءٌ مِن ذلك.

المؤمن والكافر = الإيمان والكفر

النصر والهزيمة

في هزيمةِ الرومِ أولًا ثمَّ انتصارِهم:

{غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ} [سورة الروم: ٢ – ٤].

أي: غُلِبَتِ الرُّومُ في حَربِها معَ الفُرس، في أقرَبِ أرضِ الرُّومِ إلى فارِس، فاستَولَى سابُورُ مَلِكُ الفُرسِ على بِلادِ الشَّامِ وما وَالاها، وأقاصي بِلادِ الرُّوم، حتَّى اضطُرَّ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ إلى اللُّجوءِ إلى القِسطَنطِينيَّة، وحُوصِرَ فيها مُدَّةً طَويلَة. وبَعدَ أنْ هُزِمَتِ الرُّومُ، ستَنتَصِرُ على فارِس، بعدَ بِضْعِ سنَوات، وهوَ ما بينَ الثَّلاثِ والتِّسْع.

*** *** ***

ويظنُّ المشركون أنهم سينتَصرون، ولكنَّهم سيُهزَمون:

{أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [سورة القمر: ٤٤ – ٤٥]:

أمْ أنَّ المشركينَ واثِقونَ مِن قوَّتِهم في جَمعِهم، ويَظنُّونَ أنَّهم بهذا مُنتَصِرونَ لا يُغلَبون؟ بلْ ستُهزَمُ جُموعُهم ويُوَلُّونَ الأدْبار.

وحدثَ هذا يَومَ بَدر، وقد خرجَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلى المشرِكينَ وهوَ يَتلو هذهِ الآيَة، وانتصرَ المسلِمون، وهُزِمَ أعداؤهم شرَّ هَزيمَة، وكانوا أكثرَ منهم.

النضارة والشحوب

صفةُ الوجوهِ يوم القيامةِ عند فريقين:

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [سورة القيامة: ٢٢ – ٢٣]:

وجوهٌ كثيرةٌ يَومَ القيامَةِ تَكونُ بَهيَّةً مُشرِقَة، مَسرورَةً مُتَهلِّلَة، يُرَى عَليها نَضرَةُ النَّعيم، هيَ وجُوهُ المؤمِنين، تَنظرُ إلى رَبِّها عِياناً.

{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} [سورة القيامة: ٢٤ – ٢٥]

ووجُوهٌ كثيرةٌ يَومَئذٍ عابِسَةٌ كالِحة، مُغْبرَّةٌ مُسْوَدَّة، هيَ وجوهُ الكافِرين، تَعلَمُ أنَّهُ سيُفعَلُ بها دَاهِيةٌ عَظيمَةٌ مِنَ العَذاب، تَكسِرُ فَقارَ الظَّهر.

*** *** ***

وقالَ أهلُ الخير، ممن كانوا يُطعِمونَ المساكينَ واليتامَى والأسرَى: إنما نَفعَلُ هذا خَوفًا مِن الله؛ رَجاءَ أنْ يَرحمَنا بذلكَ مِن عَذابِ يَومٍ ضيّق، شَديدٍ طَويل.

{إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً} [سورة الإنسان: ١٠].

{فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً} [سورة الإنسان: ١١]:

فآمنَهمُ اللهُ ممَّا خافُوا منه، وأبعدَ عنهم شَرَّ ذلكَ اليَومِ العَصيب، وأعطاهم بدلَ ذلكَ الضِّيقِ والشدَّةِ نَضْرَةً في الوجُوه، وسُرورًا وبَهجةً في القُلوب.

النفع والضرّ

قالَ الله تعالى:

{قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [سورة يونس: ٤٩].

أي: قلْ أيها الرسول: لا أقدِرُ على دَفعِ ضُرٍّ عن نَفسي، ولا جَلبِ نَفعٍ لها، إلاّ أنْ يَشاءَ اللهُ ذلكَ ويُقدِّرَني عليه، ولكلِّ جِيلٍ مُدَّةٌ مُقدَّرةٌ لأعمارِهم، فإذا انقضَى أجَلُهم، لا يَتقدَّمونَ عليهِ ساعةً ولا يَتأخَّرونَ عنه.

*** *** ***

النفعُ والضرُّ بيدِ الله تعالى، وإذا قدَّرَ ما يكونُ منهما كان:

{وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ} [سورة الأنعام: ١٧].

أي: إذا أصابَكَ اللهُ ببَليَّة، كمَرَضٍ وغَرَق، فلا يُفرِّجُها عَنكَ غَيرُه، وإذا أصابَكَ بعافيةٍ ونِعمَة، كصِحَّةٍ وغِنًى، فلا رادَّ لفَضلِه، ولا يَقدِرُ أحدٌ على أنْ يُمسِكَ خيرَهُ عنك، فهوَ القادرُ على كلِّ شَيء، منَ الخيرِ والشرّ، والضرِّ والنَّفع.

*** *** ***

والأصنامُ لا تضرُّ ولا تنفَع، فكيفَ يعبدُونها؟ قالَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ لقومه:

{قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ} [سورة الأنبياء: ٦٦]:

قالَ لهم: إذا كانت هذهِ الأحجارُ لا تَنطِق، ولا تَستَطيعُ الدِّفاعَ عن نَفسِها، فكيفَ تُسَمُّونَها آلِهة، وكيفَ تَعبدُونَها مِن دونِ الله، وهيَ لا تَنفَعُكم بشَيء، ولا تَضُرُّكم بشَيء؟!

وهذا شأنُ المشركين عامَّة:

{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ} [سورة يونس: ١٨].

أي: هؤلاءِ المشرِكونَ يَعبدونَ أحجَارًا صَنعوها بأيدِيهم، وهيَ غيرُ قادرةٍ على ضُرِّهم ولا على نَفعِهم، فهي جَماداتٌ لا تَفهَمُ ما يُفعَلُ بها، إنْ عُبِدَتْ أو أُهِينَتْ وكُسِرَت، وهيَ لا تَقدِرُ على أنْ تُثيبَ أحدًا ولا أنْ تُعاقِبَه.

ولا تنفعهم أصنامُهم يومَ القيامةِ أيضًا:

{فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ} [سورة سبأ: ٤٢]:

فاليَومَ أيُّها المشرِكون، لا يَنفَعُكم مَن كنتُم تَرجُونَ شفَاعتَهم مِنَ الملائكةِ، والأصنام، التي كنتُم تَظنُّونَ أنَّها تَنفَعُكم يَومَ الشدَّة، وهيَ لا تَملِكُ نَفعًا ولا ضُرًّا. ونَقولُ للمشرِكينَ الذينَ ظلَموا أنفُسَهم بتَعريضِها للعَذاب: ذُوقوا عَذابَ النَّارِ التي كنتُم تُكَذِّبونَ بها، وتَقولونَ إنَّهُ لا ثَوابَ ولا عِقاب، ولا جَنَّةَ ولا نَار.

*** *** ***

وفي التمثَالِ الذي صنعَهُ السامريُّ وقالَ لبني إسرائيلَ إنه إلهكم:

{أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً} [سورة طه: ٨٩]:

ألا يَرَى هؤلاءِ الجهَلَةُ الضَّالُّونَ أنَّ هذا التِّمثالَ لا يَقدِرُ على الكَلام، ولا يُجيبُهم إذا خاطَبوه، فلا حياةَ فيهِ ولا رُوح، ولا يَقدِرُ على إيذائهم، ولا يَنفَعُهم بشَيء؟!

*** *** ***

والنفعُ والضرُّ يتعلَّقان بحياةِ الإنسان، ويترتبُ عليهما الحِلُّ والحرمةُ بتفصيلِ ما يلزمُ فيهما، ويكونان في أطعمةٍ وأشربةٍ خاصة، كما في الخمرِ هنا:

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [سورة البقرة: ٢١٩].

أي: يَسألونَكَ عن حُكمِ الخَمرِ والقِمار، فقلْ: في تَعاطِيهما ذَنبٌ كبيرٌ ومَفسَدةٌ كبيرة، مع شيءٍ منَ المنافع، ففيهما ذهابُ العقلِ والمالِ والدِّين، والمخاصَمةُ والمشاجَرةُ والمعاداة، وفيهما مَنافعُ جِسميَّةٌ ونَفسيَّةٌ مؤقَّتة، كالهضمِ والطرب، وربَّما ربحٍ في المقامَرة، لكنَّ إثمَهما والخسارةَ فيهما أكثرُ بكثيرٍ منْ منافعِهما.

وكانَ هذا أوَّلَ خَطوةٍ في تحريمِهما، بأسلوبٍ تربويٍّ ربانيٍّ حكيم، ثمَّ نزلَ التحريمُ الشاملُ في قولهِ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة المائدة: ٩٠].

النقص والزيادة

وما يُرى من طولِ عمرٍ أو نقصهِ فإنه محدودٌ هكذا في اللوحِ المحفوظ:

{وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة فاطر: ١١].

أي: لا يُعطَى أحَدٌ مِن طُولِ عُمُرٍ، ولا يُنقَصُ مِن عُمُرِ آخَر، إلاّ وهوَ مُسَجَّلٌ في اللَّوحِ المحفُوظ، وإنَّ تَقديرَ الأعمارِ وكِتابَةَ الآجالِ أمرٌ سَهلٌ هيِّنٌ على الله.

*** *** ***

وأمرَ الله تعالى رسولَهُ محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ في بدايةِ الدعوةِ أن يقومَ الليلَ إلا قليلًا:

{نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً} [سورة المزّمّل: ٣ – ٤]:

أي: نِصفَ اللَّيلِ أوِ انقُصْ مِنَ النِّصْفِ قَليلاً، أو زِدْ على النَّصف...

النوم واليقظة

في قصةِ أهلِ الكهف:

{وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ} [سورة الكهف: ١٨].

أي: لو رأيتَهم لظَنَنتَهم مُنتَبِهين، لدَلالَةِ هَيئَتَهم على ذلك، وهم نائمُون.

الهدى والضلال

(الرشد والغيّ)

القرآنُ الكريمُ شفاءٌ وهدايةٌ للمؤمنين، وهو على الكافرين عَمى:

{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} [سورة فصلت: ٤٤].

أي: إنَّ هذا القُرآنَ كتابٌ يَهدي القُلوبَ إلى الحقِّ والصَّواب، ويَشفي الصُّدورَ مِنَ الشُّكوكِ والشُّبُهات. والذينَ لا يُؤمِنونَ بهِ بَعيدونَ عَنهُ فلا يَسمَعونَه، وكأنَّ في آذانِهم ثِقلاً وصَمَمًا فلا يَفهَمونَ ما فيه، وإذا كانَ للمؤمِنينَ شِفاءً فهوَ عَلى الكافِرينَ عمًى، فلا يَهتَدونَ إلى الحقِّ والبَيانِ الذي فيه، ولا يَنتَفِعونَ به، وهم كمَن يُنادَى مِن بَعيدٍ فيَسمَعُ الصَّوتَ ولا يَتبيَّنُ المعنَى.

*** *** ***

المهتدي من هداهُ الله. قالَ سبحانه:

{مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة الأعراف: ١٧٨].

أي: مَنْ هَداهُ اللهُ إلى صِراطِهِ المستَقيم، ويَسَّرَ لهُ طريقَ الهُدَى والرَّشاد، ووفَّقَهُ لِفعلِ الخَيرات، فهوَ المهتدِي المتَّبِعُ للحَقّ، ومَنْ أضَلَّهُ وخَذلَهُ، فقد خابَ وخَسِر.

ولله الحِكمَةُ في ذلك، فلا يَظلِمُ أحداً، ولا يُجبِرهم على إيمانٍ أو كُفر، بل يَهدي مَنْ يجاهدُ ليَهتديَ {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [سورة العنكبوت: ٦٩]، ويُضِلُّ مَن يَبغي الضَّلالَ لنفسِه.

*** *** ***

والهدايةُ لمن استحقَّها، والضلالةُ لمن استحقَّها:
{فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأعراف: ٣٠].
أي أنَّ هناكَ قِسماً هَداهمُ اللهُ لِما حقَّ لهمُ الهُدَى، بالاستِجابةِ لنداءِ اللهِ ورسولِه، وقِسماً أضلَّهُ الله لِما حقَّ عليهمُ الضَّلالة، فقد أعرَضوا عنِ الحقّ، واتَّجهوا نحوَ الشَّياطينِ وأهلِ الضَّلال، يَطلبونَ منهمُ النُّصرةَ والتأييدَ من دونِ الله، وهم يظنُّونَ أنَّهمْ على حَقّ!

*** *** ***

فالله أعلمُ بأهلِ الضلالةِ وأهلِ الهداية:
{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [سورة النحل: ١٢٥].
أي: اللهُ أعلَمُ بمَن أعرضَ عنِ الإسلامِ واختارَ طريقَ العِنادِ والضَّلال، وهوَ أعلَمُ بمَن فتَحَ قَلبَهُ للحَقِّ واختارَ طريقَ الهِدايَةِ والإيمان، وإنَّما عَليكَ التِّبليغُ وبيانُ وجهِ الحقّ، وليسَ عَليكَ هِدايَتُهم.

*** *** ***

ومن هداهُ الله فلا يصرفهُ أحدٌ عن الهداية، ومن أضلَّهُ فلا هاديَ له:

{وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ} [الزمر: ٣٦ – ٣٧].

أي: مَن يُضْلِلْهُ اللهُ – لعِلمِهِ أنَّهُ يَستَحِقُّ الضَّلالةَ – فليسَ لهُ مُرشِدٌ يأخذُ بيدِهِ إلى الحقّ. ومَن يَهْدِهِ اللهُ ويُوَفِّقْهُ إلى طَريقِ الخَيرِ والصَّلاح، فلا أحدَ يَقدِرُ على صَرْفِهِ عنها.

*** *** ***

ومنَّ اللهُ على عبدهِ ونبيِّهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فقال:

{وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى} [سورة الضحى: ٧].

أي: ووجدَكَ غافِلاً عنِ الشَّرائعِ والرِّسالات، فهَداكَ للتَّوحيد، وأنزَلَ عليكَ القُرآن، وعلَّمَكَ ما لم تَكنْ تَعلَم.

*** *** ***

وأمرَهُ اللهُ تعالَى أن يقولَ للمشركين:

{قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} [سورة سبأ: ٥٠]:

قُلْ للمُشرِكين: إنْ كنتُ ضَلَلتُ فإنَّ إثمَ انحِرافي وضَلالي يَعودُ بالشّرِّ والسُّوءِ عَليّ، فلا عَليكم منِّي، وإنِ اهتدَيتُ إلى الحقِّ فهوَ بوَحي اللهِ إليَّ وتَوفيقِهِ لي، ولا أملِكُ لنَفسِي منهُ شَيئًا إلاّ بإذنِه، وأنا تحتَ مَشيئَتِه، أُبَلِّغُ ما يأمرُني به، وهوَ سَميعٌ لمنْ دَعاه، قَريبُ الإجابَةِ لمنْ رَجاه.

*** *** ***

كما أمرهُ سبحانهُ أن يقولَ لهم:

{قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً} [سورة الجن: ٢١]:

قُلْ لهم: إنِّي رسُولٌ مِنَ البشَر، لا أملِكُ مِن أمرِ هِدايتِكم ولا غِوايَتِكم شَيئًا، ولا نَفعِكم ولا ضُرِّكم، إنَّما القادِرُ على ذلكَ اللهُ وحدَه.

*** *** ***

وقالَ لهُ سبحانه:

{فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [سورة القصص: ٥٠].

أي: فإذا لم يَستَجِبِ المشرِكونَ لِما جِئتَهم بهِ مِن عندِ الله، فاعلمْ أنَّ مَوقِفَهم هذا ليسَ عن حُجَّةٍ ودَليل، بل هوَ عِنادٌ مِن عندِ أنفُسِهم، ومُتابَعَةٌ لأهوَائهم الضَّالَّةِ وأفكارِهمُ الزَّائغَة، وليسَ هُناكَ أضَلُّ ممَّن تابعَ هَواهُ ورَغبتَهُ بغَيرِ دَليلٍ مِنَ اللهِ العَليمِ الحَكيم، واللهُ لا يَهدي مَن ظلمَ نَفسَهُ فأعرَضَ عنِ الدِّينِ الحَقِّ واتَّبعَ هَواه.

*** *** ***

فهم إذا رأوا طريقَ الضلالِ اتبعوه، وإذا رأوا طريقَ الهُدَى تجنَّبوه. يقولُ الله تعالى:

{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ} [سورة الأعراف: ١٤٦].

تفسيرها: سأُبعِدُ عن دَلائلِ عَظمتي وأحكامِ شَريعتي الذينَ يَتكبَّرونَ على عبادِي ويُحاربونَ أوليائي بغيرِ الحَق؛ عقوبةً لهم على عِنادِهم واستِكبارِهم، فلا يَنتَفِعونَ بآياتي الجليلة، التي يَستأهِلُها المؤمِنونَ المصَدِّقونَ وحدَهم.

فإذا شاهدَ المتكبِّرونَ المعجِزاتِ والدَّلائلَ على أيدي رُسلي لم يؤمِنوا بها، وإذا رأوا طَريقَ النَّجاة، والهُدَى والسدَاد، لم يَسلُكوها.

وإذا رَأوا طَريقَ الهَلاكِ والضَّلالِ اختارُوها لأنفسِهم ولم يَتركوها، لموافقتِها أهواءَهم وشَهواتِهم، وهذا لأنَّهم كذَّبوا بأدلَّتِنا الواضِحَةِ الصَّادقة، وحُجَجِنا البيِّنةِ الكاشِفة، المؤدِّيةِ إلى الحقِّ واليَقين، وقد كانوا ساهينَ عنِ التفكيرِ فيها والاتِّعاظِ بها.

وهذا مثلُ قبيلةِ ثمود، التي فضَّلتِ الضلالةَ على الهداية!

{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [سورة فصلت: ١٧]:

وأمَّا قَبيلَةُ ثَمودَ، فقد بيَّنَّا لهم سَبيلَ الهُدَى ودعَوناهم إليه، فاختَاروا الضَّلالَ عَليه، وكذَّبوا رَسُولَهم صالِحًا، فعُوقِبوا بصاعِقَةٍ قَويَّةٍ مُهلِكةٍ جعَلَتْهم أذِلَّةً مُهانين، جَزاءَ تَكذيبِهم وإصرارِهم على الكُفر.

*** *** ***

ومن اهتدَى فالنفعُ يعودُ عليه، ومن ضلَّ عادتِ الخسارةُ عليه:

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ} [سورة يونس: ١٠٨].

تفسيرها: قُلْ يا نبيَّ الله: أيُّها النَّاس، لقد جاءَكمُ الحقُّ مِن ربِّكم، وهو القُرآنُ العَظيم، ودِينُ اللهِ القويم، فمنِ اختارَ الهِداية، والإيمانَ والطَّاعَة، فإنَّ مَنفَعةَ هدايتِهِ تَعودُ على نفسِه، ومنِ اختارَ الضَّلالَ والكُفرَ والعِصيان، فوَبالُ اختيارِهِ يَعودُ على نَفسِهِ كذلك.

وقُلْ لهم: لستُ موَكَّلاً بكم حتَّى تَكونوا مُؤمِنين، ولا حافِظًا لكم لمنعِكم منِ اعتِقادِ الباطل، إنَّما أنا بَشيرٌ ونَذير، ما عليَّ إلاّ البلاغ.

وفي آيةٍ أخرى:

{مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [سورة الإسراء: ١٥].

أي: منِ اهتدَى إلى الحقِّ وعَمِلَ بهِ فإنَّ عاقِبَةَ هِدايَتِهِ تَعودُ عَليهِ بالحُسنَى، وتُكَلِّلُهُ السَّعادَةُ يَومَ القِيامَة، ومَن ضَلَّ عنِ الحقِّ فإنَّ عاقِبةَ ضَلالِهِ تَعودُ عَليه، ويُخزَى يَومَ القِيامَةِ ويُجازَى بشَرِّ ما عَمِل.

*** *** ***

والحديثُ عن الذين كتمُوا ما أنزلَ اللهُ في الكتُبِ مِن صفةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وخاصَّةً اليهود:

{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالهُدَى وَالعَذَابَ بِالمغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} [سورة البقرة: ١٧٥].

أي أنهم اشترَوا الباطِلَ بالحقّ، وباعُوا الهُدَى بالضَّلال، عندما كتَموا البِشارةَ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم ولم يتَّبِعوه، ورَضُوا بالكفرِ والتَّكذيبِ والكِتمان. لقد باعوا – إذنْ – المغفرةَ واشتَرَوا العذاب. فما أعجبَ حالَهم! وما أحرصَهم على التهالُكِ على دخولِ النارِ والصبرِ عليها، عندما تعاطَوا أسبابَ ذلك، وتنافَسوا فيه، قصداً واختياراً!

*** *** ***

وأضلَّ فرعونُ قومَهُ ولم يَهدهم:

{وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} [سورة طه: ٧٩].

أي: أضَلَّ فِرعَونُ قَومَهُ وأغواهُم، بكُفرِهِ واستِكبارِهِ عَن قَبولِ الحقّ، وبقَولِهِ لهم: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات: ٢٤]. ولم يُرشِدْهُمْ إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ عندَما أمرَهم بتَكذيبِ رَسولِ اللهِ موسَى.

الهيّن والعظيم = الصغير والكبير

الواحد والجمع

ومن مقارناتِ القرآنِ وموازناته:

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة الزمر: ٢٩]:

هذا مَثَلٌ ضربَهُ اللهُ في القُرآنِ للتَّذكيرِ والاعتِبار: عَبدٌ يَتمَلَّكُهُ عِدَّةُ أشخَاص، يَتنازَعونَ فيهِ ويتَشاجَرون، لسُوءِ طِباعِهم وشَراسَةِ أخلاقِهم، فهوَ مُتحَيِّرٌ ومُشَتَّتُ الفِكرِ والهمِّ بينَهم، وآخَرُ يَتمَلَّكُهُ واحِدٌ لا يُشارِكُهُ أحَدٌ فيه، فهوَ في رَاحَةٍ وعافيَةٍ مِن ذلك، فهل يَستَوي حالُهما؟ لا يَستَويان. الحَمدُ للهِ على اعترافِهم بذلك، وإقامَةِ الحُجَّةِ عَليهم، ولكنَّ أكثرَ هؤلاءِ المشرِكينَ ليسُوا مِن أهلِ العِلمِ والتَّدَبُّرِ حتَّى يُوازِنوا ويُطابِقوا المَثَلَ على حالِهم.

وهوَ مِثالُ المشرِكِ الذي يَعبُدُ عِدَّةَ آلهَة، والمؤمِنِ المخلِصِ لرَبِّه.

*** *** ***

وأقسمَ اللهُ تعالَى فقال:

{وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} [سورة الفجر: ٣]:

والشَّفْعِ، الذي ذُكِرَ أنَّهُ يَومُ عيدِ الأضحَى، لكونِهِ العاشِرَ، والوَتر: يَومُ عَرَفَة، لأنَّهُ التَّاسِع. وذُكِرَتْ أقوالٌ أُخرَى.

الواضح والخفيّ = الظاهر والباطن

الوالد والولد
(الأب والابن)

وصفَ اللهُ تعالَى نفسَهُ بقوله:

{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) [سورة الإخلاص: ٣].

أي: لم يَتَوَلَّدْ منهُ شَيء، فليسَ لهُ ولَد، ولم يَتَوَلَّدْ هوَ عن شَيء، فلا أبَ لهُ ولا أُمّ، فهوَ ليسَ بوالدٍ ولا مَولود. سُبحانَه، فهوَ مَوجودٌ قَبلَ وجُودِ الأشَياء.

*** *** ***

وأقسمَ سبحانهُ بالوالدِ والولد، فقال:

{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ} [سورة البلد: ٣]:

والوالِدِ الأوَّلِ آدَم، وما وَلَد، مِنْ جَميعِ وَلَدِه.

*** *** ***

وفي اليومِ الآخرِ لا يَجزي والدٌ عن ولده:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً} [سورة لقمان: ٣٣]:

أيُّها النَّاس، أَطيعوا ربَّكم ولا تُخالِفوا أمرَه، واخشَوا يَومَ القِيامَةِ فإنَّهُ يَومٌ عَظيم، والحِسابُ فيهِ شَديد، يَومَ لا يُغني والِدٌ عن ولَدِهِ ولا يَنفَعهُ شَيئًا، ولا يُغني ولَدٌ عن والدِهِ ولا يُقبَلُ أنْ يَفدِيَهُ بشَيء.

الوحدة والفرقة

(التجمع والتفرق)

قالَ الله تعالى في جُبنِ اليهود:

{لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ} [سورة الحشر: ١٤]:

ومِن جُبْنِ اليَهودِ أنَّهم لا يَبرُزونَ لقِتالِكم مُجتَمِعينَ مُتَّفِقينَ في مَكانٍ مُعيَّن، إلاّ مُتحَصِّنينَ في قُرًى، أو مُتسَتِّرينَ وَراءَ جُدران. عَداوَةُ بَعضِهم لبَعضٍ شَديدة، تَحسَبُهم ظاهِرًا مُجتَمِعينَ ذَوي أُلفَةٍ واتِّحاد، بينَما قُلوبُهم مُتفَرِّقَةٌ مُختلِفَة، فبينَهم عَداواتٌ وأحقَاد، فلا يَتَعاضَدون، ذلكَ بأنَّهم لا يَتدَبَّرونَ سببَ الاتِّفاق، وهوَ الإيمَان، والعَقيدَةُ الصَّحيحة، التي تؤلِّفُ بينَ القُلوب.

الوفاء والنكث

قالَ جلَّ جلالهُ في أحداثِ الحديبية:

{إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً} [سورة الفتح: ١٠].

أي: إنَّ الذينَ يُبايعُونَكَ على الموتِ لنُصرَتِكَ يومَ الحُديبيَة، إنَّما يُبايعونَ الله، بطاعَتِهِ وامتِثالِ أمرِه، يَدُ اللهِ فَوقَ أيديهم، وهوَ الذي يُؤيِّدُهم ويَنصرُهم، فمَن نقضَ العَهد، فإنَّ ضَرَرَ نَقضِهِ يَعودُ بالخَسارَةِ على نَفسِه، ومَن وفَّى بالعَهدِ الذي عاهَدَ اللهَ عَليه، فسيُؤتيهِ ثَوابًا جَزيلاً، وهوَ الجنَّة.

اليأس والرجاء
(التفاؤل والتشاؤم)

قالَ الله تعالى في طبيعةِ بعضِ الناسِ من الاستبشارِ والقنوط، ومن فروعِهما التفاؤلُ والتشاؤم:

{اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [سورة الروم: ٤٨]:

اللهُ سُبحانَهُ هوَ الذي يَبعَثُ الرِّياح، فتُحَرِّكُ السَّحابَ وتَنشُرُه، فيَمُدُّهُ ويَبسُطُهُ في الجَوِّ بَسْطًا، مُتَّصِلاً تارَةً وقِطَعًا مُتفَرِّقَةً تارَة، فترى المطَرَ بعدَ ذلكَ يَنزِلُ مِن بَينِه، فإذا أنزَلَهُ على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، إذا هم يَفرَحونَ بِهِ ويُسَرُّون.

{وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ} [سورة الروم: ٤٩].

أي: وقد كانوا مِن قَبلِ أنْ يَنزِلَ عَليهمُ المطَرُ آيسِينَ مِن نُزولِه، فما كانوا قادِرينَ على أنْ يَفعَلوا شَيئًا، وما كانوا يَجِدونَ مُقَدِّماتِ المطَر، وقد ذهبَ وَقتُهُ أو كاد.

اليسر والعسر

قالَ اللهُ تعالى:

{سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً} [سورة الطلاق: ٧].

أي: سيَجعَلُ اللهُ بعدَ ضِيقٍ سَعَة، وبعدَ فَقرٍ غِنًى.

وقالَ سبحانه:

{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً} [سورة الشرح: ٦].

أي: فإنَّ معَ الشدَّةِ والضِّيقِ الذي أنتُمْ فيهِ تَيسيرًا وفرَجًا، إنَّ معَ كُلِّ ضِيقٍ وعُسرٍ فرَجًا ومَخرَجًا.

*** *** ***

وقالَ في صفاتِ أهلِ الخيرِ وأهلِ الشرّ:

{فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} [سورة الليل: ٥ – ٧]

أي: فأمَّا مَن أنفقَ مِن مالِهِ في سَبيلِ اللهِ كما أَمَرَ به، واتَّقَى اللهَ فيما نَهَى عنه، وامتَثلَ لأمرِهِ وأطَاع، وآمنَ بالكلمَةِ الحُسنَى: لا إلهَ إلاَّ الله، وصدَّقَ بالجَزاءِ والحِساب، والثَّوابِ والعِقاب، فسنُوفِّقُهُ لعمَلِ الخَيرِ في الدُّنيا، وطاعَةِ اللهِ وتَقواه.

{وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [سورة الليل: ٨ – ١٠].

أي: وأمَّا مَن بَخِلَ بمَالِه، ولم يُنفِقْهُ في وجُوهِ البِرّ، واستَغنَى عن ثَوابِ اللهِ ولم يَرغَبْ فيه، وكذَّبَ بالحقّ، وبالجَزاءِ والحِسابِ يَومَ الدِّين، فسنُهيِّءُ أمرَهُ لِما فيهِ مَشقَّةٌ وحرَجٌ وخِذلان، فيَعثُرُ ويَتخَبَّطُ ويَسلُكُ طَريقَ الشَّقاوَة، وإنْ ظنَّ أنَّهُ يَسيرُ في طَريقٍ صَحيح!

*** *** ***

وقالَ في يومِ القيامة:

{فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} [سورة المدّثر: ٨ - ١٠]

تفسيرها: فإذا نُفِخَ في الصُّور، فذلكَ اليَومُ يَومٌ شَديدٌ عَصِيب، غَيرُ سَهلٍ على الكافِرين، فيُحاسَبونَ ويَفتَضِحونَ وتَسوَدُّ وجُوهُهم...

اليمين والشمال

ملَكانِ يلازمانِ كلَّ إنسان، عن يمينٍ وشمال، يكتبانِ ما يقولُ ويفعل:

{إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} [سورة ق: ١٧]:

إذْ يَتلقَّى الملَكانِ الموَكَّلانِ بكتابَةِ أعمالِهِ ما يَتلَفَّظُ به، مَلَكٌ عنِ اليَمين، وآخَرُ عنِ الشِّمال، فهما مُترَصِّدانِ له.

*** *** ***

والظلالُ تتنقَّلُ من يمينٍ إلى شمال. قالَ الله تعالى:

{أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} [النحل: ٤٨]:

ألا يَنظُرونَ إلى ما خَلقَهُ اللهُ مِن أشجَارٍ وجِبالٍ وشُخوصٍ، وظِلالُها تَرجِعُ وتَتَنقَّلُ مِن جانِبٍ إلى آخرَ بارتِفاعِ الشَّمسِ وانحِدارِها، وهيَ خاضِعَةٌ لأمرِه، مُذَلَّلة مُنقادَةٌ لإرادَتِه؟

*** *** ***

وبستانانِ عظيمانِ يمينَ مأربَ وشمالها:

{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ} [سورة سبأ: ١٥].
أي: لقد كانَ لقَبيلَةِ سبَإٍ في مَسكَنِهم مأرِبَ باليَمَنِ عَلامَةٌ بارِزَةٌ وعِبرَةٌ واضِحَة، فكانَ لهم بُستَانانِ عَظيمانِ عن يَمينِ بلَدِهم، وشِمالِه..

*** *** ***

والمشركون كانوا يتفرقون عن النبيّ عليه الصلاةُ والسلامُ يمينًا وشمالًا!
{فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ . عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ} [سورة المعارج: ٣٦ – ٣٧]:
فما بالُ هؤلاءِ المشرِكينَ الذينَ حَولَكَ مُسرِعينَ مُقبِلينَ إلَيك؟ ثمَّ مُتفَرِّقينَ عنكَ ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّمال، يُعرِضونَ عَنكَ ويَسخَرونَ مِنك، ويَتَحلَّقونَ في جَماعاتٍ يَتناجَونَ بالكَيدِ والردِّ على ما يَسمَعون؟

*** *** ***

ويومُ الحسابِ يومٌ عظيم، يتلقَّى بعضُهم صحيفةَ أعمالِهِ بيدِهِ اليمين، ويعني أنه من الفائزين، وبعضُهم يتلقّاها بيدِهِ الشمال، ويعني أنه من أصحابِ الجحيم:
{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ . إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [سورة الحاقة: ١٩ – ٢٤]:
فأمَّا مَن أُوتيَ صَحيفةَ أعمالِهِ بيدِهِ اليُمنَى، فيَفرَحُ بفَوزِهِ ويَقول: خُذوا واقرَؤوا ما في صَحيفَتي، فإنِّي مِنَ الفائزِين، لقد كنتُ مُوقِنًا بالبَعثِ والحِسَاب، وبالثَّوابِ والعِقاب، فهوَ في عِيشَةٍ مَرضيَّة، وسَعادَةٍ غامِرَة، في جنَّةٍ واسِعَةٍ مُرتَفِعَة، ثِمارُها قَريبةُ التَّناول، للقائمِ والقاعِد. كُلُوا مِن طَعامِ الجنَّةِ وثِمارِها، واشرَبوا مِن أنهارِها اللَّذيذَة، سائغًا مريئًا، بما قدَّمتُم مِنَ الأعمَالِ الصَّالحةِ في أيَّامِ الدُّنيا.

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ...}
[سورة الحاقة: ٢٥ - ٣١]:

وأمَّا مَن أُوتِيَ صَحيفةَ أعمالِهِ بيدِهِ الشِّمال، فيَندَمُ غايةَ الندَم، ويَقول: يا لَيتَني لم أُعْطَ صَحيفَتي، ولم أعرِفْ جَزائي ومَصيري، لَيتَ الموتةَ التي مُتُّها في الدُّنيا كانَتِ الأخيرةَ فلم أُبعَثْ ولم أُحاسَب، لم يَنفَعْني مَالي الذي جمَعتُهُ في الحيَاةِ الدُّنيا شَيئًا، ولم يَدفَعْ عنِّي سُوءَ ما أُلاقيهِ مِنَ العَذاب، ولم يُغْنِ عنِّي عِلمي وحُجَّتي وجِدالي، وشهاداتي وخِبرَاتي. أو لم يُغْنِ عنِّي جاهي ومَنصِبي، وأنصاري وجَماهيري الكثيرَة، لقد بطَلَتْ جَميعُها، وعجَزَتْ عنِ القِيامِ بأيِّ شَيءٍ لي. خُذوهُ أيُّها الزَّبانيَة، وشُدُّوا يدَهُ إلى عُنُقِهِ بالقيُود، ثمَّ أدخِلوهُ نارَ الجَحيمِ المؤجَّجَة...

وهم أصحابُ الميمنة، وأصحابُ المشأمة:

{فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} [سورة الواقعة: ٨]:

فأصحابُ الميمَنَة، الذينَ يؤخَذُ بهم ذاتَ اليَمينِ إلى الجنَّة، ما حالُهم وما وَصفُهم؟

{وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ} [سورة الواقعة: ٩]:

وأصحابُ المشأمَة، الذينَ يُؤخَذُ بهم ذاتَ الشِّمالِ إلى الجَحيم، ما حالُهم وما وَصفُهم؟

وبلفظِ أصحابِ الميمنةِ وأصحابِ المشأمةِ وبيانِ حالهم ومآلهم في سورةِ البلد (١٨ - ٢٠).

وبلفظِ أصحابِ اليمينِ وأصحابِ الشمالِ في السورة نفسها (٢٧، ٤١).

جملة مقارنات

ربُّنا يعلمُ ما ظهرَ وما لم يَظهر:

{سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [سورة الرعد: ١٠].

أي: يَستوي في عِلمِ اللهِ المسِرُّ بالقَولِ والمعلِنُ به، ومَن هوَ مُختَفٍ في ظَلامِ اللَّيلِ ومَن هوَ ظاهِرٌ ماشٍ في ضَوءِ النهار.

*** *** ***

وقالَ سبحانه:

{وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} [سورة الرعد: ٢٢].

أي: من صفاتِ المؤمنينَ قوَّةُ عزائمهم، فصبَروا على التَّكاليفِ التي أُمِروا بها، وصبَروا عمّا نُهوا عنه، كما صبَروا على الجِهادِ والدَّعوة، وعلى البَلاء، وفي السرَّاءِ والضرَّاء، وهذَّبوا شَهواتِهمُ النفسيَّةَ والبدنيَّةَ بتَوجيهاتِ الدّينِ الحَنيف، ولم يَنتَقِموا لأنفسِهم عن هوًى وعَصَبيَّة، بل صَبَّروا أنفُسَهم وتأدَّبوا بأدَبِ الإسلام، طَلَبًا لرِضاءِ الله، وطَمَعًا في جَزيلِ ثوابِه.

وأقاموا الصَّلاة، فواظَبوا عليها وأدَّوها بأركانِها وشُروطِها وفي مَواقيتِها.

وأدَّوا زَكاةَ أموالِهم، وأنفَقوا ممّا وهبَهمُ اللهُ مِن مالٍ للمُحتاجينَ فقضَوا حوائجَهم، وأسهَموا في أعمالِ الخَيرِ فتصَدَّقوا سِرًّا وجَهرًا، لا يَمنعُهمْ مِنْ ذلكَ شَيء.

ويُجازُونَ الإساءةَ بالإحسَان، ويَدفَعونَ الشرَّ ما استَطاعُوا، ويَدرَؤونَ الأذَى والقَبيحَ مِنَ القَولِ والفِعلِ بخُلُقٍ جَميل، وكَلمَةٍ طيّبة، وعَفو.

فأولئكَ المتَّصِفونَ بتِلكَ الصِّفاتِ الجَليلَة، لهمُ العاقِبَةُ الحسَنة، والمرجِعُ الطيّبُ في الآخِرَة.

*** *** ***

وعزائمُ الناسِ في العملِ وثوابُها مختلف. قالَ الله تعالى:

{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [سورة فاطر: ٣٢].

أي: ثمَّ جعَلنا القُرآنَ الكريمَ يَنتَهي إلى مَنِ اختَرنا مِن عِبادِنا، وهم أُمَّةُ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، ومِن هذهِ الأمَّةِ مَن هوَ مُقَصِّرٌ في العمَلِ بالقُرآن، وبما أوجبَهُ اللهُ عَليه، فيُضِرُّ بنَفسِهِ عندَما يُعرِّضَها للعُقوبَة، ومنهم وسَطٌ في الأمر، فيُطيعُ تارَةً ويُخالِفُ أُخرى، ومنهم مَن يُحرِزُ الفَضلَ ويَسبِقُ إلى الجَنّة، بإذنِ اللهِ وتَوفيقِه، فيَعمَلُ الواجِباتِ ويَترُكُ المحرَّمات، وإذْ خَصَّ اللهُ هذهِ الأُمَّةَ بالقُرآن، فإنَّهُ فَضلٌ عَظيمٌ منهُ عَليهم.

*** *** ***

وقالَ سبحانهُ في كتابهِ العزيز:

{مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} [سورة هود: ٢٤].

تفسيرها: مِثالُ الفَريقَين: الكافرِ الشَّقيّ، والمؤمِنِ السَّعيد، كحالِ مَن جَمعَ بينَ العَمَى والصَّمَم، ومَن جَمَعَ بينَ البصَرِ والسَّمع، فهل يَستَوي الفَريقان؟ الكافِرونَ أعرَضُوا عنِ الحقِّ لأنَّهم لم يَنتَفِعوا بحاسَّتَي السَّمعِ والبصَر، والمؤمِنونَ انتَفَعوا بهما فآمَنوا واهتَدَوا إلى طريقِ الجنَّة. أفلا تّتَّعِظونَ بهذا المثَلِ وتَتأمَّلُونَه، حتَّى لا تَخسَروا؟

*** *** ***

وقالَ عزَّ مِن قائل:

{وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ} [سورة غافر: ٥٨].

أي: لا يَستَوي الكَفيفُ الذي لا يُبصِرُ شَيئًا والبَصيرُ الذي يرَى ما انتهَى إليهِ بَصرُه، وكذلكَ لا يَستَوي المؤمِنونَ الصَّالِحونَ والكافِرونَ المسِيؤون. ما أقَلَّ ما تَتذَكَّرونَ هذا!

*** *** ***

وقالَ ربُّنا العليم:

{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [سورة الأعراف: ١٧٩].

أي: لقد خَلقنا للنارِ وهيَّأنا لها كثيراً مِنَ الإنسِ والجِنّ، وهمُ المصِرُّونَ على الكُفرِ والضَّلال، الرافِضونَ للحَقِّ رغمَ وضُوحِه، فلَهم قُلوبٌ لم يَستَعمِلوها لمعرفةِ الخَيرِ والهُدَى، ولا ليَفقَهوا دلائلَ الإيمان. ولهم أعينٌ لم يَستَعمِلوها لتبصُّرِ آياتِ اللهِ الكونية، ولا لمعرفةِ خالقِ الشَّواهدِ الحسّية، ولهم آذانٌ لا يَسمَعونَ بها كلامَ اللهِ الحقّ، ولا مَواعِظَهُ وزَواجِرَهُ في كتابهِ الكريم، الذي أنزلَهُ لهدايةِ عبادِه. فأولئكَ كالحيَوانات، قد عطَّلوا ما وهبَهمُ اللهُ مِنَ الحواسِّ المدرِكة، ولم يَستَخدِموها لوظائفها الحقِيقيَّة، فصَاروا كالحيَواناتِ التي لا تَعقِل، بل هم أضلُّ منها، فهيَ تُمَيِّزُ بينَ كثيرٍ منَ المضارِّ والمنافع، فلا تُقْدِمُ عليها حتَّى لا تَهلِك، وهؤلاءِ الكفّارُ غَفَلوا عمّا يُصلِحُهم في الدُّنيا ويُخَلِّصُهم مِن وعيدِ اللهِ وعِقابهِ في الآخِرَة.

*** *** ***

والتعاونُ يكونُ على البرِّ والتقوى، لا على الإثمِ والعُدوان:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [المجادلة: ٩]:

أيُّها المؤمِنون، إذا تَناجَيتُم في مَجالسِكم وأنديَتِكم، فلا تَتناجَوا بما فيهِ إثمٌ وتعَدٍّ على حُقوقِ الآخَرين، ومُخالفَةٌ لسُنَّةِ الرسُولِ الكريمِ صلى الله عليه وسلم، كما يَفعَلُهُ اليَهودُ والمنافِقون، ولكنْ تَناجَوا وتَباحَثوا بما فيهِ خَيرٌ ومَنفَعَةٌ وإحسَان، واخشَوا اللهَ وانتَهُوا عمَّا نَهاكم عَنه، فإليهِ تُحشَرون، ليُحاسِبَكم على ما تَعمَلون.

الفهرس

مقدمة ٣

الأبيض والأسود ٥

الإخلاص والرياء ٦

الأخوَّة والعداوة ٧

الاستبشار والاشمئزاز ٧

الاستقامة والانحراف ٨

الاستيفاء والنقص ٩

الأعجمي والعربي ٩

الإعطاء والمنع ١٠

أعلى وأسفل ١١

الأعمى والبصير ١٣

الإفساد والإصلاح ١٥

الإقامة والسقوط ١٦

الإقبال والإعراض ١٦

الإكرام والإهانة ١٧

أمام وخلف ١٧

الأمانة والغدر ٢٠

الأمر والنهي ٢١

الأمن والخوف ٢١

الإنتاج والعجز عن العمل ٢٣

الإنسان والحيوان ٢٤
الانشراح والضيق ٢٥
الإنفاق ودرجاته ٢٥
الأول والآخِر ٢٦
الإيثار والشح ٢٧
الإيمان والكفر ٢٨
البخل والإسراف ٣٦
البرّ: حقيقته وما يناقضه ٣٧
البرّ والبحر ٣٩
البسط والقبض ٤١
البقاء والفناء ٤٣
البيع والربا ٤٣
التبشير والإنذار ٤٥
التدبر والتبلد ٤٦
الترغيب والترهيب ٤٦
التزكية والإفساد ٤٦
التقدم والتأخر ٤٧
التقليد والتفكير ٤٩
التقوى والفجور ٤٩
التوحيد والشرك ٥٠
الجحود واليقين ٥٢

الجنة وجهنم ٥٣
الجهاد وما دونه ٥٥
الجهر والإسرار ٥٦
الجود والبخل ٥٧
الحبُّ والكره ٥٧
الحبُّ ودرجاته ٥٩
الحجاب والتبرج ٦٠
حرٌّ وأشدُّ حرًّا ٦٠
الحرارة والبرودة ٦١
الحركة والسكون ٦١
الحسنة والسيئة ٦٣
الحفظ والنسيان ٧٠
الحق والباطل ٧٠
الحلال والحرام ٧٢
الحلو والمرّ ٧٤
الحياة والموت ٧٥
الخشية والقسوة ٨١
الخطأ والعمد ٨٣
الخفيف والثقيل ٨٣
الخير والشرّ ٨٤
الدخول والخروج ٨٨

الدنيا والآخرة ٨٩
الذكر والأنثى ٩٧
الرحمة والعقوبة ١٠١
الرضا والسخط ١٠٣
الرطب واليابس ١٠٤
الرفع والخفض ١٠٤
الزواج والطلاق ١٠٥
سبيل الله وسبيل الطاغوت ١٠٥
السبيل الواحد والمتفرق ١٠٦
السجود والتعالي ١٠٦
السرُّ والعلن ١٠٧
السرّاء والضرّاء ١١١
السعادة والشقاء ١١١
السعة والضيق ١١٣
السفر والإقامة ١١٣
السماء والأرض ١١٣
السِّمَن والهُزال ١٢٧
الشتاء والصيف ١٢٨
الشروق والغروب ١٢٨
الشك واليقين ١٣٠
الشكر والكفران ١٣١

الصباح والمساء ١٣٢
الصدق والكذب ١٣٦
الصغير والكبير ١٣٩
الصمم والسماع ١٤٠
الضحك والبكاء ١٤٠
الطاعة والمعصية ١٤١
الطيّب والخبيث ١٤٢
الظاهر والباطن ١٤٥
الظلمات والنور ١٤٦
العداوة والمودَّة ١٤٩
العزُّ والذلّ ١٥٢
العفة والفجور ١٥٣
العقل والهوى ١٥٤
العلم والجهل ١٥٤
الغيب والشهادة ١٥٦
الفراغ والشغل ١٥٦
الفرح والحزن ١٥٦
الفقر والغنى ١٥٨
قبل وبعد ١٦٠
القتل وما يضاده ١٦٠
القرب والبعد ١٦٢

القليل والكثير ١٦٣
القول والفعل ١٦٣
القوة والضعف ١٦٤
الكفر ودرجاته ١٦٧
لهاث الكلب في الحالين ١٦٧
الليل والنهار ١٦٨
المحكم والمتشابه ١٧٥
المرض والشفاء ١٧٦
المعروف والمنكر ١٧٦
النصر والهزيمة ١٧٨
النضارة والشحوب ١٧٩
النفع والضرّ ١٨٠
النقص والزيادة ١٨٢
النوم واليقظة ١٨٣
الهدى والضلال ١٨٣
الواحد والجمع ١٨٩
الوالد والولد ١٨٩
الوحدة والفرقة ١٩٠
الوفاء والنكث ١٩١
اليأس والرجاء ١٩١
اليسر والعسر ١٩٢

اليمين والشمال ١٩٣
جملة مقارنات ١٩٥
الفهرس ١٩٩